دراسات في
الأدب الجاهلي والإسلامي

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دراسات في
الأدب الجاهلي والإسلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هـــذه دراسات تفصيلية للحياة الأدبية فى عصرين من أزهى عصور الأدب وأنضرها على الإطلاق ، وهما : عصر الجاهلية وعصر صدر الإسلام؛ والعصر الأول وهو العصر الجاهلى وضع أصول الأدب العربى ومقوماته ورسومه الفنية سواء فى القصيدة أم فى الخطبة أم فى فنون الأدب الأخرى من وصايا ومحاورات ومفاخرات ومنافرات وسجع كهان .

ومن هذه الأصول نستمد مختلف مقومات القصيدة والخطبة والوصية ونسير عليها ونحتذى منذ كان الأدب حتى اليوم .

والعصر الثانى وهو عصر صدر الإسلام جاء بأعظم آثار البلاغة العربية على الإطلاق ، وهما القرآن الكريم رسالة السماء إلى الأرض ، ثم الحديث النبوى الشريف ، وكما أحدث هذا العصر كل مقومات حياتنا الروحية والأدبية والعقلية ، فقد جاء بأعظم رسالة نزلت على أكرم وأشرف رسول ، وهـــو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه الدراسات تناولت كل ظواهر الأدب وسماته وعناصره وأصوله ، بالدراسة والتحليل ، وعرضت لأشهر خصائصه ومميزاته فى كل من العصرين وهى دراسة تتسم بالشمول والعمق والدقة معا .

ونحن إذ نقدمها للدارسين والباحثين ، نعتز بها لأنها ثمرة جهد متواصل وبحث طويل .

ومن الله نستمد العون والتوفيق والسداد .



القسم الأول

الحيـــاة الأدبية للجاهليين

الفصل الأول

مقدمات فى أصول الأدب العربى

الأدب العربى ودراساته

— ١ —

أدب اللغة العربية مأثور شعرها الجيل ونثرها البليغ المؤثر فى النفس المثير للعواطف . وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تمس الحاجة إليه فى فهم الأدب ، كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والفلك والعقائد والنحل، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً فى النصوص الأدبية كما نجدها فى شعر أبى العلاء والمتنبى وغيرهما ، والأدب صورة الحياة ومرآتها . تتمثل فيه جوانب النهضة ، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان الثقافة ، ومرافق الحياة ، ونوازع النفوس ، لكل أمة من الأمم فى كل عصر من العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف[1] » . ويقول ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالما فليلزم فنا واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع فى العلوم » .

وعلى هذا النحو تجد أمهات الكتب الأدبية كالأغانى والأمالى والكامل والعقد الفريد والبيان والتبيين .

— ٢ —

ولقد كان منهج المؤلفين من أدباء العربية فى كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء ورواية آثارهم الأدبية ونقدها أو شرحها وتحليلها ، وقد يوازنون بينها وبين

---

(١) المقدمة ٤٨٨ ـ ويلاحظ أن هذا ليس تعريفا للأدب بمعنى هذه النصوص التى ندرسها ونلشئها ، وإنما هو فى الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الأدب ولفهمه ونقده .

غيرها من الآثار ، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ، ونحو ذلك مما نجده مبثوثاً مفرقاً فى كتبهم الكثيرة ، أو مجتمعاً قليلا فى بعض الكتب . وقد برزوا فى هذه النواحى تبريزاً قويًّا ظهر فى كتبهم ، كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، والأغانى لأبى الفرج ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقرى ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والموازنة للآمدى وغيرها .

غير أن ما فى هذه الكتب لا يعدو — فى الجملة — أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصراً من العصور ، ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً فى زمن من الأزمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة فى الصنعة والمذهب ، ولا تذكر ما عرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، فهى أدب لا تاريخ أدب .

وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقة ، واستمدوا منها أصولا أعانتهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم فى تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية ، وحللوا المؤثرات العامة التى أثرت فى كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهبهم ، وما يكون من تأثير القديم فى المحدث ، وما يكون من المشابه والفروق التى تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقربهم ، وغير ذلك من الدراسات التى لم يعهدها أدباء العرب والتى نسميها نحن الآن « تاريخ الأدب العربى » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها ، ويصور ما يختلف عليها من رقى وانحطاط فى مختلف العصور والأطوار، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الصناعتين ونقد مؤلفاتهم وتأثير بعضهم فى بعض بالفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون فى القرن الثامن عشر وعنى به المستشرقون فى القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولا فى الشرق حتى اشتد خلاطه

بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المرحوم الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه فى دار العلوم .

ثم تتابع المؤلفون على هذا المنهج كالإسكندرى فى (الوسيط) وجورجى زيدان فى (تاريخ آداب اللغـــة العربية) والرافعى فى (تاريخ آداب العرب) والزيات فى (تاريخ الأدب العربى) وغيرهم من أساتذة الجامعة والأزهر .

أما كتابا « الوسيلة الأدبية للمرصفى » و « المواهب الفتحية » لحمزة فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهى كما ذكرنا من كتب الأدب لا من كتب تاريخ الأدب . لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية ، وتاريخه هـــو العلم الذى يبحث فى أحوال هذه النصوص وأطوارها والعوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التى أثرت فيها .

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العـام من حيث حاجة كل منهما إلى الآخر ، فالتاريخ السياسى يحتاج إلى تاريخ الأدب فى استظهار بعض الصور الأدبية التى تتصل بالأخلاق مما يعينه على تعليل التقلبات السياسية ونحوها . والتاريخ الأدبى يحتاج إلى التاريخ السياسى فى استنباط الصورة الأدبية الصحيحة بمـا يعرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة فى الأدب وفى حياة الأديب أو الشاعر ، فكلاهما متأثر بالآخر مؤثر فيه .

هـــذا ومؤرخو الأدب يقسمون عصور تاريخ الأدب العربى إلى أقسام حسب الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الأقسام هى : العصر الجاهلى ويقدرونه بقرن ونصف قبل الإسلام ، وعصر صدر الإسلام من البعثة إلى سنة ٤١ هـ ، والعصر الأموى من ولاية معـاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ والعصر العباسى من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ . ثم عصر الدول المتتابعة حتى بدء حكم محمد على سنة ١٢٢٠ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد على إلى اليوم .

وهذا فى الواقع تقسيم تقريبى مبنى على مسايرة اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة ، نظراً لأن هذه المسايرة تكون بطيئة ، وتأثر الأدب بهذه الانقلابات يكون تدريجيا بعد أن تتشبع نفوس الأدباء بالأحداث الجديدة .

— ٣ —

وينقسم الأدب إلى إنشائى ووصفى ، فالأدب الإنشائى هو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخوالج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها فى نفسك وتجـــدها فى قلبك متمثلة فى عواطفك وميولك وأهوائك ، أم خارجية تراها فى الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة أو راقك مشهد من مشاهدها ، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الازدراء ، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هـذا التصوير الذى يتمثل فى شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن ، وارتجلته مقلداً به الطبيعة التى يظهر ابتئامها وغضبها مثلا فى عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضاها فى ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر ، وإذن فموضوع الأدب الإنشائى الطبيعة داخلية أو خارجية .

أما الأدب الوصفى فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائى بالوصف والنقد والتقريظ ، فيثنى عليها ويطريها إن رضى عنها ، وينقدها ويعيبها إن سخط عليها ، فهذا النقد أو التقريظ لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً ، ولا يصور تأثر صاحبه بها ، وإنما يصف الـكلام الذى قيل فى تصوير الطبيعة ، فموضوعه إذن هو الـكلام لا الطبيعة : القصيدة التى تصور البحر لا البحر نفسه .

فالأدب الوصفى إذن هو الذى نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجد بعد الأدب

الإنشائى ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الأدب ، إذ كان مما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها .

وبهذا نستطيع أن نقسم الأدب الوصفى إلى قسمين : أحدهما النقد الذى يبين ما يمتاز به الأدب الإنشائى من المحاسن والعيوب ، والآخر تاريخ الأدب . وقد عرفت مهمته فى بيان أحوال الأدب وأطواره .

— ٤ —

وينقسم الأدب كذلك إلى ذاتى وموضوعى .

فالأدب الذاتى هو الذى يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر الغنائى — وهو قسيم التمثيلى والقصصى — من الأدب الذاتى لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية وخوالجه النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الموضوعية ، بل معناه أن الصبغة الذاتية هى الراجحة فيه .

والأدب الموضوعى هو ما لا يعبر به الأديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنما يعبر به عما يجول بخواطر غيره فالأدب التمثيلى والقصصى من الأدب الموضوعى ، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يجول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخى فى أسلوب بليغ دون أن يصبغ عباراته بنزعاته وميوله وآرائه الخاصة .

العوامل المؤثرة فى الأدب

الأدب مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ، يخضع لما تخضع له ، ويتأثر بما تتأثر به ، فما هو إلا التعبير القوى الصادق عما تجيش به نفس الأديب من مختلف المشاعر والخواطر والأخيلة ، وهذه تتأثر بعوامل الطبيعة وأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة ، فالأدب صورة إقليمه ، والأديب ابن بيئته ، وإذن فمن واجب مؤرخ الأدب أن يلم بهذه العوامل ، لأنها تعينه على فهم الأدب وتذوقه ورده إلى أصوله وتفسيره ، كما أن من واجب دارس الأدب أن يضيف إلى الإلمام بذلك المؤثرات الخاصة التى لابست حياة الأديب الشخصية ، ووجهت مذهبه ولونت مزاجه .

فمن أهم العوامل المؤثرة فى الأدب :

أولا ـ الاستعداد الفطرى : فهناك إنسان قد جبل على دقة الحس ورقة الشعور وصفاء الطبع ، فهو يتأثر بما يحيط به ، فيصور تأثره هذا فى الشعر أو النثر . وهناك إنسان قد أتيح له من ذلك حظ يسير أو لم يتح له شىء من هذا الاستعداد . والأمم كالأفراد فى هذا الحظ . فالأمة العربية قد منحت من هذه المواهب حظا عظيما ، فقد كان العرب أقوى الأمم شاعرية وأشعر الأمم السامية ، لفراغهم وشدة حسهم وصفاء قرائحهم وحريتهم واستقلالهم وصفاء سمائهم ، وسكون صحرائهم ، وحنينهم وهيامهم : بسبب كثرة حلهم وترحالهم . . وكذلك كان حظ الأمة اليونانية من هذا الاستعداد ، أما الأمة الرومانية فقد كان حظها منه قليلا ، فأتيحت لها مواهب أخرى هيأتها للنبوغ فى الحرب والسياسة والتشريع .

ثانيا ـ الإقليم والمناخ : قد يكون الإقليم صحراويا ، وقد يكون جبليا ، وقد يكون سهلا ، وقد تشقه الأنهار أو يكون قريباً من البحر . وهذه العوامل تؤثر فى الحياة المادية والمعنوية للأمم التى تعيش فى هذه الأقاليم ، فأحوال الأقليم هى التى تنهج لساكنيه سنن المعيشة ، ونظام الاجتماع ، وتكون أخلاقهم وطباعهم ، ومناظره هى

التى تربى ذوق أبنائه ، وتغذى خيال كتّابه وشعرائه ، فالشعر الجاهلى مثلا متأثر أشد التأثر بطبيعة البادية وحياة البدو ، ففى ألفاظه خشونة جبالها، وفى معانيه وحشية أوابدها ، وفى أساليبه تشابه صخرها ، وفى أخيلته جدب قفرها ، وأنت تستعرضه فتراه صورة صادقة لهذه الطبيعة ، وترى فيه وصف الصحراء والسراب والأباعر والغزلان والكثبان والأطلال والجبال أكثر مما ترى أى شىء آخر .

فلما انبث العرب فى الأقاليم المتحضرة تأثرت آدابهم بها ، وكان شعرهم فيها غير شعرهم فى الجزيرة ، بل كان شعرهم فى إقليم يختلف عنه فى الأقليم الآخر وهكذا ظل عامل الطبيعة يفعل فعله ، حتى رأيناه يختلف بين الشعر فى عواصم الشرق وبينه فى الأندلس ، فقد وجد شعراء العرب فى الأندلس الطبيعة المتبرجة الشاعرة من مروج مطرزة بالزهر ، وجبال مؤزرة بالنبت ، وأنهار تلتف كالأساور على معاصم الهضاب ، وخمائل تمتد كالأهداب على العيون المذاب ، هذا إلى الأمطار المتصلة ، والمناظر المختلفة . فدبجوا الشعر تدبيج زهرها ، وسلسلوه سلسلة أنهارها ، ونوّعوا فيه ، وجددوا فى أوزانه وقوافيه .

وهذا العامل هو الذى يخالف كذلك بين الأدب فى مصر وبينه فى الشام والعراق ، فالطبيعة المصرية مسالمة لاتزعج بالزلازل ، ولاتهز بالعواصف ، ولايهيجها البرد القارس . ولا يلذعها الحر اللافح . فجوها لا يكاد يختلف ، ومناظرها لا تكاد تتغير ، ولهذا طبع أهلها على المحافظة والوداعة والفكاهة وجاء الشعر المصرى متضد اللفظ جيد السبك بطىء التجدد هادىء الأسلوب ، يتناول الأمور فى اعتدال ورفق ولين؛ بينما نرى الشعر الشامى شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الأساليب ، بسبب نشاط الحياة وتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة . وبينما نرى الشعر العراق قويا ثائراً ساخطاً متوثباً متوقد الشعور من إسراف الطبيعة فى الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على السكان .

وقد أخذ عامل الطبيعة يضعف بسهولة المواصلات وانتشار المدنية، وسيزداد ضعفا فى المستقبل ، ولكنه سيحتفظ بتأثيره على كل حال .

ثالثاً ـ خصائص الجنس : فالجنس الآرى يميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، بينما يميل الجنس السامى إلى التعميم والإجمال والبساطة لذكاء قلبه وحدّة خاطره ، وهكذا يتميز كل جنس بخصائصه وسماته . وهى خصائص تؤثر فى الإنتاج الأدبى وتبدو فيه بصورة واضحة ، فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان والأوربيين فى المذهب والخيال والغرض ، وشعر ابن الرومى مثلا يختلف عن شعر ابن المعتز مع أنهما نشآ فى بلد واحد وعصر واحد . فابن الرومى يحلل ويتعمق ويستقصى ، بينما يعمم ابن المعتز ويجمل ويتبسط لأنه عربى أصيل .

رابعاً ـ الحضارة والاجتماع : فالحضارة والرخاء مما يؤثر فى الذوق ، ويزيد فى الصور والمناظر ، وينوّع فى معانى الأدب وأغراضه . فالمعانى التى تخطر المتحضرين غير المعانى التى تخطر لأهل البادية ، والأغراض التى يقول فيها أهل الحضر غير أغراض البدويين . والألفاظ الحضرية تلائم الحياة المتحضرة رقة وعذوبة ووضوحاً وحسن استقصاء . ولهذا نجد الفروق عظيمة بين شعر العرب قبل أن يتحضروا ، وبعد أن تحضروا فى مصر والشام والعراق والأندلس . وكذلك نرى الفروق عظيمة بين شعرهم إبان ازدهار حضارتهم وشعرهم بعد انحطاط الحضارة الإسلامية حين تغلب الترك والتتار . ومن هنا عاد إلى الأدب العربى رونقه ورقيه بوجه عام حين أخذت الحضارة تزدهر منذ كانت النهضة الحديثة .

ومن شواهد تأثير الحضارة والحياة الاجتماعية فى الأدب أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان إلى أواخر القرن الأول للهجرة ، غرق أهلها فى اللهو وعكفوا على الغناء وشرقوا بالنعيم واستسلموا للصبابة وانقطع شعراؤها إلى الغزل فافتنوا فيه ، وتصرفوا فى معانيه . كعمر وجميل وكثير .

ومن الشواهد كذلك ظهور الشعر العامى فى بغداد والأندلس فى عصر واحد ، ففى بغداد ظهر المواليا على لسان صنائع البرامكة وشعر القوما الذى كان ينادى به رعاع العامة فى طوافهم بالليل فى شهر رمضان ، وفى الأندلس ظهر الموشح والزجل ، ونبغ

فيهما النوابغ . ولكن البغداديين استهجنوا أدب العامة وعزفوا عنه، بينما استحسنه الأندلسيون ونبغوا فيه . والسبب فى ذلك أن بغداد كانت أرستقراطية ، لأنها موطن الأشراف وذوى الأحساب والثروة ، فكانوا يترفعون عن الشعب وأدبه ، ويأنفون من مجاراته . أما الأندلس فكانت ديمقراطية غنية، لم يمتز أحد فيها بالنسب لتساويهم فيه ، ولا بالثروة لعموم الرخاء وحسن توزيع الثروة ، لذلك لم يترفع الشعراء والأدباء فيها عن تقليد الأدب العامى وتدوينه .

خامساً ـ العلم : وهو لون من ألوان الحضارة له أثره وخطره فى ترقية العقل وتقوية الشعور وتنمية التصور ، وخلق أنواع طريفة من الأدب . فإذا صرفنا النظر عن منظومة ابن عبد ربه فى التاريخ وألفية ابن مالك فى النحو ، فإننا نلاحظ أن انتشار العلوم قد أحدث نوعا من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقا لرأى أو تشويقا لعلم . كما صنع ابن طفيل الأندلسى فى رسالة (حى ابن يقظان) فقد شرح فى هذه القصة كيف يستطيع الإنسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية ، ولكنه يعجز عن إدراك أرق الحقائق بغير وحى من الله أو هداية نبى .

وللتاريخ تأثير كبير فى الأدب فهو مادة لا بد منها لثقافة الأديب يستمد منها فيما يكتب ، ويستعين بها فيما يفكر . وكثيراً ما كانت أحداثه مادة الأدب وخاصة فى العصور الحديثة ، حيث أصبحت موضوعا مهما للقصص التاريخية كما فعل شكسبير فى بعض قصصه فى الأدب الإنجليزى ، وكما فعل جورجى زيدان وأحمد شوقى وغيرهما فى الأدب العربى . ومن ناحية أخرى نرى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعا أدبية كما فى تاريخ الطبرى ، بل إن بعض الكتب التاريخية كتب أدبية بأكملها ، وهكذا يكون التاريخ من أهم العناصر التى تنشئ النثر الفنى وقد قالوا إن كتاب هيرودوت هو أقدم كتاب منثور رائع عرفه الأدب اليونانى .

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة فى المادة والأسلوب ، وأثر قوى فى ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح .

ولم يرتق النثر فى أمة إلا بعد رقيها فى الحضارة والعلم ، لأن النثر لغة العقل كما أن الشعر لغة الخيال ، فالنثر العربى لم يرق إلا فى ظلال الحضارة .

وهذا وقد يختلف تأثير انتشار التعليم فى الأدب باختلاف ما يكون له من مدى، فانتشار العلم فى العصور القديمة كان نسبيا مقصوراً على طائفة خاصة ، فكان الأدب أرستقراطيا أو قريبا من الأرستقراطية ، فأما فى العصور الحديثة حين أتيح العلم للناس جميعا فقد أصبح الأدب ديمقراطياً شعبياً ،وأخذ الأدباء يفكرون حين ينشئون فى طبقات من الناس لم يكن يفكر فيها أسلافهم .

سادسا ـ الدين : وللدين وما يتصل به من أخلاق ومعتقدات تأثير كبير فى الأدب ، فإنه يخلق موضوعات جديدة ، ويؤثر فى الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه فى مناحى الأدب ، ولا بدع فالدين قوام الحياة النفسية للشعوب ، ومن ثم كان أثره واضحاً فى كل ما يصدر عنها من آثار مادية ومعنوية ، فالآثار المادية الفنية كالمعابد والمساجد والكنائس والتماثيل ، أما المعنوية فنها هذه الأناشيد الدينية التى هى مبدأ الشعر فى كل أمة كأناشيد (رع) عند المصريين وأناشيد (أرفيه) عند اليونانيين ، ومنها هذا السجع الذى كان يجرى على ألسنة الكهان فى الجاهلية والذى يظن أنه مبدأ الشعر العربى ، وكثير من الديانات صحبه كتاب مقدس يعد مثالا أدبياً ممتازاً كالقرآن الكريم ، والأدب التمثيلى أثر من آثار بعض الديانات اليونانية ، وقد أوجد الدين الإسلامى الأدب الصوفى ، وشعر الزهد ، ونهض بالخطابة الدينية التى تلقى فى محافل الصلاة العامة ومقامات الوعظ ، ونحو ذلك مما يدلنا على أن تأثير الدين فى الحياة الفنية قوى عميق ، وهو فوق ذلك يهذب النفس ويرقق الشعور ويسمو بالإنسان إلى مستوى رفيع .

سابعا ـ الحياة السياسية : وللنظام السياسى أثره فى خلق فنون من الأدب أو ازدهار بعض ألوانه ، أو انحطاط بعضها ، فالنظام الاستبدادى العنيف ينتج ألوانا من الأدب يظهر فيها التملق والنفاق والإسراف فى تمجيد أصحاب السلطان ، ومن

ثم يزدهر فن المدح ، وفى ظلال الحرية والنهضة السياسية تزدهر الخطابة ولا سيما الخطابة السياسية ، ذلك النوع الذى تخلقه الحرية السياسية والحيـــاة الديمقراطية والأنظمة الدستورية ، كما حــــدث فى النهضة المصرية المعاصرة التى أخرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . وكذلك يزدهر الشعر الحماسى والوطنى ونحوهما من الشعر السياسى الذى تصطنعه الأحزاب السياسية كما نرى اليوم وكما رأينـا فى صدر الدولة الإسلامية ، وفى ظـــلال الاستبداد يخفت صوت الخطابة ويذهب الأدب الصريح الصادق الذى يمثل الحرية الفردية والاجتماعية .

وتعمل السياسة عملها فى رواج بعض الفنون وانتشارها ، ففى خـلافة معاوية انتشر الهجاء المقذع فى العراق لأنه ساسه بالتفريق وإحياء العصبية ليشغل الناس عن الخصومة فى خلافته بالخصومة فى أمر جرير والفرزدق مثلا ، وانتشر الغزل فى الحجاز لأنه اعتقل شباب الهاشميين فى مدنه وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال والفراغ .

وقد يكون ضعف السياسة قوة للأدب كما حدث من ازدهار الأدب بعد انصداع شمل الخلافة بعد عهـــد المتوكل واستقلال الولاة فى فارس ومصر والشام والمغرب بسبب المنافسة بين هؤلاء الولاة .

ثامناً ـ اتصال الشعوب : وقد تـكون الصلة بين الشعوب حربية فتصل بين الغالب والمغلوب وينتفع كل بما عند الآخر ، فقد تأثر الرومان بحضارة اليونان وآدابهم لهذا السبب ، كما أفاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد التى فتحوها ، على أن الحروب بين الشعوب تنمى فنونا حماسية وربما أوجدت الشعر القصصى : فالإلياذة الإغريقية تدور على حروب اليونان لأهل طروادة ، والشاهنامة الفارسية على تاريخ الأكاسرة ووصف الحرب بين أهل إيران وأهل طوران ، وهكذا كان الشعر القصصى أو الملاحم التى خلا منها الشعر العربى لعوامل ترجع إلى البيئة والإقليم والدين ، على أن عامل الحروب قد أثر فى النثر العربى والشعر العامى فإن نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بنى هلال ونحو ذلك ، كما أثر فى الشعر الفصيح الذى يصور أيام العرب ووقائعها فى الجاهلية .

أما الاتصال السلمى بين الشعوب فيتيح لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية وغيرها ، وتتواصل بالجوار والمصاهرة وهكذا يأخذ بعضها من بعض ، ويقلّد بعضها بعضا .

فتنشأ فى الأدب فنون لم تكن معروفة ، وتتطور الفنون التى كانت معروفة ، وقد تضعف فنون كانت قوية قبل الاتصال ، فهذه دولة العباسيين فى بغداد ودولة الأمويين فى قرطبة كانت حضارة كل منهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة ، لكل شعب منها خصائصه ، فالتقت العقلية السامية بالعقلية الآرية ، وكان لهذا اللقاح أثر فى الفكر يمثل لنا وفرة المعانى الجديدة فى شعر بشار وأبى نواس وابن الرومى وغيرهم ، وأثر فى الاتجاه يظهر فى الأغراض الجديدة كالغزل بالمذكر مثلا الذى ولده هذا الاختلاط .

وقد اتصلت مصر والشرق العربى بأوربا منذ القرن الماضى فتطورت الحياة الأدبية فيهما تطوراً ملموساً . وتأثر الأدب المصرى بالأدب الأوربى فى أساليبه ومذاهبه .

تاسعا ـ التقليد والاحتذاء : والتقليد فطرى فى الإنسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم أو يتعلم ، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب ، فالشعر والنثر إنما يصاغان على قواعد وأساليب خاصة ، وما مراعاتهما إلا اقتداء الأديب بمن سبقه وترسم خطاه .

وللتقليد فى الآداب أثر ظاهر ، فالشعر اللاتينى عاش زمنا على تقليد الشعر اليونانى ، كما قلد الأوربيون اليونان فى الشعر التمثيلى وغيره من الملاحم وظهر أثر التقليد فى الأدب العربى الحديث فظهر الشعر التمثيلى على يد شوقى وغيره من الشعراء وظهرت الأقصوصة والقصة والرواية ، وغير ذلك مما أضاف إلى فصوله فصولا خالدة .

والأدب الفارسى والأدب التركى قد تأثرا بالأدب العربى ، فقرض الفرس الشعر بالعربية ، أما الأتراك العثمانيون فإنهم حين أخذوا يدوّنون أشعارهم فى القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مددا لأوزانهم القديمة .

عاشراً : وهناك عوامل أخرى كثيرة تؤثر فى الأدب بعضها خاص وبعضها عام، لايمكن حصرها وإن كان ينبغى أن نذكر منها أيام العرب وأسواقها، وسنتحدث عنها فى فصل خاص ، وكذلك النقد الذى يرشد الأدباء إلى المناهج الصالحة والغناء الذى يهذب ألفاظ الشعر ويرقق حاشيته، ويذيع الأدب وينشره بين جميع الطبقات ، فيرتفع بأذواق العامة وأفكارهم وأساليبهم كما نرى فى عصرنا الحالى ، ويجب ألا ننسى مجالس الأدب التى كان يعقدها أمثال عبد الملك بن مروان وما لها من أثر كبير فى النهوض به ، والمنافسة فى روايته ، كما لا ننسى أثر تشجيع الأدباء وإجازتهم مما يدعو إلى الإجادة والإبداع وغير ذلك مما يؤثر فى الأدب .

والخلاصة فى ذلك أن أى أثر فى الحياة يظهر فى الأدب لأنه صورتها وترجمانها وتاريخها[1] .

---

(١) من مصادر هذا البحث : أصول النقد الأدبي للأستاذ أحمد الشايب ، فى أصول الأدب للأستاذ الزيات ، التوجيه الأدبى للدكتور طه حسين، مقالة للدكتور أحمد أمين فى مجلة دار العلوم.

اللغة العربية[1]

أصل اللغة العربية :

هى إحـــدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا ، وهى لغة الجنس العربى الذى سنتحدث عنه وعن موطنه وحياته العامة وصفاته وأخلاقه فى العصر الجاهلى .

ولغات السامية هى ـ حسب ترتيبها ترتيباً زمنياً مطابقا لانتشار آدابها ـ كما يأتى :

١ ـ اللغة البابلية والأشورية (من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م) .

٢ ـ العبرية (ظهرت من ١٥٠ ق م) واستمرت إلى يومنا هذا .

٣ ـ السبئية أو الحيرية أو العربية الجنوبية[2] وجدت منها نقوش يرجع تاريخها إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح وقد تلاشى السبئيون نهائيا من صفحات التاريخ حينما أخذ المدنانيون فى الظهور والقوة .

٤ ـ اللغة الآرامية وهى كاللغة الحيرية (نقوش وجدت منها منذ سنة ٧٠٠ ق م).

٥ ـ اللغة الفينيقية وترجع النقوش التى عثر عليها منها إلى القرن السابع قبل المسيح .

٦ ـ اللغة الحبشية (٣٥٠ ق م حتى يومنا هذا) .

---

(١) راجع الـكلام على أصلها وخصائصها وعوامل نموها فى :

الخصائص ـ المزهر ـ الصاحبي ـ كتب فقه اللغة ـ الأدب العربى للرافعى .

وراجع نشأة اللغة فى : ٤٣٣ : ٤ شرح نهج البلاغة ، و٨٠ : ٣ بلوغ الأرب ، والميسر والقداح لابن قتيبة ، وكتاب الأدب للرافعى .

(٢) راجع الـكلام عليها فى ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ط ١٩٢٩ القاهرة . ويرجع ولفنسون معلوماتنا عن اليمن ولغاتها إلى: القرآن وكتب السيرة وكتاب الإكليل للهمدانى ، وبعض مصادر عبرية يهودية ، ومصادر تاريخية يونانيـة ورومانية لهيرودوت وسترابو الرومانى وسواهما، ونقوش وكتابات جمعها الرواد الأوربيون خلال القرن التاسع عشر .

٧ ـ اللغة العربية العدنانية[١] ، وهى لغة الشعر والنثر الجاهليين ولغة القرآن الكريم . وهى من أحدث اللغات السامية عهدا وأقربها ظهورا ، وكل ما ألف ودوّن عنها وما روى من آثارها فهو ليس بعيداً عن البعثة المحمدية بأكثر من مائة عام تقريبا .

والعدنانية هى أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة[٢] لأن الجنس العربى عاش فى عزلة تامة بعيداً عن العالم ولم يختلط بغيره اختلاطا كاختلاط الأجناس الأخرى بسواها ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم[٣] فلم تتأثر لغتهم تأثراً كبيراً بغيرهم، وتمتاز السامية عن اللغات الأخرى[٤] بميزات وخصائص[٥] منها :

(ا) كثرة عدد حروفها .

(ب) أغلب الكلمات فيها يرجع فى اشتقاقه إلى أصل ثلاثى الحروف وهذا الأصل هو الفعل ، والرأى الذى يذهب إليه بعض علماء العربية من أن أصل الاشتقاق هو المصدر مخالف لأصل الاشتقاق فى باقى اللغات السامية ولعله تسرب إلى اللغة

---

(١) راجع تاريخ الأدب العربى للمستشرق الإنجليزى رينولد نيكلسون . وص ١٠٧ الشهاب الراصد للطفى جمعة ط ١٩٢٩ .

(٢) راجع ٧ : ٢ من كتاب تاريخ اللغات السامية طبع القاهرة ١٩٢٩ .

(٣) وقد يكون السبب فى قرب اللغة العربية من الأصل الأول للغات السامية أنها كانت موجودة فى مهد اللغات السامية أو فى ناحية قريبة منه أو أن العناصر التى نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية .

(٤) اللغات الأخرى تشمل مجموعتين : اللغات اليافثية أو الآرية ، واللغات الحامية .
أما الآرية فقد انتشرت فى الهند وسارت منها إلى الأفغان وفارس ثم إلى أوربا . وهى قسمان:
ا ـ الآرية الشمالية وهى لغات أوربا القديمة والحديثة .
ب ـ الآرية الجنوبية وهى السنسكريتية (الهندية القديمة) وفروعها : الهندية الحالية والفارسية والأرمنية والأفغانية .
وأما الحامية فقد انتشرت شمالى أفريقية وتشمل الزنجية والبربرية (لغة سكان المغرب) والمصرية القديمة (قبل فتح الهكسوس لمصر).
وأما اللغات السامية فقد انتشرت غربى آسيا .

(٥) راجع ص ١٤ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩ .

العربية من العلماء الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية إذ الأصل فى الاشتقاق عند الآريين هو المصدر الاسمى .

(ج) ليس فى اللغات السامية أثر لإدغام كلمة فى أخرى حتى تصير الكلمتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلتين مستقلتين كما هى الحال فى غير اللغات السامية .

(د) اقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها .

(هـ) كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة .

(و) اشتراكها فى كثير من الكلمات مع اختلاف قليل أحيانا ويظهر ذلك من التشابه بين العربية والعبرية ، فبعض الكلمات بالسين فى العربية وهى بالشين فى العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية هى شالوم فى العبرية . وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ، وما كان فى العربية بالضاد فهو فى العبرية بالصاد كأرض وأرص وهكذا .

وهذا الاشتراك دليل على أن اللغات السامية من أصل واحد[1] . وأوجه الشبه بين أغلب اللغات السامية تظهر فى بعض أسماء الأشياء التى كانت معروفة لهم جميعاً كأسماء أعضاء الجسم وكالضمائر فإنها متقاربة فيها جميعاً .

وتنقسم اللغة العربية بوجه عام ـ لا اللغة العدنانية خاصة ـ إلى لهجتين :

(ا) لهجات القبائل العدنانية شمالى الجزيرة .

---

(١) يختلف الباحثون فى ذلك : فالبعض يذهب إلى أن اللغات السامية تفرعت من أصل واحد مجهول ، والبعض يذهب إلى أن إحداهن أصل لأخواتها، فقيل البابلية هى الأصل ، وقيل العربية، والراجح أن اللغات السامية تفرعت من أصل واحد مجهول ، وأيد ذلك جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

واللغات السامية من الوجهة الجغرافية تنقسم إلى ثلاث مناطق :

(ا) شرقية وتشمل البابلية والأشورية .

(ب) غربية وتشمل الكنعانية والعبرية والآرامية .

(ج) جنوبية وفيها اللهجات العربية فى جميع بلدان الجزيرة العربية واللهجات الحبشية .

(ب) لهجات القبائل القحطانية جنوب الجزيرة وتسمى اللغة الحميرية[1] وهى أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر فى اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغاً فى التنوين وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة أهل الحجاز وكذلك فى حروف الكلمات فهمزة أفعل فى بعض الكلمات الحميرية هاء .

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز أو اللغة العدنانية فهى أحدث من لغة الجنوب ، وما روى إلينا من شعر جاهلى فهو بها ، لأن الشعراء الذين نظموا هذا الشعر؛ إما من ربيعة أو مضر وهما فرعان عدنانيان ؛ وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطىء وكندة وتنوخ .

واللغة العدنانية هى التى يعنينا البحث عنها ، وهى التى ينصرف إليها الحديث عند إطلاقنا لفظ « اللغة العربية » .

نشأتها :

١ ـ اللغة العربية الباقية ـ التى هى العدنانية ـ هى مزيج من لهجات مختلفة اختلط بعضها ببعض وصارت لغة واحدة بعد أن فنى أصحاب اللهجات الأولى وبادوا بالحروب والمهاجرة والامتزاج بغيرهم[2] .

على أن امتزاج هذه اللهجات وتدخل بعضها فى بعض لم يتم مرة واحدة أو فى زمن واحد بل حدث شيئاً فشيئاً وسار تدريجيا أزمنة طويلة أثناء الجاهلية إلى ما قبل الإسلام بقليل وهكذا كانت لغة الشمال اللغة العدنانية ذات سلطان قوى ونفوذ واسع فى العصور القريبة من ظهور الإسلام فابتلعت اللهجات الجنوبية والتهمتها الواحدة منها تلو الأخرى . وسادت هى فى أغلب أقاليم الجزيرة العربية ، وكونت لنفسها أدباً جديداً وشعراً فنيًّا .

(١) وتشمل اللغة المعينية واللغة السبئية واللغة الحميرية ولغة قتبان وحضرموت وفى تاريخ اللغات السامية لولفنسون حديث طويل عنها (٢٢٧ ـ ٢٥٢ ط القاهرة ١٩٢٩) .

(٢) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩ .

وأخذت اللهجات فى بلاد اليمن تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى فى القرن السادس الميلادى ، وخاصة لفقدان اليمن لحريتها بخضوعها للأحباش طورا ثم للفرس طورا آخر فتدهورت حضارتها ، وتقلص ظل اللهجات اليمنية .

ويسر ذلك السبيل أمام اللغة العدنانية للنصر فى المعركة ، وبقى من اللهجات اليمنية فى اللغة العربية صدى قليل لا يكاد يكون شيئاً مذكورا[1] .

٢ ـ ووجود بعض ألفاظ عبرية ، وآرامية ، ويونانية[2] ، اندمجت فى العربية بواسطة السريانية ، وفارسية[3] ، من الخطأ أن نستدل به على إفادة اللغة العربية من هذه اللغات فى طور نشأتها ، لأننا لا نعلم متى دخلت هذه الألفاظ فى اللغة العربية ، ولو سلمنا أنها دخلت فى العصر الجاهلى فيكون المعقول أن تعد أثراً من آثار تهذيب اللغة العربية أو طوراً من أطواره .

٣ ـ ولا شك أن اللهجات التى امتزجت باللغة العربية قسمان :

(ا) لهجات سكان شمال الجزيرة كثمود[4] وغيرها من القبائل العربية القديمة البائدة ؛ ومنها قبائل معين[5] التى استوطنت فى شمال الجزيرة العربية .

(ب) ولهجات سكان جنوب الجزيرة وتتمثل فى اللغة المعينية القديمة[6] ، واللغة السبئية التى خلفت اللغة المعينية[7] ، أما اللغة الحميرية فهى السبئية مع خلاف قليل

---

(١) وفى ص ٢٤٠ من المزهر للسيوطى أن بعض لهجات عربية حميرية كانت شائعة فى اليمن للقرن الثامن الهجرى .

(٢) مثل: إنجيل وأسطوانة، وأسقف وناموس وميل وبستان وصراط وخندريس وفردوس.

(٣) مثل : مجوس وجيش وأستاذ (راجع فى ذلك ١٥ : ١ من تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب).

(٤) راجع موطنها وأخبارها فى ١٧١ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٥) راجع ص ١٧٦ وما بعدها تاريخ اللغات السامية .

(٦) والمعينيون قدموا من العراق إلى اليمن ولغتهم بابلية وبإقامتهم فى اليمن أخذت تتباعد عن أصلها شيئا فشيئا حتى صارت لغة مستقلة (راجع ١٢٤ الشهاب الراصد) .

(٧) والسبئيون أو القحطانيون قدموا إلى جنوب شبه الجزيرة من الحبشة أو من العراق فى القرن الثامن قبل الميلاد واقتبسوا لغة المعينيين (١٢٤ الشهاب الراصد) وأولهم هو قحطان رأس العرب العاربة وابنه يعرب هو الذى نطق بلغة المعينيين وبدأ يهذبها .

وقد نشأت مع اللغة المدنانية فى وقت واحد[١] ثم تغذت بها المدنانية ثم التهمتها وقضت عليها ، ومن المرجح أن ظهورها بدأ قبل الميلاد بقرن واحد أى قبل البعثة بسبعمائة عام[٢] .

٤ ـ ورحل إبراهيم بابنه إسماعيل إلى الحجاز وأقام بمكة وخالط قبيلة جرهم الثانية اليمنية وصاهرها وتعلم لغتها فكان لهـذا العنصر الذى يرجع إلى العبرية أثر فى اللغة العربية المدنانية[٣] .

٥ ـ ثم بدأت عوامل تهذيب اللغة العربية المدنانية تعمل عملها باختلاط القبائل العربية بعضها ببعض ، ورحلات القرشيين فى البـــلاد واتصالهم بالأمم الأخرى ، ثم نزل القرآن الكريم فأضفى على المدنانية ثوب القوة والخلود[٤] .

وهكذا نشأت المدنانية ونضجت . . وقبل أن نختم هـــذا البحث نعرض هذا النص ؛ قال الأستاذ محمد لطفى جمعة ، فى كتابه الشهاب الراصد[٥] : « ومن المجمع عليه لدى علماء أصول اللغات وعلماء المشرقيات أن هذه العربية المحضة ـ المدنانية ـ هى الغاية التى انتهت إليهـــا تلك اللغات وكانت جميعها روافد تغذى نهرها العظيم ، فالحبشية والسبئية والحميرية والعبرانية والنبطية وما تخلف عنها من لهجات متنوعة خدمت كلها تلك المضرية الفصحى الخالصة » .

أطوار تهذيب اللغة:

١ ـ سبق[٦] أن ذكرنا أن المعينيين بعد هجرتهم من العراق إلى اليمن انحرفت لغتهم البابلية ثم استقلت فسميت اللغة المعينية ، وتوارثها السبئيون وتحولت فصارت لغة جديدة هى اللغة السبئية ، وكانت هى لغة الحميريين إلا أنها اكتسبت صفات

---

(١) ١٢٥ الشهاب الراصد . (٢) ١٣٣ نفس المرجع .

(٣) وراجع ما كتبه الجاحظ فى البيان والتبيين عن إسماعيل ونطقه بالعربية دون تلقين (١٦٨ : ٣) .

(٤) راجع ٢١٥ تاريخ اللغات السامية .

(٥) ١٢٥ الشهاب الراصد . (٦) راجع ١٣١ الشهاب الراصد .

جديدة بفعل الزمن وتبدل الحياة والمعيشة ، ثم هاجر إسماعيل إلى مكة وأقام بها وكان لسانه عبرانيا،وجاور جرهم الثانية القحطانية وخالطها وصاهرها وتكلم بلغتها—وهى اللغة القحطانية أو السبئية — وتكلم بهـــذه اللغة أحفاده ، وبذلك نشأت اللغة العدنانية ، وكانت نشأتها هى واللغة الحميرية فى وقت واحد على الأرجح وذلك قبل الميلاد بقرن واحـــد أو قبل البعثة بسبعمائة عام ، ثم أفادت العدنانية من الحميرية وصارعتها حتى طوتها وتغلبت عليها . وذلك هـــو الدور الأول من أدوار تهذيب اللغة العربية .

٢ — ثم كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر فى تهذيب اللغـــة ورقيها .

ولا شك أن الحروب ، والتجارة ،والحج ، كان لها أثر كبير فى اختلاط القبائل بعضها ببعض وتفاهمها وتقارب لغاتها ، مما يشبه الأثر الذى أحدثه سيل العرم — الذى حـــدث حوالى ميلاد المسيح[1] — وأدى إلى هجرة القبائل واختلاط القحطانيين بالعدنانيين وتأثرت لغاتهم بذلك الاختلاط .

والحج له — من بين هذه العوامل — أثر كبير فى تهذيب اللغة ، فقد كان العرب يحجون إلى الكعبة وكانت قريش تتصل بهم ويتصلون بهـا ، وكان القرشيون على قسط من المعرفة والرقى الفكرى ، وفيهـم ذوق ولهم ملكات ناضجة فى النقد اللغوى ، فكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ ، ويقتبسون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها ، ويضيفون ذلك إلى لغتهم ، فهذبوا لغتهم حتى خلت من السقيم والمستبشع من الألفاظ واللهجات ، كما كانوا فى رحلاتهم التجارية إلى الشام واليمن وفارس والحبشة يأخذون من لغات هـذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها فى لغتهم بعد أن ينطقوا بها نطقاً عربياً فصيحاً — وهو ما نسميه

(١) راجع ١١٠ الشهاب الراصد . ويخطىء الزيات فى جعل تاريخ سيل العرم هو عام ٤٤٧ م (راجع ص ١٣ تاريخ الأدب العربى للزيات) .

التعريب ـ وبذلك زادت ثروة اللغة العدنانية القرشية ، وقلدت القبائل الأخرى قريشاً فى ذلك وحاكتها فى لغتها وأخذت عنهـا فـكان بذلك لقريش أثر كبير فى تهذيب اللغة ، بل كانت تقوم بما تقوم به مجامع اللغة الآن،وصارت لغة قريش أعذب اللغات لفظاً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة .

أثر الأسواق[1] : ومن العوامل الأخرى ـ التى ظهر فيها اختلاط العرب وكان لها أثر فى تهذيب اللغة ـ الأسواق .

والأسواق العربية كانت ميدانا لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة ، كما كانت سبباً فى دعم الوحدة والتفاهم بينهم وفى مزجهم بعضهم ببعض ، وفى التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم وكانت مع ذلك مجمعاً أدبيًّا كبيراً حيث كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء فينشدون ويخطبون .

يقول سديو : « أنشأ العرب أسواقا عامة يتعارفون فيها ويتحابون فلم تـكن هذه الأسواق فى عكاظ ومجنة وذى المجاز سوى مؤتمرات للشعر فى الحقيقة خالية من التحكم على النفوس ، ولاشىء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية ، فكان ينهض مقاتل شجاع متزن الخطا أمام جمهور صامت جامع لحواسه ، لم يكن عليه من الزينة ما يشير إلى أنه من طبقة عالية ، فكانت الأبصار تشخص إليه فينشد بصوته الرخيم من فوق مرتق قصيدة بأسرها ، فتراه يترنم بأعماله السامية وشرف عشيرته أحياناً ، وتراه يمدح القوة والشجاعة أحياناً ، وتراه يصور عجائب الطبيعة وعزلة الصحراء والمناهل المبتغاة ويصف النزال أحيانا ، وذلك على حين يسير الجمهور مع المشاعر التى يود الشاعر أن يوحى بها إليه ، فيشاهد على وجهه المتنبه علائم الإعجاب بالبطل الصابر فى الضراء كما تشاهد علائم احتقار الجبان النذل ، وما كان المستمعون ليخفوا عواطفهم ، والشاعر كلما

---

(١) راجع الـكلام على عكاظ والمربد فى الرسالة العدد ١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦ وفى بلوغ الأرب ٢٦٤ : ١ ، ومعجم البلدان . والـكلام على عكاظ فى العقد الفريد ص ٣٦٩ ج ٣ .

توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلى نشيده بحماسة جديدة ، وقصائد الشعراء إذا ما تقبلتها مؤتمرات عكاظ بقبول حسن ، كتبت بحروف من ذهب على نسج ثمينة وعلقت فى الكعبة لتحفظ للحفدة ، ويستمع العرب تحت الخيام مساء لتلك الأشعار العجيبة بلذة وهى التى تجمع بين سحر القصة المؤثرة المحزنة ومحاسن الترنم وحلاوة التوقيع وعذوبة اللحن ، فيجدونها شاملة لما يثيرهم من العواطف و الشجون والحماسة ، فكأنها وضعت بلغة معبرة عما يجيش فى صدورهم ، وتجد فى شعر الشعراء الذين اشتهروا فى هذا الدور وصفاً دقيقاً لحياة عرب البادية الذين لم يفسد الزمن طبائعهم ، وليس من النادر إن كانت تحدث بعد الوقائع الدامية مباريات فخر وكرم عرفت بالمنافرات ويقع التحكيم فيها من حكم يرضونه ، وأحكام كهذه لابد أن تصدر فى احتفال كبير فتؤثر فى النفوس تأثيراً جليلا .

وإذا كان الخطباء والشعراء ، وكل ذى كلام ـ يريد له سعة فهم وكثرة ذيوع ، ولابد أن يريد ـ يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انتسبوا إليها جميعاً يستوحون فصاحتها وبيانها ، ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبح العلم الذى بنوره يهتدى ، والإمام الذى به يقتدى ، عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها ، وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التمام ، واستمد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ، ولمعرفة مواطن الإعجاز فيه ، وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرع لهذه اللغة يصونها من أن تمحوها النوازل أو تتشعب منها لهجات مختلفة تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف » .

ومن أهم هذه الأسواق : عكاظ ومجنة وذو المجاز :

١ — أما عكاظ : فهى قرية بين نخلة والطائف ، كانت تقام بها سوق تجارية عامة ، وتاريخ إقامة هذه السوق يبدأ من عام ٥٤٠ م ، وكانت تمتد فى أول ذى القعدة إلى العشرين ، وبقيت فى الإسلام إلى أن نهبها الخوارج عام ١٢٩ هـ ، وكانت ميداناً

للمنافرة والمفاخرة والتجارة وفداء الأسرى وإنشاد القصائد ، وجاء ذكرها فى الشعر العربى ، قال طريف بن تميم :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقال النابغة :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتنى تحت العجاج فما شققت غبارى

وقال حسان :

سأنشر إن بقيت لهم كلاما ينفرق فى المجامع من عكاظ

وسوق عكاظ سوق عامة كان يحضرها العرب جميعاً ، أما الأسواق الأخرى فكانت أسواقاً محلية ، وعكاظ سمى عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضا بالفخار ، وكانوا يتفاخرون فى سوق عكاظ إذا اجتمعوا ـ وعكاظ نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب[1] ، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنة ويتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون ، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، ولم يكن عندهم أعظم من عكاظ ، قالوا : كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذى القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج[2] ، وهذا رأى آخر فى زمان انعقادها .

ويروى أن المعلقات أنشدت فى عكاظ ، ويقول أحمد أمين من مقالة له : كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبى ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها ، ويأتى التجار إليها من مصر والشام والعراق[3] ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ؛ وتقارب اللهجات ،

---

(١) وقال الواقدى : عكاظ بين نجد والطائف وراجع كتاب « قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى » لخفاجى وعبد الجبار . (٢) ٢٠٣ : ٦ معجم البلدان .

(٣) يروون أن عبد الله بن جدعان أتى مصر فباع ما معه وعاد إلى سوق عكاظ انظر الإكليل للهمدانى جزء ٨ ص ٢٨٤ وما بعدها .

واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شيء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية ، وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب، قال أبو المنذر: وكانت بعكاظ منابر فى الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام فمنها أخذت العرب أيامها ونخرها ، وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء بنـو ماء السماء[1] توارثوا — دمشق بملك كابرا بعـــد كابر
يؤمون ملك الشام حتى تمـكنوا — ملوكا بأرض الشام فوق المنابر[2]

فيقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم فى عكاظ .

قام عمرو بن كلثوم خطيباً بسوق عكاظ وأنشد قصيدته المشهورة :

* ألا هبى بصحنك فاصبحينا[3] *

وكان الأعشى يوافى سوق عكاظ كل سنة ، وفيها أنشدهم قصيدته فى مدح المحلق[4] .

وكان النابغة الذبيانى تضرب له قبة أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء ، فيدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعاً ويفاضل بينهم ونقد فيما زعموا قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى — وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دما

قال لحسان : قللت العدد ولو قلت الجفان لـكان أكثر . وقلت : يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لـكان أبلغ فى المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا[5] .

---

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدى أبو عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن لما أحس بسيل العرم ، وسمى ماء السماء لأنه كان إذا أجدب قومه مانهم — أى كفاهم مؤونتهم — حتى يأتيهم الخصب فكأنه خلف من ماء السماء . وقيل لولده : بنو ماء السماء ، وهم ملوك الشام .

(٢) الأزمنة والأمكنة ٢ ص ١٧٠ . (٣) الأغاني ص ١٨٢

(٤) الأغانى ٨ ص ٧٩ ، ٨٠ (٥) المرجع ٨ : ١٩٤ و ١٩٥

وفى عكاظ مدح دريد بن الصِّمة ابن جدعان بعد أن هجاه فقال : إليك ابن جدعان أعملتها[1] الخ . وخطب قس بن ساعدة الناس خطبته المشهورة .

فذكرهم بالله والموت ورسول الله يسمع له[2] وكانت الخنساء تشهد الموسم بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها فى أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وتنشد فى ذلك القصائد[3] ، وعلى الجملة فكانوا فى عكاظ يتبايعون ويتما كظون ويتفاخرون ويتحاجون ، وتنشد الشعراء ما تجد لهم . فمن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق ، كما كانت مركزا لحركة اجتماعية واقتصادية .

وكانت القبائل — كما أسلفنا — تنزل كل قبيلة منها فى مكان خاص بها ، تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو فى الحلقات المختلفة . فكان الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ، أو فى قباب من أدم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء فى المجامع ، وقد يكون ذلك سببا فى خطبة أو زواج أو تنادر[4] وكانت تحضر الأسواق — وخاصة سوق عكاظ — أشراف القبائل . وكان أشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للأشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظا فإنهم يتوافون بها من كل أوب[5] .

وكان الأشراف يمشون فى هذه الأسواق ملثمين ، مخافة أن يؤسروا يوما فيكبر فداؤهم فكان أول من رفع اللثام طريف العنبرى ، لما رآهم يطلعون فى وجهه ويتفرسون فى شمائله قال : قبح من وطن نفسه إلى على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال : « أو كلما وردت عكاظ قبيلة » إلى آخر الأبيات[6] .

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس إليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين ،

---

(١) الأغانى ٩ ص ١٠   (٢) أغانى ١٤ ص ٤١ و٤٢   (٣) صفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

(٤) انظر الأغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها وص ١٣ وص ١٤٠ وما بعدها .

(٥) الأغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها .   (٦) الأزمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٦ .

قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان فى بنى تميم . . . وكان ممن اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدوانى وسعد بن زيد بن مناة من تميم ، وقد فخر المخبل بذلك فى شعره :

ليالى سعد فى عكاظ يسوقها   له كل شرق من عكاظ ومغرب

حتى جاء الإسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع(١) .

ومن العسير جداً أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد فى ذلك خبراً يصح التعويل عليه، يقول الألوسى فى بلوغ الأرب : «إنها اتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة سنة» ، ولكن إذا بحثنا فى الأحداث التى رويت فى عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يرون — كما قدمنا — أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته فى عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان قبل ذلك .

وقد عد المرزوقى فى الأزمنة والأمكنة من رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة ، أولهم : عامر بن الظرب العدوانى . وهذا — من غير شك — يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسى بزمان طويل .

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الإسلام حروب الفجار وهى حروب أربع ، وكان سبب الأولى المفاخرة فى سوق عكاظ، وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله فى سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض فى الطريق(٢) .

فكلها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهدها النبى وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومتى(٣) . واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات .

---

(١) انظر تعداد من ولى عكاظ فى الأزمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٧ .

(٢) انظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغانى .   (٣) النهاية لابن الأثير مادة نجر .

واستمرت عكاظ فى الإسلام ، وكان يمين فيها من يقضى بين الناس ، فمين محمد ابن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم فى الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم (١) .

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم ، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية . قال الكلبي : « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة فى الإسلام ، فأما عكاظ فإنما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف الأباضى فى سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا ، وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة . . . وآخر سوق خربت سنة ١٩٧ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخربها وتركت إلى اليوم (٢) .

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلى الذى كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب ، وجرت فيها أحداث بحياة النبى صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، ومهدت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبى صلى الله عليه وسلم يبث فيها دعوته ، وعاصرت الإسلام فى عهد الخلفاء الرشدين والعهد الأموى ولكن كانت حياتها فى الإسلام أضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب فى أسواق المدن المتحضرة فى فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها ، ثم كانت ثورة أبى حمزة الخارجى بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة لحياة حافله ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى (٣) .

(١) الأزمنة والأمكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها. (٢) أخبار مكة للأزرقى ص ١٢١ و ١٢٢
(٣) راجع عكاظ فى اللسان ٣٢٧ : ٩ ، والعقد الفريد ٣٦٠ : ٣ ، ومعجم البلدان ٢٠٣ : ٦ .

٢ — مجنة : موضع بمهر الظهران ، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون إلى غاية ذى القعدة .

٣ — ذو المجاز : خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانيـــة أيام من ذى الحجة ثم يقفون بعرفة فى اليوم التاسع .

وبعد ، فقد كان لهذه الأسواق عملها اللغوى فى الفهم والنقد والإيثار والاختيار ، ثم فى التبادل اللغوى بين القبائل عامة ، مما كان له أثر كبير فى تهذيب اللغة .

ثم أنزل القرآن بلغة قريش فجمع العرب عليها وهذّبها وجعلها أفصح اللغات ونشرها فى الدنيا وجعلها لغة عالمية بعد أن كانت لغة العرب وحدهم ، وبالقرآن الكريم تمت سيادة لغة قريش على لغات جميع القبائل العربية الأخرى ولهجاتهم .

اختلاف اللهجات العربية :

(ا) كانت اللهجات كثيرة لأن العرب شعوب وقبائل وبطون وأفخاذ وعشائر وفصائل متشعبة ، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها ، وبذلك كثرت اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها[1] ، ولكنه كان فى الفروع واللهجات لا فى أصل اللغة ذاتها وكان أثراً للبيئة والمعيشة والحياة والجو ، ولم تدوّن جميع هذه اللهجات[2] ، ولكن بقى ظلها فى اللغة العربية .

ويقول أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا

---

(١) واختلاف اللغات ــ أو اللهجات ــ يرجع إلى أمور ثلاثة :

١ ــ تباين اللهجات وتنوع المنطق كاختلافهم فى صيغة اللفظ أو كيفية النطق وهو المراد هنا.

٢ ــ اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التى تنطق به ومن هذا النوع المترادف والأضداد .

٣ ــ ما يكون قد انفرد به عربى مع إطباق العرب على النطق بخلافه وهذا يجوز أن يكون قد دفع لذلك الأعرابى من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها .

(٢) بقيت اللغاة مسماة منسوبة إلى أصحابها من العرب عند الرواة والعلماء إلى آخر القرن الثالث (١٢٩ الشهاب الراصد) .

ولا عربيتهم بعربيتنا » ، وكذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته : « لغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر كما هى لغة للعرب لعهدنا » .

وهذا طبعاً تصوير للخلاف الواسع بين العربية والحميرية على عهد ابن العلاء وعهد ابن خلدون ، وهما يقصدان إلى اختلاف اللهجات ، وذلك بدهى مما ذكرناه .

(ب) ومن صور اختلاف اللهجات العربية ما يبدو لك[1] من :

١ ـ الكشكشة فى لهجة ربيعة ومضر ، وهى : زيادة شين بعد كاف المخاطبة المؤنثة فى الوقف ، أو فى الوقف والوصل جميعا ، أو جعل الشين مكان هذه الكاف مع كسرها فى الوصل وإسكانها وقفاً .

فيقولون فى رأيتك : رأيتكش ، أو رأيتش .

٢ ـ الكسكسة فى لهجة ربيعة ومضر أيضاً ، وهى : أن يجعلوا بعد الكاف أو مكانهم فى خطاب المذكر سينا فيقولون فى عرفتك: عرفتس أو عرفتكس ونسبها الحريرى لبكر لا لربيعة ومضر ، وجعلها مثل الكشكشة (زيادة شين بعد خطاب المؤنثة) ، ونسبها القاموس لتميم وفسرها بما فسرها به الحريرى .

٣ ـ شنشنة اليمن ، وهى : إبدال الكاف شينا مطلقا ، فيقولون فى لبيك : لبيش ، وفى كلمى : شلمنى .

٤ ـ القُطعة فى لغة طىء ، وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون: « يا أبا الحكا » فى « يا أبا الحكم » .

٥ ـ لخلخانية الشحر وعمان، وهى حذف بعض الحروف اللينة فيقولون« مشا الله» فى « ما شاء الله » .

٦ ـ طمطمانية حمير : والطمطمة : أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم ، والطمطمانية هى : إبدال لام التعريف ميما، ومن ذلك «ليس من امبر امصيام فى امسفر» وفى اللغة : الطمطم والطمطمانى : الذى فى لسانه عجمة والعبى الذى لا يفصح .

٧ ـ فحفحة هذيل وهى قلب الحاء عينا مثل « عتى » فى « حتى » .

---

(١) راجع ص ٩ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب .

٨ ـ عجعجة قضاعة[1] وهى قلب الياء المتطرفة بعد عين جيا مثل « الساعج » فى « الساعى » .

٩ ـ غمغمة قضاعة وهى إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر .

١٠ ـ عنعنة تميم وقيس وهى جعل الهمزة المبدوء بها عينا مثل « عنت كريم » فى « أنت كريم » ، والفرنج يعكسون فيقلبون العين همزة فيقولون فى على « ألِى » .

١١ ـ الاستنطاء فى لغة سعد والأزد وقيس والأنصار وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو « أنطى » فى أعطى .

١٢ ـ تلتلة بهراء من تميم وينسبها ابن فارس إلى أسعد وغيرهم وهى كسر أحرف المضارعة ، وقيل كسر تاء تفعلون .

١٣ — وهم كلب وهو كسر هاء الغيبة إذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة مثل منهِم وعنهِم .

١٤ — وكم ربيعة وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع قبل ياء أو كسرة مثل « عليكِم » .

١٥ — وتم اليمن : وهو إبدال السين المهملة تاء مثل النات فى الناس .

(ج) على أن هناك اختلافات أخرى فى اللهجات منها :

١ — إبدال التاء هاء وعكسه فى الوقف عند طىء فيقول فى فاطمة « فاطمت » وفى نعمت « نعمه » .

٢ — إبدال الباء ميا وعكسه مثل « باسمك » مكان « ما اسمك » و « مكر » مكان « بكر » وهو لغة « مازن » ومنها آثار فى لهجة أهل مديرية الدقهلية وبعض الغربية حديثاً فى مصر .

٣ — وإبدال الحاء هاء مثل « مدهته » فى : مدحته .

---

(١) راجع ٦١ : ١ تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب .

خصائص اللغة العربية :

تمتاز اللغة العربية بما يأتى :

١ — ثروتها اللغوية ، ففيها أسماء لكل ماتقع عليه العين أو تسمعه الأذن أو يجول فى الخاطر .

٢ — صيغ المشاركة ، كتخاصموا وتحاجوا، فهى خاصة باللغة العربية ولا توجد فى اللغات الأخرى .

٣ — الإعراب ويشاركها فيه كما يقول جورجى زيدان الحبشية والألمانية وكادت الألمانية تتخلص منه ، ويلاحظ أن العربية العامية تخلصت من الإعراب .

٤ — الإيجاز فهو فيها أوضح .

٥ — المجاز والاشتقاق وهما كذلك ظاهران فى اللغة العربية .

٦ — الاشتراك وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى كالعين للماء والذهب والفضة وللبصر ، وهو خاص باللغة العربية . ومنشؤه على الأرجح تعدد القبائل فيكون اللفظ بمعنى عند قبيلة وهو بمعنى آخر عند قبيلة أخرى . وقرائن الكلام والأسلوب توضح المراد من اللفظ .

٧ — التضاد : وهو أن يدل اللفظ على معنيين متضادين كجلل للعظيم والحقير[1] . ومنشؤه كذلك تعدد القبائل فتضع قبيلة اللفظ لمعنى ، وتضعه أخرى لضده .

والقرينة فيه أيضاً هى التى ترشد إلى المراد .

---

(١) وكلفظ الجون للأبيض والأسود ، ولفظ الوثب للقعود فى لغة حمير . ويروى فى أصل المثل « من دخل ظفار حمر » أن أعرابيا دخل على ملك من ملوك حمير فقال له الملك : « ثب » يريد : اقعد بلغة حمير ، فوثب الأعرابى ، فسأل الملك عن ذلك فقيل له : إن الوثب بلغة العرب هكذا ، فقال : أما إنه ليست عندنا عربية ، من دخل ظفار حمر ، أى تكلم بلغة حمير ، وهذا المثل صار يضرب لمن يدخل فى القوم فيأخذ برأيهم .

عوامل نمو اللغة :

وأسباب نمو اللغة كثيرة منها :

١ — الاشتقاق : هو أخذ كلمة من أخرى مع تشابه فى المعنى واتفاق فى الأحرف الأصلية وفى ترتيبها . وذلك كأكرم يكرم الخ وهو قياسى .

وأصل الاشتقاق المصدر أو الفعل على خلاف فى ذلك ، ويشتق من أسماء الأجناس كتذأب الرجل واستأسد . وهذا النوع من الاشتقاق سماعى .

والمراد بالاشتقاق هنا الاشتقاق الصغير طبعا .

٢ ـ المجاز وبه يتسع التعبير ، وتظهر البلاغة ، ويتنوع البيان .

٣ ـ التعريب ، وهو نقل اللفظ من العجمية إلى العربية[1] . وفى القرآن ألفاظ معربة كسجيل ومشكاة وأباريق وإستبرق ويم وطور ، وأنكر ذلك أبو عبيدة ، وجمع آخرون بين الرأيين بأن الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ثم صارت عربية .

وقد نشأ التعريب فى اللغة العربية بمجاورة العرب فى الجاهلية لسواهم من الأمم كالفرس والروم ، وباختلاطهم بهم فى التجارة والحروب والبعوث الدينية وغير ذلك.

٤ ـ النحت :

وهو أخذ كلمة من كلمتين فأكثر للدلالة بها على معنى ما نحتت منه « كحمدل » فى « الحمد لله » « وبسمل » فى « بسم الله » وعبشمى فى « عبد شمس » .

وفائدته الاختصار وزيادة ثروة اللغة وسهولة النطق .

وهو غير قياسى إلا عند ابن فارس ، ومن الألفاظ المنحوتة المولدة : الفذلكة .

٥ ـ الترادف[2] :

وهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد كالبر والقمح والليث والأسد ، وينكر بعض الباحثين الترادف فى اللغة العربية بدعوى أن كل لفظ من المترادفات يفيد معنى لا يفيده الآخر والصحيح أنه ورد فى اللغة .

(١) ص ٣ شفاء الغليل للخفاجى ط ١٢٨٢ .
(٢) راجع ٣٠٣ : ١ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط ١٩٣٥ .

والترادف وسيلة للتعبير والإيضاح والبلاغة وهو ثروة فى اللغة وسهولة فى النطق.

وسبب الترادف قد يكون تعدد القبائل فتضع قبيلة اسما للشىء وتضع أخرى اسماً آخر له ، وقد يكون اختلاف صفات الشىء ، ويرى ابن جنى أنه لا مانع من أن تضع القبيلة للمعنى الواحد ألفاظاً كثيرة . ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى هريرة ـ وكان من قبيلة دوس ـ : ناولنى السكين ، فلم يفهم أبو هريرة حتى أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : آلمدية تريد ؟ فقيل له : نعم ، فقال : أو تسمى عندكم سكينا ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

٦ ـ الإبدال :

وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه مخرجا غالبا .

وهو عظيم الأثر فى زيادة ثروة اللغة . كمدح ومده .

ومنشؤه تعدد اللغات ووضع القبائل ، أو تعدد الوضع من القبيلة الواحدة .

ومن أمثلته : لطم ولدم ، ولثم أنفه ورثمه . فاللطم : الضرب بالكف مفتوحة ، واللدم : الضرب بشىء ثقيل يسمع صوته . ولثم أنفه : لكمه . ورثمه : كسره .

٧ ـ القلب :

وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله .

وهو الاشتقاق الكبير . ومثله : سبك وسكب ، وجذب وجبذ وهكذا .

وسببه التحريف أو اختلاف اللهجات أو استعمال القبيلة لهما فيا لهما مصدر واحد .

فالقلب وروده فى اللغة مسلم ، وهو رأى اللغويين والكوفيين ، ويرى ابن درستويه أن مثل هذا لا يسمى قلباً لأن كل لفظ موضوع على حدة وذلك بسبب تعدد وضع القبائل .

ويرى آخرون أن ما كان له أصل واحد كان من القلب مثل أيس ويئس .

وما كان له أصلان معروفان فهو من تعدد اللغات مثل جذب وجبذ وهو مذهب البصريين .

فصاحة لغة قريش :

وبعد ، فاللغة المدنانية كما سادت على جميع لهجات العرب ، كذلك سادت لهجة قريش على جميع اللهجات المدنانية ، بما كانت تضيفه إلى لغتها دائماً من ثروة لغوية بفضل ما أفادته من ذوق لغوى فى رحلاتها التجارية وفى مواسم الحج وفى الاجتماعات العربية فى الأسواق وسواها .

ثم جاء القرآن الكريم بلغة قريش فتم لها السيادة على جميع لهجات العرب .

وقال معاوية يوما لجلسائه : أىّ الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رتة العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن قشقشة تغلب ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : مَنْ هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت . فمن أنت ؟ قال : من جرم . قال الأصمعى : جرم فصحاء الناس . وبحق كانت قريش أفصح العرب كما يقول الجاحظ (١٢٧/٣ البيان والتبيين) .

وكانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله واكتسبوا منزلة دينية وسياسية واجتماعية وأدبية كبيرة مما جعل فى العصر الجاهلى للغتهم السيادة والغلبة والذيوع .

ويقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله فى ذمته ... لم نزل فيها على عهد قدم

لم تزل لله فينا حرمة ... يدفع الله بها عنا النقم

ويقول عمر بن عتبة : « إن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه ويكتفى بأولاه ويستشفى بأخراه ، يتحدر تحدر الزلال على الكبد الحراء ، ولله قوم أدركتهم كأنما

خلقوا لتحسين ما قبحت الدنيا ، سهلت ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفاسهم » .

وقال أبو الحسن : أسرع الناس جوابا عند البديهة قريش ثم بقية العرب .

اللغة العربية ومنزلتها بعد نزول القرآن :

وقد انتشرت اللغة العربية بعد نزول القرآن والفتح الإسلامى فى جميع أرجاء العالم ، وأصبح يلهج بها بعد قرن سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقية الشمالية ، وكان الإغريق قد سيطروا من قبل على الشرق الأدنى ، لكن سكانه ظلوا يتكلمون لغاتهم الأصلية منذ فتوح الإسكندر إلى الفتح العربى ، ولم تَمْد اللغة اليونانية خلال عشرة قرون أن تكون لغة الطبقة المثقفة التى تبحث فى السياسة والعلوم والآداب .

وحدث بعد مرور قرنين على الفتح العربى أن أعرضت كل هذه الشعوب عن لغاتها الوطنية واعتنقت العربية ، حتى إن المتكلمين بالعربية زاد عددهم عن عدد المتكلمين بالسريانية فى القرن الثالث الهجرى .

وقال الدكتور طه حسين فى محاضرة له : إن للغة العربية ميزة لا توجد فى اللغة اليونانية، وهى قوتها وجاذبيتها وقدرتها على زحزحة اللغات الوطنية والتمركز محلها، وهى فى العالم الشرقى تشبه اللاتينية فى أوروبا الغربية ، وقد نملت فى الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأسبانيا ما نملته اللاتينية فى أوروبا الغربية ، فاللغتين إذاً القوة نفسها والمهمة نفسها .

ثم قال : إن أثر الثقافة اليونانية يومئذ لم يكن عميقا ، وأن أولى الخدمات التى أدتها اللغة العربية للمدنية العالمية ، ولعلها أعظمها ، هى أنها سهلت للثقافة اليونانية الاتصال بمختلف طبقات الشعب فى الشرق الأدنى ، ولهذا التعمق فى الثقافة اليونانية أهميته الخاصة نظراً إلى أثر هذه الثقافة فى العالم ، فاللغة العربية لغة عالية عملت على التعاون بين الأمم والشعوب ، وهذه اللغة التى تكلمت بها شعوب الشرق الأدنى فى أقل من قرنين انتشرت أيضاً فى إيران والهند والشرق الأقصى ، وهى إن لم تتمكن من زحزحة لغات هذه البلاد إلا أنها تركت

فيها الأثر البيّن ، وهى لغة السياسة ، كما أنها بصفة خاصة لغة الدين والعلوم والآداب .

وفى خلال ثلاثة قرون أعرض الإيرانيون عن أدبهم الإيرانى وتأدبوا بالأدب العربى ، وكثيرون من كبار شعراء العربيـــة هم من أصل إيرانى أمثال بشار وأبى العتاهية وسواهما ، وهكذا تمكنت العربية ، هذه اللغة البدوية فى بعض الوقت من زحزحة لغة عريقة كالإيرانية التى صمدت فى وجه اللغة اليونانية .

واللغة العربية لم تقتصر على الزحزحة والاحتلال ، بل إنها أخذت تغنى الشعوب التى اعتنقتها عن لغاتها الأصلية ، وقد فتحت صدرها للفلسفة اليونانية وللحكمة الهندية والإيرانية ، وللسياسة الإيرانية ولمدنية اليونان والهند وإيران ، وأصبحت العربية لغة تعاون بين الشعوب ، وخاصة بين الذين لم يتمكنوا بغير واسطتها من الاتصال والتفاهم ، واللغة العربية هى الأولى فى التاريخ التى أوجدت التعاون بين العالمين الشرقى والغربى ، وهذا عمل كبير وجليل .

وقد استطاعت العربية أن تحفظ مكانها بوصفها لغة مدنية حتى فى عالم اليوم — عالم القرن العشرين .

الفصل الثانى

النثر الجاهلى

معنى الجاهلية :

يسمى العهد الذى كان قبل بعثة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، العصر الجاهلى.

وقد وردت نصوص إسلامية كثيرة فيها لفظ « الجاهلية » ، من ذلك قول عمر رضى الله عنه : إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة ، وقول عائشة رضى الله عنها : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء ، وقولهم : يارسول الله كنا فى جاهلية وشر ، وقالوا : شاعر جاهلى ، وقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: أربعة فى أمتى من أمر الجاهلية ، كل ذلك من الجهل ، ضد العلم والمعرفة ، أو بمعنى السفه والطيش والإثم ، أو بمعناها جميعاً ، ثم قيل جاهل بهذا المعنى أو ذاك أو ذلك ونسب إليه ، وأصبح ذلك علماً على العصر الذى كان فى شبه الجزيرة العربية قبل مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الاسم حدث فى الإسلام كما يقول ابن خالويه[1] .

وسنتحدث هنا عن الأدب العربى فى العصر الجاهلى وما كان عليه شعراً ونثراً ، وعن أعلام الأدب وحياتهم وأدبهم .

الشعر والنثر :

١ — الأدب الجاهلى، أو قل الأدب على الإطلاق ، قسمان: شعر ونثر: فالشعر هو الكلام الموزون المقفى ، والنثر هو ما خلا من الوزن والتقفية .

والشعر يعتمد على الخيال والعاطفة ، ويثير الشعور والوجدان . والنثر غالبا ما يعتمد على الحقائق ويركن إلى صدق التعبير ، وقد يعتمد على الخيال ويعتمد إثارة العواطف ، ويصاغ فى أساليب شبيهة بأساليب الشعر فيسمى شعراً منثوراً .

---

(١) راجع ص ١٥ من كتاب عادات العرب فى جاهليتهم ط القاهرة ١٩٢٤ وراجع فى هذا البحث الشهاب الراصد ص ٤٩ ط ١٩٢٦ .

والنثر نوعان : أحدهما ما يدور فى كلامنا المألوف إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض فى حاجاتهم ومصالحهم فيرسلونه إرسالا على سجيتهم وعلى ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة ، وهذا ما نسميه لغة التخاطب ، وهذا لا يعنى به الأدب وليس قسما منه فليس شعراً ، وهو فى الوقت نفسه ليس هو النثر الذى يحفظ ويروى ويتأدّب به الذى هو أحد قسمى الأدب ، وإنما هو كلام عادى لم يقصد أصحابه فيه غالباً إلى الإجادة ولا إلى جمال فنى وإنما أرادوا تأدية ما فى نفوسهم من المعانى وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض .

والثانى هو ما يسمى نثراً فنيًّا وهو ما حوى أفكارا منظمة ، فى عرض جميل جذاب وصياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب ، وهذا هو الذى يعد قسيما للشعر فى باب الأدب ، وأهم أنواعه : الخطابة ، والكتابة الفنية . والكتابة عند الأوربيين : وصف أو قصص ، وعند العرب : رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . وسنتكلم على مظاهر الأدب فى العصر الجاهلى بالتفصيل .

٢ — ولكن هل الشعر هو السابق فى النشأة الأدبية أو النثر الفنى ؟

يرى الدكتور طه حسين ومن اتبعه مقلدين فى ذلك بعض المستشرقين كالمسيو مرسيه الفرنسى أن الشعر أسبق فى الوجود من النثر الفنى[١] . ويستدلون على ذلك بما يأتى[٢] :

(ا) الشعر فى آداب الأمم الأوربية سابق على النثر فعند اليونان كانت قصائد هوميروس تنشد ويتغنى بهـا قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فنى ، وفى الأدب الإنكليزى نرى أن أقدم الآثار الأدبية عند الإنكليز القدماء القصائد التى تصف

---

(١) راجع ص ٣٣ : ١ النثر الفنى لزكى مبارك .

(٢) ص ١٠ — ١٢ — ١٧٢ وما بعدها التوجيه الأدبى ط ١٩٤٠ الباب السابع من كتاب أصول النقد الأدبى للشايب ، ٣٦٤ — ٣٦٨ من كتاب الأدب الجاهلى لطه حسين ، وراجع فى ذلك البحث : الطبع والصنعة للبهباوى و ٣٧ : ١ الحيوان للجاحظ .

أعمال « بيولف » وهى ترجع إلى القرن السادس أو السابع الميلادى . فقد ظلت الأمم تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر .

(ب) كثرة الشعراء فى العهد الأول لأدب أى أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بينة على كتاب النثر .

(ج) ومن أقوى الأسباب التى قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر فى رأيهم أن الأدب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة والكتابة متأخرة فى تاريخ كل أمة فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تذيع الكتابة وكذلك روى الرواة الشعر العربى القديم قبل أن تذيع الكتابة ، ومنشىء الأدب المنثور لا بد له من تدوين ما يخطر له .

(د) الشعر يعتمد على الخيال فى حين يعتمد النثر الفنى على المنطق والتفكير ، والخيال يسبق التفكير فى حياة الأفراد والجماعات[١] .

(هـ) الجماعة الساذجة نجد عندها كلاما موزونا دون أن نجد عندها نثراً فنياً صحيحاً .

(و) الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعراً قبل أن يغنوا نثرا لأنهم يجدون فى الشعر أوزاناً تلائم تقطيع الغناء وأنغامه[٢] .

أما الدليل الأول فلا يدل على شىء ، بل إن دل فإنما يدل على ضياع النثر لعدم تدوينه وبقاء الشعر لأنه يعلق بالحافظة ويخلد بالرواية .

---

(١) يبدو لى أن نظرية سبق الشعر للنثر أخذها المستشرقون من كتاب الشعر لأرسطو ، فنى الشفاء — فن الشعر — ما نصه : التخيل أسبق فى الزمن من التصديق فالناس أول ما يسمعون إنما يسمعون الأمثال الشعرية التى فيها مشاكلة للأقاويل التخيلية ثم يتدرجون الى الخطابة ثم الى البرهان (الشفاء فن الشعر) .

(٢) يرى المستشرقون أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية من كلمة « شير » بمعنى الترتيلة أو التسبيحة القدسية ويرجعون ذلك بأنه لم يرد فى العربية شعر بمعنى القصيدة وكل ما فيها : شعر أى قال الشعر . وفى اللغة الإنجليزية كلمة Bazd معناها الشاعر المغنى وكان الأعشى صناجة العرب لأن شعره كان يتغنى به (فجر الإسلام ٦٩ و ٢٧ الزيات والتوجيه الأدبى) .

ومن أجل ذلك بقى الشعر وأخبار الشعراء معروفة لم يخف عليهـا النسيان وهو السبب فى كثرة الشعراء فى العصور الأولى من عصور آداب الأمم كثرة كبيرة وفى زيادتهم على الكتاب ورجال النثر ، وبذلك نجد الدليل الثانى منهاراً .

ولعدم وجـــود الكتابة فى العصور القديمة التى هى وسيلة لتخليد النثر الفنى ضاع أغلب ما لدى الأمم من نثر فنى ، فكيف إذاً يستدلون على سبق الشعر للنثر باحتياج الأدب المنثور للكتابة فى تدوينه ، وبذلك تجد الدليل الثالث لا يكاد يسير نحو الهدف خطوة واحدة .

وزعمهم أن الشعر يعتمد على الخيال والنثر على المنطق والتفكير صحيح فى الأول مبالغ فيه فى الثانى ، فلِمَ لا يكون النثر الفنى فى بدء نشأته قد اعتمد على الخيال أيضاً كالشعر ، ولِمَ لا يكون هـــذا النثر قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتها ومقدار تفكيرها فى هذه العصور القديمة ، وبذلك نجد الدليل الرابع لا يؤدى إلى غاية .

وأما أن الأمم التى لم تصعد درجة فى الحضارة لها شعر وليس لها نثر فنى فخطأ فى الرأى ، فإن هذه الجماعات الساذجة يوجد بجانب مالديها من شعر نثر ملائم لعقلياتها ومظهره الأمثال والحكم والتجارب والنصائح ، وذلك يشاهد كثيراً فى بيئتنا المصرية العامية التى يمثل بها هؤلاء تأييداً لرأيهم فى سبق الشعر للنثر وبذلك لا يمكننا التعويل على الدليل الخامس .

وأما أن الشعر غنى به من قديم قبل أن يغنوا نثراً فمنشأ ذلك أن الشعر أصلح للغناء من النثر لموسيقاه وقافيته ، فكيف يتركونه ويغنون بنثر فنى لا يلائم الغناء ؟ .

والحق أن النثر وجد أولا ثم تحول إلى النثر الفنى ، ثم نشأ بعد ذلك الشعر ، ويؤيد هذا الرأى إجماع كثير من المستشرقين على أن السجع كان المرحلة الأولى التى عبرها النثر إلى الشعر فى الأدب العربى القديم .

ويؤيده أيضاً وجود الكتب الدينية السماوية من قديم الأجيال فى الأمم التى

أزلت لها ، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء ، ولعل هذه الكتب هى التى أدت إلى نشأة النثر الفنى فى العصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمن طويل .

ويؤيده أيضاً إجماع الباحثين أو شبه إجماعهم على أن النثر أسبق من الشعر[1] .

***

٣ — وبعد ؛ فالنثر مرسل ومزدوج ومسجوع .

فالمسجوع كما فى سورة الكوثر ، والسجع هو ما اتحدت فاصلتاه أو فواصله فى الحرف الأخير مثل : من عاش مات ، ومن مات فات .

والمزدوج هو ما اتحدت فواصله فى وزنها لا فى الحرف الأخير منها ـ مما نسميه تقفية ، مثل قوله تعالى : « ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » ، ويسمى هذا الموازنة عند علماء البديع ، فإن اتحدت الفواصل وزناً وتقفية عد من السجع فى الراجح وعده بعضهم من المزدوج .

والمرسل هو ماخلت فواصله من الاتحاد فى الوزن والقافية معا مثل : « لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

هذا وينكر بعض المستشرقين ومن تابعهم كطه حسين وجود نثر فنى جاهلى لأن عيشة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفنى لأنه لغة العقل ، على حين سمحت بالشعر لأنه لغة الخيال والعاطفة ، وهذا الرأى خطأ بدليل ما يأتى :

(ا) كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فنى قبل الميلاد بكثير فلم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ؟

(ب) وجود الكتب يستدعى وجود نثر فنى .

(ج) بقاء بعض من النثر الجاهلى فى مصادر الأدب العربى وأمهات كتبه كالأغانى

(١) راجع ١٧ تاريخ الأدب العربى للزيات وسواه .

والأمالى وسواها ، أما الكثير منه فقد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة التى لم تكن معروفة فى الجاهلية إلا للقليل النادر من الناس[1] .

* * *

هذا والنثر الجاهلى ينقسم إلى أمثال وحكم ووصايا ، وخطب ، ومنافرات ، ومفاخرات ، ومحاورات ، ونثر الكهان .

وسنتكلم عن هذه الألوان الأدبية لونا بعد لون إن شاء الله تعالى[2].

---

(١) هذا وينكر طه حسين كل مايضاف إلى عرب الجنوب من نثر فى الجاهلية ، لأن النثر المروى لنا إنما جاء بلغة قريش التى لم يكن لهم بها علم ولأنه كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصا منثورة كشفها المستشرقون وهى لا توافق لغة قريش فى شىء فكل ما يضاف إلى اليمنيين عنده من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة فى الجاهلية منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتردد فيما ينسب إلى مضر وهذا هو موقفه بالنسبة للشعر الجاهلى أيضا .

(٢) راجع ٣٦٤ ــ ٣٧٥ الأدب الجاهلى لطه حسين فى الكلام على النثر الجاهلى . وص ١١٣ من كتاب الأسلوب للشايب فى الكلام على أساليب النثر . والباب السابع فى النثر من كتاب النقد الأدبى للشايب .

مميزات النثر الجاهلى

(١)

يمتاز النثر الجاهلى فى معانيه بما يأتى :

١ — الصدق والسذاجة والبساطة وعدم المبالغة أو الغلو .

٢ — عدم التعمق فى المعانى أو تعقيدها أو التركيب والمزج بينها ، لأنهم كانوا فى بداوة تامة فى حياتهم وتفكيرهم وكل شئون معيشتهم .

٣ — معانيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، ومنطلقة مع الحرية التى ألفتهم وألفوها ، وهى بدوية كلون حياتهم ، تنطق عن فطرة البداوة وتفكيرها وإحساسها .

٤ — كثرة الحكم والأمثال فى نثرهم .

٥ — تفكك المعانى وكثرة الانتقال بينها .

(٢)

ويمتاز النثر الجاهلى فى أغراضه بأنه كان يأتى فى :

١ — الدعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب ، أو الدعوة إلى الصلح والسلام .

٢ — المفاخرة والمنافرة والمحاورة والكهانة .

٣ — وصف مشاهد الحياة ومظاهرها فى الصحراء .

٤ — التوصية بفعل خير أو إســداء معروف أو سلوك نهج محمود أو بُعد عن خصلة مذمومة .

٥ — الوفادة على الأمراء والملوك إلى غير ذلك من شتى أغراض النثر فى العصر الجاهلى : كالتبشير بنبى جديد ، أو النهى عن الرذائل والآثام .

(٣)

أما ألفاظ النثر الجاهلى فيبدو عليها السذاجة والبداوة ، فأحياناً سهلة رقيقة ، وأحياناً وحشية وغريبة ، ولم يكونوا يتأنقون فى اختيار اللفظ ذى النغمة المتشابهة أو الجرس المتآلف ، ويندر استعمالهم للألفاظ الأعجمية فى نثرهم إلا قليلا منهم ممن اتصلوا بالفرس وسواها من الأمم القديمة .

وأسلوب النثر الجاهلى يمتاز بالخلو من اللحن والإيجاز ، وقلة الترادف ، وإيثار الكناية القريبة على التصريح ، وبقصر الجمل غالباً ، وخاصة فى الحكم والأمثال وسجع الكهان ، كما يمتاز بعدم التكلف فى الصياغة والأسلوب ، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المحسنات البديعية أو تعمدها ، وكلامهم يخلو منها إلا نادراً وعن غير عمد أو قصد ، وفى أسلوبهم الجزالة والقوة وشدة الأسر ، والوضوح ، والقرب إلى الذوق الأدبى المطبوع .

أمثلة للنثر المأثور فى العصر الجاهلى

(١)

من النثر الفنى فى العصر الجاهلى هذه القطعة التى رواها القالى عن ابن الكلبى عن أبيه قال[1] :

كان قيل من أقيال حمير منع الولد دهراً ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصراً منيفاً بعيداً من الناس ، ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها ، فلما مات أبوها ملّكها أهل مخلافها[2] ، فاصطنعت النسوة اللواتى ربينها وأحسنت إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت الكرام لو تزوجت لتم لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشدائد، وفى الخطوب مساعد، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت: نعم الشىء هذا. فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أصرد[3] ، ومتكئى حين أرقد ، وأنسى حين أفرد ، فقالت : إن هذا من كمال طيب العيش ـ إلى آخر هذه القطعة الطويلة الجميلة الساحرة .

(٢)

وعن أبى عبيدة قال[4] :

كان قيس بن رفاعة يفد سنة إلى النعمان اللخمى بالعراق وسنة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ، فقال له يوما وهو عنده : يا ابن رفاعة ، بلغنى أنك تفضّل النعمان علىّ ، قال : وكيف أفضله عليك أبيت اللعن ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من قومه ، ولشمالك أجـــود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولكرسيك أرفع من سريره ،

(١) ١ : ٨٠ الأمالى. (٢) المخلاف : الكورة. (٣) أى أبرد . (٤) ١ : ٢٠٧ الأمالى.

ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومك أفضل من شهوره ، ولزندك أورى من زنده ، ولجدك أعز من جده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن لخم الكثيرى النوك[1] ، فكيف أفضّله عليك ؟

(٣)

وعن العباس بن هشام عن أبيه قال[2] :

كان قس بن ساعدة يفـــد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوما : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه ؟ قال : فما أفضل المـال ؟ قال : ما قضى به الحقوق .

(٤)

ومن المثل كذلك ما قالته وفود العرب فى تعزية سلامة ذى فائش بابنه[3] ومنها :

قال الملبّبُ : أيها الملك، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب بمــا تفجأ به من استرداد الموهوب ، وقد تناهت إليك أنباء من رزئ فصبر ، وأصيب فاغتفر الخ .

(٥)

واجتمع[4] عامر بن الظرب العدوانى وحممة بن رافع الدوسى[5] عند ملك من حمير فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان ، فقال عامر لحممة : من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال: من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر، وإذا موطل صبر ، وإذا قدم العهود ذكر ، قال : من أكرم الناس عِشرة ؟ قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح . قال : من أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر الخ .

---

(١) أى الحمق . (٢) ٢:٣٧ الأمالى . (٣) ٢:٩٩ الأمالى . (٤) ٢:٢٧٦ الأمالى.
(٥) وكان ابنه عمرو أحد من تتحاكم إليه العرب (١٤٣ : ٢ الأمالى) .

(٦)

وكان هوذة بن على الحنفى يجير لطيمة كسرى فى كل عام (واللطيمة عير تحمل الطيب والبز) فوفد على كسرى ، فسأله عن بنيه ، فسمى له عدداً . فقال : أيهم أحب إليك ؟ قال الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يرجع ، والمريض حتى يفيق ، فقال له : ما غذاؤك فى بلدك ؟ قال : الخبز ، فقال كسرى لجلسائه : هذا عقل الخبز ، يفضله على عقول أهل البوادى الذين غذاؤهم اللبن والتمر[1] .

(٧)

وذكروا أن هند بنت عتبة قالت لأبيها : لا تزوّجنى من أحد حتى تعرض علىّ أمره وتبيّن لى خصاله ، فخطبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فدخل عليها أبوها يقول :

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما ... رضا لك ياهند الهنود ومقنع
وما منهمـا إلا يواسى بفضله ... وما منهمـا إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مـرزأ ... وما منهما إلا أغـر سميذع
فدونك فاختارى فأنت بصيرة ... ولا تخدعى إن المخـادع يخدع

قالت: يا أبت والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسر لى أمرها ، وبيّن لى خصالها، حتى أختار أشدها موافقة لى ، فبدأ بذكر سهيل ، فقال : فى ثروة وسعة من العيش إن تابعته تابعك ، وإن مات عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر: فوسع عليه ، منظور إليه فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، كبير الطهرة . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحرة فما عست أن تلين بعد إبائها ، وتضيع تحت جناحه ، إذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ، ولا تسمه على بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحـرة العفيفة ، وإنى لأخلاق مثل هـذا لموافقة . فزوّجنيه ؛ فزوجها من أبى سفيان[2] .

---

(١) ص ٩٧ مختار العقد الفريد ١٩١٠ . (٢) ٣٢٨ مختار العقد ، ١٠٤ : ٢ الأمالى .

أقسام النثر الجاهلى

الحكم والأمثال ، ونماذج لهما :

١ ـ من حكماء العرب أكثم بن صيفى التميمى ، ومن حكمه :

رب عجلة تهب ريثاً ، رضا جميع الناس غاية لا تدرك، آفة الرأى الهوى ، من يزد غبا يزدد حبا ، من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، لم يذهب من مالك ما وعظك ، ويل للشجى من الخلى ، مقتل الرجل بين فكيه ، قبل الرماء تملأ الكنائن(١) .

٢ ـ ومن حكمائهم : ذو الأصبع العدوانى ، وعامر بن الظرب وقس بن ساعدة ، وحاجب بن زرارة ، وهاشم بن عبدمناف ، وعبدالمطلب بن هاشم، وهند بنت الخس. وسواهم ، ولا داعى لذكر أمثلة لحكمتهم ، ومن أقدم حكمائهم لقمان المشهور(٢) . ومن حكمه : رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى .

وكان عمرو بن حممة الدوسى أحد من تتحاكم إليه العرب(٣) .

٣ ـ ومن حكمهم : العتاب قبل العقاب ، كلم اللسان أنكى من كلم السنان ، أول الحزم المشورة ، أنجز حر ما وعد ، اترك الشر يتركك ، رب ملوم لا ذنب له ، من مأمنه يؤتى الحذر .

٤ ـ ومن أمثالهم :

إن العوان لا تعلم الخمرة(٤) .

---

(١) راجع ص ٢١٦ معراج البيان . وراجع أمثال أكثم بن صيفى وبزرجمهر فى العقد ص ٦٢ ج ٢ .

(٢) يتنازعه العرب والحبشة والمصريون واليهود وراجع الحديث عنه فى الجزء الثانى من الشريشى ، وكتاب الذكر الحكيم فى سورة لقمان ، ص ٧٨ و ٧٩ : ١ فجر الإسلام .

(٣) ١٤٣ : ٢ الأمالى .

(٤) العوان : النصف التى بلغت مبلغ النساء ، والخمرة : لبس الخمار : يضرب للعالم بالأمر المجرب له .

إن البلاء موكل بالمنطق[١] .

إن أخاك من آساك .

سبق السيف العذل[٢] .

عينك عبرى والفؤاد فى دد ـ والدد : اللهو[٣] .

عند جهينة الخبر اليقين .

ما يوم حليمة بسر[٤] .

أحشفاً وسوء كيلة ـ ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .

نفس عصام سودت عصاماً[٥] .

الصيف ضيعت اللبن .

كالمستجير من الرمضاء بالنار .

رجع بخفى حنين .

اليوم خمر وغداً أمر[٦] .

إلى غير ذلك[٧] .

٥ ـ وقد يتمثل بالأمثال على لسان طائر أو حيوان أو نبات أو جماد تسلية وفكاهة أو خوفا وحذرا من استبداد مستبد أو استطرافاً وروعة أو وضماً للحكمة فى موضع الأمر المشهور المسلم به من كل شيء . ويمثل ذلك كليلة ودمنة ومفاكهة الخلفاء وسواها.

---

(١) ينسب لأبى بكر قاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل ويضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه .

(٢) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه .

(٣) يضرب لمن يظهر خلاف ما يبطن .

(٤) حليمة بنت ملك غسان . يضرب للأمر المشهور الذى لا يكاد يجهل .

(٥) يضرب فى سؤدد الرجل بنفسه .

(٦) يضرب فى تقلب الأيام .

(٧) راجع ٢٢٤ وما بعدها معراج البيان ، وراجع كتاب الأمثال للميداني .

ومن ذلك :

فى بيته يؤتى الحكم[١] .

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك[٢] .

إلى غير ذلك . . .

٦ ـ وفى النثر الجاهلى ألوان من القصص تتمثل فى سير أيام العرب، وفى القصص المروية عن الفرس ، وفى أحاديث الهوى والشباب[٣] .

ما هى الحكمة :

والحكمة لون بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكما مسلما فى أمر بخير أو نهى عن شر . وقد كثرت الحكم والحكماء فى الجاهلية[٤] وكان فى كل قبيلة حكيم تفزع إليه فى الشدائد والمعضلات والمنافرات والخصومات .

والحكم من البلاغة بمكان كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة معناها وجلال هدفها .

وهى تكسب الكلام سحرا وحلاوة، وتجعله مقبولا فى الذوق، قريباً إلى القلب، مسلماً به من العقل والشعور والوجدان .

وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا .

---

(١) قالوا : إن الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب وأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب . فقالت الأرنب : يا أبا الحسن ، قال : سميعاً دعوت . قالت : أتيناك لنختصم إليك . قال : عادلا حكمتما . قالت : فاخرج إلينا . قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت : إنى وجدت ثمرة . قال : حلوة فكليها : قالت فاختلسها الثعلب . قال : لنفسه بغى الخير . قالت : فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمنى . قال : حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالا . (٢) يضرب لمن لا يفى بالعهد . وهو مقول على لسان حية .

(٣) راجع ٧٢ ـ ٨٥ : ١ فجر الإسلام .

(٤) وكانت هند بنت الخس من حكيمات العرب (راجع حديثها مع أبيها فى ص ١٠٧ ذيل الأمالى).

ما هو المثل[١] ؟

المثل مأخوذ من قولك : هذا مثل الشيء ومثله أى شبهه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلا ، وفى العبرية كلة مثل بمعنى الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزى والأساطير .

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مضربه بمورده ، أو قل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا ، وهذ هو رأى المبرد . وقال المرزوقى : هو جملة من القول تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنقل عما وردت منه إلى كل ما يصح قصده منها من غير تفسير يلحقها فى لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة ولأفكار الشعب على وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحراً وروعة وجمالا وبلاغة ، وتقال الأمثال الفرضية للحذر من استبداد المستبدين وطغيانهم ، وهى وسيلة للنقد والسخرية حقا .

والأمثال أصدق شىء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها ، وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير ، وهى مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية .

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهلى منها من الإسلامى ، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهلى منها وتمييزه من الإسلامى .

والأمثال إما حقيقية أو فرضية ، فالحقيقية لها أصل وقائلها غالبا معروف ، والفرضية ما كانت من تخيل أديب وضعها على لسان حيوان أو جماد أو ما شاكل ذلك .

---

(١) جمع العسكرى والميدانى الأمثال العربية فى كتابيهما : جمهرة الأمثال للعسكرى ، ومجمع الأمثال للميدانى ، وراجع ٧٤ — ٨٢ : ١ فجر الإسلام .

والأمثال إما شعر وإما نثر ، ومثالها من الشعر :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار[1]

أن ترد الماء بماء أوفق ... لاذنب لى قد قلت للقوم استقوا[2]

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ... إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا[3]

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[4]

وكذلك الحكم : إما نثر أو شعر ، وقد سبقت أمثلة لها ، وللأمثال من النثر .
أما الحكمة الشعرية فمن مثلها :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شىء سواه بخزان

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب ؟

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

ومن لم يذد عن عرضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

الوصايا والنصائح، ونماذج لها :

١ ـ ذو الأصبع العدوانى حكيم شاعر وأحد المعمرين فى الجاهلية . قال لما احتضر يوصى ابنه أسيدا :

يا بنى إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته ؛ ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم ، كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح

---

(١) للصمة بن عبد الله القشيرى . ويضرب فى التمتع بالرذائل . والعرار : نبت طيب الرائحة وهو النرجس البحرى .

(٢) يضرب لمن لا يقبل الموعظة .

(٣) هو لأبى أذينة اللخمى يحرض الأسود بن المنذر على قتل بعض أسارى غسان يضرب فى التحريض على استئصال شأفة الشر .

(٤) يضرب لمن يحاول ما لا يستطيع فيتعب نفسه دون فائدة .

بمالك ، وأعزز جارك ، وأعن من أستعان بك ، وأكرم ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً . فبذلك يتم سؤددك .

٢ ــ ونصح أوس بن حارثة ابنه مالكا حين حضره الموت فقال[1]: يا مالك! المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التقلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم ، ومن قل ذل ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة الخ .

٣ ــ وأوصت أعرابية ولدها فقالت :

أى بنى إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعترضت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهى ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ، ولا تهز لئيما فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها .

٤ ــ واقرأ وصية زهير بن جناب الكلبى لبنيه ، والتى يقول منها :

يا بنى قد كبرت سنى ، وبلغت حرسا[2] من دهرى ، فأحكمتنى التجارب والأمور تجربة واختباراً ، فاحفظوا عنى ما أقول وعوه ، وإياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب الخ .

٥ — وأوصى النعمان بن ثواب العبدى ابنا له فقال :

يابنى إن الصارم ينبو ، والجواد يكبو ، والأثر يعفو ، فإذا شهدت حربا فرأيت نارها تسعر ، وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها يجسر ، فأقلل المكث والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب ثار .

٦ — واقرأ وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى لابنتها أم إياس ، وكان عمرو بن حجر جد امرئ القيس تزوجها ، ثم خرج بها من نادى قومها ، فأوصتها أمها قالت :

---

(١) ١٠٢ : ١ الأمالى .　　(٢) أى أمداً طويلا منه .

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً :

اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتعهدى موقع عينه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدئى عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة ، ثم اتقى مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما ، يكن أشدهم لك إكراما ، واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخير لك .

٧ — وصية لأكثم بن صيفى :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً ، الصدق منجاة ، لاينفع التوقى مما هو واقع ، فى طلب المعالى يكون العنا ، الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلىّ من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ، ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لاتغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لاتجيبوا فيما لاتسألون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه ، حيلة من لاحيلة له الصبر ، إن تعش تر ما لم تره ، المكثار كحاطب ليل ، من أكثر أسقط ، لاتجعلوا سرًّا إلى أمة .

إلى ما سوى ذلك من بليغ وصاياهم ، وفصيح نصائحهم المأثورة .

ماهى الوصايا ؟

والوصايا جمع وصية ، والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه ، وكذلك النصيحة ، فمعناهما متقاربان أو متحدان .

والوصية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب والأصدقاء ، والفرق بينهما أن الوصية تكون من الرجل لقومه أو أبنائه ، ومن الأم لابنتها ، والخطابة تكون فى المشاهد والمجامع والحروب والمعارك ، وفى المفاخرة والمحاورة والمنافرة ، وفى الوفادة على ملك أو أمير ، وفى المواسم والاجتماعات العامة .

والوصايا كثيرة فى النثر الجاهلى ، وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقتها وما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير ونفاذ فكر وثقوب نظر .

الخطابة فى الجاهلية ونماذج لها :

١ — خطب هانىء بن قبيصة الشيبانى فى قومه يوم ذى قار وهو يحرضهم . قال:

يامعشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لاينجى من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره . الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد[1] .

٢ — خطبة المأمون الحارثى فى نادى قومه :

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه . فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال :

أرعونى أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم . يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، طمح[2] بالأهواء الأشر[3] ، وران[4] على القلوب الكدر ، وطخطخ[5] الجهل النظر ، إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وشاب مختضر[6] ، ويفن[7] قد غبر ، وراحلون لايؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر، وينبت الزهر ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر، البارىء المصور[8] .

(١) ١٦٩ : الأمالى . (٢) ارتفع وعلا . (٣) البطر . (٤) غلب .
(٥) أظلم . (٦) أى مات حدثاً صغيراً . (٧) الشيخ الكبير.
(٨) راجع ٢٧٣ : ١ الأمالى، والمأمون بالنون فى الأمالى، وبالراء (المأمور) عند بعض الرواة.

٣ ـ خطباء العرب يعزون قيلا من أقيال حمير فى ابنه :

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كأكمل أبناء المقاول[1] ، وكان به مسروراً يرشحه لموضعه ، فركب يوم ذات فرساً صعباً ، فـكب به فوقصه[2] ، فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً ، وامتنع عن الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فخرج إلى الناس ، فقام خطباؤهم يؤسونه[3] . فقام الملبب بن عوف الجعفى ، فقال :

أيها الملك : إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأتك[4] جلل[5] ، ما لم تدن الأجل ، تقطع الأمل ؛ وإن حادثاً ألم بك، فاستبد[6] بأقلك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك وقد تناهت إليك أنباء من رزئ فصبر ، وأصيب فاغتفر . فاستشعر اليأس عما فات إذ كان ارتجاعه ممتنعاً ، ومرامه مستصعبا . فلشىء ما ضربت الأسى[7] ، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء[8] .

٤ ـ خطبة قس بن ساعدة الإيادى[9] فى عكاظ :

قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيكم يعرف قس بن ساعدة الإيادى قالوا : كلنا نعرفه ، قال: فما فعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه بسوق عكاظ فى الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول : « اسمعوا ، وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، سحائب تمور ، ونجوم تغور . فى فلك يدور ، ويقسم قس قسما إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا ، ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ أيكم يروى شعره ، فأنشأ بعضهم :

---

(١) من هم دون الملوك العظماء . (٢) كسره . (٣) يعزونه .

(٤) أخطأتك . (٥) صغير . (٦) استبد به : أى جعله لصيبه .

(٧) جمع أسوة : وهى القدوة . (٨) ٩٩ : ٢ الأمالى .

(٩) تجدها فى البيان والتبيين « ٣ . ٢ : ١ » ، وفى العقد ص ٣٨٥ جـ ٢

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا ... يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة ... حيث صار القوم صائر[١]

٥ ـ ومن خطبة مرثد الخير[٢] ـ وكان قيلا من أقيال اليمن ـ فى سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب بن ذى رعين ، حين تنازعا الشرف وتخاصما ، وخيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جذماها[٣] :

إن التخبط[٤] ، وامتطاء الهجاج[٥] ، واستحقاب[٦] اللجاج ، سيقفكما على شفا هوة ، فى توردها بوار[٧] الأصيلة[٨] ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة[٩] ، وأنتما فى فسحة رافهة[١٠] وقدم واطدة[١١] ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ؛ وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور[١٢] أمورهم .

٦ — وخطب أبو طالب حين تزوج النبى صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة ، فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به

---

(١) ٢٦٩ و ٢٧٠ مختار العقد الفريد ، ط ١٩١٠ . (٢) راجع ٩٢ : ١ الأمالى .
(٣) الجذم الأصل . (٤) ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة .
(٥) ركب الرجل هجاجه إذا لج أى ركب رأسه .
(٦) استفعال من الحقيبة وهى ما يجعل الرجل فيه متاعه . وهذا مثل يريد أنه احتزم باللجاج أو جعله فى وعائه . (٧) هلاك . (٨) الأصيلة والأصل واحد .
(٩) القرابة . (١٠) ناعمة . (١١) ثابتة . (١٢) الصيور : الأمر الذى يرجع إليه .

فتى من قريش إلا رجح عليه برا ، وفضلا ، وكرما ، وعقلا ، ومجداً ، ونبلا ، وإن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلىّ » .

٧ — خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :

رووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول :

« يامعشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاماً » .

« يامعشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ماحفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه، وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شعثا غبرا من كل بلد ، فورب هذه البنية : لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، ألا وإنى مخرج من طيب مالى وحلاله،ما لم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً ، ولم يؤخذ ظلماً ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يغتصب » .

٨ — خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة :

تنافرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة . فقال فى خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يا بنى قصى ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف

لايصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغى.

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غير ، والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعو الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .

فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة ، وهى كنيته .

٩ ـ وراجع خطبة البرجمى أمام حاتم الطائى فى وفادته عليه دماء حملها[١] .

١٠ ـ وراجع ما قيل من خطب فى :

(ا) وفود العرب على كسرى[٢] .

(ب) ووفود أبى سفيان على كسرى[٣] .

(ج) « قريش على سيف بن ذى يزن[٤] .

(د) « العرب على النعمان[٥] .

ماهى الخطابة[٦] ؟

الخطابة فن من فنون النثر ، وهى فن مخاطبة الجمهور الذى يعتمد على الإقناع والاستمالة . أو هى كلام بليغ يلقى فى جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم فى دنياهم وآخرتهم .

---

(١) ص ٢١ ذيل الأمالى . (٢) ١٦٦ : العقد الفريد ط ١٩٢٨ .

(٣) ١٧٤ : ١ المرجع . (٤) ١٧٥ : ١ المرجع . (٥) ٢٥٦ : ١ المرجع .

(٦) راجع : الخطابة لأبى زهرة ـ جمهرة الخطابة لصفوت ـ ٢٣٥ و٩٩ ج ١ و١٩ و٢١ و٢٦ ج ٢ و ٣ و ٦ و ١٥ و ٦٦ ل ٥٢ ج ٣ البيان والتبيين ، والعقد الفريد ـ مواسم الأدب ـ بلاغات النساء لابن طيفور ـ بلوغ الأرب .

والخطابة قديمة نشأت مع الإنسان وتروى للأمم القديمة خطب كثيرة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

والخطابة ضرورية للأمة فى سلمها وحربها، وهى أداة الدعوة إلى الرأى والعقيدة فى شتى نواحى الحياة والمجتمع ، وهى وسيلة الدعاة والمصلحين ، والمهذبين والمرشدين، وعماد القادة والزعماء ، وأداة الأحزاب السياسية ، والجمعيات الأدبية والاجتماعية ، وعليها الاعتماد فى كثير من شئون الحياة، فى السياسة وفى التربية والتعليم ، والوعظ والإرشاد ، وفى محافل الأنس ، ومآتم الحزن .

والخطابة تقوى عندما تكون الأمة متمتعة بقسط من الحرية ، شاعرة بما هى فيه ، طامحة إلى آمال واسعة فى الحياة، وحينما تتصارع الخصومات، وتختلف الأفكار والمبادئ والمذاهب .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفى العصر الحديث نشأت الخطابة القضائية والبرلمانية .

الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى :

ويروى للعرب فى جاهليتهم خطب كثيرة ، ونبغ فيهم خطباء مشهورون وكانت الخطابة لسان الأشراف والرؤساء والنابهين من القبائل ؛ يفضلونها على الشعر الذى غض من قدره تكسب الشعراء به[1] ، ويعبرون بها عما يجيش فى صدورهم من أفكار وآراء ، ويصرفون بها ملكة البلاغة المتأصلة فى أعماق نفوسهم وطوايا قلوبهم ، ويصورون بها جميع ما يطوف بعقولهم فى شئون السياسة والاجتماع .

وكانت الخطابة عندهم منتشرة ذائعة، لها مكانتها فى النفوس، وسحرها فى الألباب، وأثرها فى الشدائد والمشكلات ، وكان لكل قبيلة شاعر . وبالجملة فإن الخطابة فى العصر الجاهلى كان لها حظ من القوة والنهضة والازدهار .

---

(١) راجع ١٧٠ ج ١ و ٢٥٩ ج ٣ من البيان والتبيين .

ويرجع ذلك إلى ابتذال الشعر بالتكسب به ، وإلى أن الخطابة كانت مهنة القادة والحكام ، وإلى أهميتها لاستعمالها فى الدفاع عن القبيلة .

دواعى الخطابة فى العصر الجاهلى :

وكانت دواعيها كثيرة متشعبة عندهم ، فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة فى نفوسهم وتملكهم زمام الفصاحة . ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم ، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتى ألجأتهم إلى الاستعانة باللسان دون الكتابة . ثم ضعف شأن الشعر ومكانته فى نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به . ثم سعة مجال الخطابة فيهم ؛ وكثرة أسبابها لديهم .

كل ذلك كان داعياً لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم .

أغراض الخطابة فى العصر الجاهلى :

وأغراض الخطابة كثيرة فى العصر الجاهلى ، من ذلك :

١ ـ التحريض على القتال أو الدعوة للسلام والوئام . وهذا كثير عند العرب فى جاهليتهم لكثرة حروبهم ، وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات .

٢ ـ التبشير بدين جديد ، ومحاربة الفوضى والرذائل والوثنية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى . كما نرى فى خطبة المأمون الحارثى فى نادى قومه[1] . وخطبة أكثم بن صيفى التميمى فى قومه[2] ، بعد أن بعث الرسول وبعث أكثم ابنه حبيشا ليأتيه بخبره ، وكما فى خطبة قس فى سوق عكاظ .

٣ ـ التعزية فى عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم .

---

(١) ٢٧٣ : ١ الأمالى .

(٢) ٢٤٧ : ٢ أمثال العسكرى ، ومجمع الأمثال للميدانى الجزء الثانى . ومنها . إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره وكتابه ، يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه ، إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس حسنا . أطيعونى واتبعوا أمرى .

٤ ـ الوفادة على الملوك والرؤساء للتهنئة أو الاستنجاد أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة ، أو التعزية أو سواها . والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك .

٥ ـ الدعوة إلى الصلح وفض الخصومات وجمع الكلمة كما فى خطبة مرثد الخير .

٦ ـ الخطب فى المحافل حين الإملاك[1] أو الولادة أو ما شاكل ذلك .

٧ ـ المفاخرة والمنافرة والمباهاة بعز العشيرة وشرف المحتد والمباهاة وجلال الأصل .

٨ ـ التوصية بفعل جميل أو أدب حميد .

وهكذا تعددت أغراض الخطابة وتشعبت مناحيها .

أسلوب الخطابة :

وأما أساليبها فقد كانت مركبة من جمل قوية ضعيفة الرابط يغلب عليها الحكمة والسجع ، وفيها جلالة الجزالة والفصاحة .

المأثور من خطب الجاهليين :

والمأثور من خطب الجاهليين قليل ، أقل من الشعر المروى عنهم ذلك أن الخطابة يصعب حفظها لطولها وعدم تقييدها بوزن أو قافية ، وعدم تدوينها إلا فى القرن الثانى الهجرى ؛ مما أدى إلى ضياع كثير منها لطول العهد بها .

الخطابة والخطيب :

وكانوا يلزمون أنفسهم الوقوف فى الخطبة إلا فى خطب إملاكهم وكثيرا ما كانوا يؤثرون أن يخطبوا وهم واقفون على نشز من الأرض . أو على شيء مرتفع : كظهر الراحلة وسواها ؛ وذلك لظهور الخطيب ولشدة تأثيره .

كما كانوا يقبضون بأيديهم على عصا أو رمح أو سيف أو قوس . ويعصب الخطيب عمامته .

---

(١) الإملاك : التزويج .

والخطيب يلتزم رباطة الجأش وجهارة الصوت[1] وبلاغة القول وقوة الحجة . قليل الحركة ، قليل الإشارة ، ينطق بالصدق ، ويتكلم بالحق . فى مظهر نبيل وزى جميل ، وهو غالباً رئيس قومه أو من أشرافهم .

هذا ويهون طه حسين من الخطابة الجاهلية : لفقدان الحضارة والتنازع السياسى والدينى ؛ وهذا غير صحيح لكثرة الخصومات ولمعرفتهم بالكتابة ووجود بعض ألوان من الحضارة . ولكثرة كلام الرواة عن الخطابة الجاهلية .

---

(١) ويشيدون بالعباس بن عبد المطلب فى جهارة صوته (٩٥ جـ ١ البيان والتبيين) كما أشادوا بجهارة الصوت ٩٤ جـ ١ المرجع ، ويقولون خطيب أشدق أى بليغ ، وهو من الشدق بفتح الدال وهو سعة فى الشدق .

المحاورات وصور لها

١ ـ مفاخرة طريف بن العاصى والحارث بن ذبيان عند بعض مقاول حمير[١] .

قال الملك للحارث : يا حارث ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان ؟

قال الحارث : خرج هجينان منا يرعيان غنما لهما ، فتشاولا[٢] بسيفيهما فأصاب صاحبهم عقب صاحبنا فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبنا : دية الهجين[٣] ، وهى نصف دية الصريح[٤] ، فأبى قومى إلا دية الصريح وأبوا إلا دية الهجين ، فتفاقم الأمر بين الحيين فتظاهروا علينا حسداً ، فأجمع ذوو الحجا منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد ، فلحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله ما فت فى أعضادنا ، فنأينا عنهم ولقد أثأرنا[٥] صاحبنا وهم راغمون .

فوثب طريف من مجلسه ، فجلس بإزاء الحارث فقال : تالله ، ما سمعت قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، من قول هذا . والله أيها الملك ما قتلوا بهجينهم بذجا[٦] ، ولا رقوا به درجا ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم ، وأجلاهم عن محلهم .

فقال الحارث : أتسمع يا طريف؟ إنى والله ما إخالك كافا غرب لسانك ولا منهنها شرة نزواتك ، حتى أسطو بك سطوة تـكف طماحك ، وتردد جماحك .

فقال طريف : مهلا يا حارث ، لا تعرض لذروب[٧] سنانى ، وغرب سبابى .

فقال الحارث : إياى تخاطب بمثل هذا القول . فقال طريف : أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ، لئن لم تقف عند قدرك ، لأدعن حزنك سهلا ، وصفاك وحلا .

---

(١) ٧٢ جـ ١ الأمالى . (٢) تضاربا . (٣) هو الذى أبوه عربى وأمه غير عربية .
(٤) الخالص . (٥) أثأرنا : أخذنا بثأره . (٦) الخروف . (٧) الذرب : الحدة .

فقال الحارث : أما والله لورمت ذلك لمرغت بالحضيض[١] وأغصصت بالجريض ، وضاقت عليك الرحاب ، وتقطعت بك الأسباب .

فقال طريف : دون ما ناجتك به نفسك مقارعة أبطال ، وحياض أهوال .

فقال الملك : إيها عنكما .

٢ — وراجع حديث النسوة اللواتى أشرن على بنت الملك بالتزوج ، ووصفهن لها محاسن الزوج[٢] وقد سبق ذكره ، وراجع حديث أوس بن حارثة ونصيحته لابنه مالك[٣] ، وحديث بعض مقاول حمير مع بنقيه وما داربينه وبينهما من الحوار ، حين كبرت سنه ، وهو حديث طريف ممتع[٤] ، وما وقع بين عمرو بن براقة الهمدانى وحريم المرادى من الإغارة وما قال عمرو فى ذلك[٥] ، واجتماع عامر بن الظرب وحممة ابن رافع عند ملك من ملوك حمير ، وتحاورهما أمامه[٦] ، وحديث ابنة الخس مع أبيها[٧] ، وما وقع لحاتم مع زوجته ماوية[٨] .

٣ — وكان قس يفد على قيصر ويزوره فقال له قيصر يوماً :

ما أفضل العقل ؟

قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

قال : وقوف المرء عند علمه .

قال : فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه .

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ما قضى به الحقوق .

---

(١) هو القرار إذا اتصل بالجبل . (٢) ٨٠ : ١ الأمالى .
(٣) ١٠٢ : ١ الأمالى . (٤) ١٥٢ : ١ الأمالى . (٥) ١٢٦ : ٢ الأمالى .
(٦) ٢٧٦ : ٢ الأمالى . (٧) ١٠٧ الذيل . (٨) ١٥٢ الذيل .

٤ — ومن أمثلة المفاخرة ما وقع من بعض سادات العرب أمام كسرى وقد قال لهم : ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه ، وليصدق .

فأخذ حذيفة بن بدر ، والأشعث بن قيس ، وبسطام بن قيس ، وحاجب بن زرارة التميمى ، وقيس بن عاصم ، يعدد كل منهم مآثر قومه ومفاخر أحسابه .

٥ — منافرة خالد والقعقاع التميميين :

نافر خالد القعقاع ، إلى ربيعة بن حذار الأسدى فقال : هاتيا مكارمكما .

فقال خالد : أعطيت من سأل، وأطعمت من أكل، ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها ، وطعنت يوم شواحظ[1] فارسا فجللت فخذيه بفرسه .

فقال : ياقعقاع ماعندك ؟

فأخرج قوس حاجب ، وقال . هذه قوس عمى رهنها عن العرب ، وهاتان نعلا جدى قسم فيها أربعين مرباعا ، وهذه زربية[2] زرارة لم ير ناره خائف إلا أمن ، ولم يمسك بطنب[3] فسطاطه أسير إلا فك .

فنادى ربيعة بن حذار أن السماحة واللها[4] والمرباع والشرف الأسبغ للقعقاع ، ألا إنى نفرت من كان أبوه معبداً وعمه حاجبا ، وجده زرارة[5] .

٦ — ومن أمثلة المنافرات منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ، وهى أشهر المنافرات فى الجاهلية .

قيل لما[6] أسن أبو براء عامر بن مالك . تنازع فى الرياسة عامر بن[7] الطفيل ،

---

(١) من أيام العرب وكان لبنى محارب على بنى عامر .

(٢) البساط .　　　　(٣) حبل طويل يشد به السرادق .

(٤) جمع لهوة وهى : العطية .　　　　(٥) هو القعقاع بن معبد بن زرارة التميمى .

(٦) راجع هذه القصة الأدبية فى كتاب الأغانى ص ٥٠ج١٥ ، مهذب الأغانى ص ٦٨ ج٢، نهاية الأرب ص٢٧٢ ج ٣ ، بلوغ الأرب ص ٢٨٦ ج ١ .

(٧) من بنى عامر بن صعصعة : فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم ولد ونشأ بنجد ، كريماً شجاعاً وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم ، فمات فى طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ .

وعلقمة[١] بن علاثة بن عوف بن الأحوص . فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا أسترجعها ، فأنا أولى بها منك ، فشرى[٢] الشر بينهما ، وسارا إلى المنافرة ، فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر : قد شئت ، والله إنى لأكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً[٣] .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهاراً . فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح[٤] ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى السنة الشياح[٥] .

فقال علقمة : أنا خير منك أثراً ، وأحدُّ منك بصرا ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً .

فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد ، وبصرى ناقص ، وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك ، إنى أسمى منك سمـــة[٦] ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة[٧] ، وأجعد منك جمة[٨] ، وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجـــل قضيف[٩] ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك بهم ، لكنى أنافرك ، أنا خير منك عقباً ، وأطعم منك جدباً .

فقال علقمة : قد علمت أن لك عقباً ، وقد أطعمت طيباً ، ولكنى أنافرك ، إنى خير منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أم عامر ـ وكانت تسمع كلامهما ـ فقالت : يا عامر نافره أيكما أولى بالخيرات .

---

(١) علقمة بن علاثة : كان فى الجاهلية من أشراف قومه ، أسلم ، وارتد فى أيام أبى بكر فانصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام وتوفى نحو سنة ٢٠ هـ .

(٢) شرى : استطار . (٣) يريد طول القامة . (٤) اللقاح : الإبل .

(٥) الشياح : القحط . (٦) السمة : القرابة . (٧) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن . (٨) الجمة : مجتمع شعر الرأس . (٩) قضيف : نحيف .

قال عامر : والله إنى لأركب منك فى الحماة ، وأقتل منك للـكماة[1] ، وخير منك للمولى والموالاة .

فقال له علقمة : والله إنى لبر ، وإنك لفاجر ، وإنى لولود ، وإنك عاقر[2] ، وإنى لعف ، وإنك لعاهر ، وإنى لوفى ، وإنك لغادر ، ففيم تفاخرنى يا عامر ؟

فقال عامر : والله إنى لأنزل منك للقفرة[3] ، وأنحر منك للبـكرة[4] ، وأطعم منك للهبرة[5] ، وأطعن منك للثغرة .

فقال علقمة : والله إنك لـكليل البصر ، نـكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر . وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ولـكن قل له : أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات . فقال له علقمة هذا القول ، فقال عامر: عير وتيس[6] ، وتيس وعنز، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحـكم ، أينا نفر عليه صاحبه أخرجها ؛ ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو ، فسمى الضمين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معـه من بنى مالك ، وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يقل بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم[7] . قالا : فأينا اليمين ؟ قال : كلاكما يمين ، وأبى أن يقضى بينهما . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ؛ فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش ، فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهما شيئاً ؛ فأتيا غيلان بن سلمة الثقفى ، فردهما إلى حرملة بن

---

(١) الـكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع . (٢) رجل عاقر : لم يولد له ولد .

(٣) القفرة : الخلاء من الأرض . (٤) البكرة : الفتية من الإبل .

(٥) الهبرة : القطعة المجتمعة من اللحم .

(٦) العير : الحمار ، وغلب فى الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك كالعير والتيس ، أو على الأقل كالتيس والعنز إذ التيس أقوى على النطاح من العنز .

(٧) درم العظم : واراه اللحم حتى لم يبين له حجم .

الأشعر المرى ، فأبى أن يقول شيئاً . ثم تداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من تبعه ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تعقر إذا حكم ؛ فأبى هرم بن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر ، وأبيا أن يرتحلا . فقال هرم : لعمرى لأحكمن بينكما ، ثم لأفصلن ، فأعطيانى موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول ، وتسلما لما قضيت بينكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوما ، فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام القوم عنده أياماً .

فخلا هرم بعلقمة، وقال له: أترجو أن ينفرك رجل من العرب على عامر فارس مضر؛ أندى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء لسفان رمح عامر أذكر فى العرب من الأحوص ، وعمه ملاعب الأسنة .

فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر على عامرا، اجزز ناصيتى ، واحتكم فى مالى ، وإن كنت لا بد أن تفعل فسو بينى وبينه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيى ؛ فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً . ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخر ؟ أنت تناوئه ! أعلى ابن عوف بن الأحوص ! أعف بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة ، وأحلمهم وأسودهم ، وأنت أعور عاقر مشئوم ؟ أما كان لك رأى يزعك عن هذا ! أكنت تظن أن أحداً من العرب ينفرك عليه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فوالله إن فعلت لا أفلح بعدها أبداً ، هذه ناصيتى فاجززها ، واحتكم فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسو بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيى ؛ فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه ينفره عليه .

ثم إن هرماً أرسل إلى بنيه وبنى أبيه : إنى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة ؛ فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر[1] ، فلينحرها عن علقمة . ويطرد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة . فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هرم، وقال: يابنى جعفر قد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأدرم، تقعان على الأرض معاً، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه، وكلاكما سيد كريم.

(١) جزائر : جمع جزور .

ومحمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل — وهما ابنا عم — فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرًّا .

فارتحلوا عن هرم لما أعياهم نحو عكاظ ، فلقيهم الأعشى منحدراً من اليمن — وكان لما أرادها قال لعلقمة : اعقد لي حبلا ، فقال : أعقد لك من بني عامر ! قال: لا يغني عني . قال : فمن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا بزائدك ، فأتى عامر بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض ؛ فقال له : كيف تجيره من أهل السماء ؟ قال : إن مات وديته — فقال الأعشى لعامر : أظهر أنكما حكمتماني، ففعل ؛ فقام الأعشى، فرفع عقيرته[1] في الناس فقال :

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ولا يبالي خسر الخاسر
علقم لا ، لست إلى عامر الـ ـناقض الأوتار والواتر
وللابس الخيل بخيل إذا ثار عجاج الكبة[2] الثائر
إن تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بني عامر
ساد وألفى رهطه سادة وكابرا سادوك عن كابر

وشد القوم في أعراض الإبل المائة فعقروها ، وقالوا : نفر عامر وذهبت بها الغوغاء ، وجهد علقمة أن يردها فلم يقدر على ذلك ؛ فجعل يتهدد الأعشى فقال :

أتاني وعيد الحوص من آل عامر فيا عبد عمرو لو نهيت الأحاوصا
فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج[3] لا يواري الدعامصا[4]
كلا أبويكم كان فرعاً دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا

---

(١) عقيرته : صوته . (٢) الكبة : الدفعة في القتال والحملة في الحرب .
(٢) سجي : سكن . (٣) الدعموص : دويبة أو دودة سوداء تكون في الغدران .

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم　　وجاراتكم غرثى[١] يبتن خمائصا[٢]

يراقبن من جوع خلال مخافة　　نجوم العشاء العاتمات الغوامصا[٣]

رمى بك فى أخراهم تركك الندى　　وفضل أقواما عليك مراهصا[٤]

فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا　　بفيك وأحجار الكلاب الرواهصا[٥]

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه فى العار[٦] .

هذا والمحاورة : هى التحاور والتراجع فى الكلام والحديث . وهى من ضرورات المجتمع والحياة .

والعرب كثيرو المحاورة لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنافرة والمفاخرة ، وسواهما من المحاورة العامة .

(ا) فالمنافرة : المحاكمة فى المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينا أعز نفرا : فهى التحاكم إلى الأشراف من حكام العرب ، ليفصلوا بينهما ، ويقضوا بالشرف لأحدهما .

(ب) والمفاخرة : مصدر فاخر ، وهى تفاخر القوم بعضهم على بعض ، وكانوا يفاخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة والكثرة والعدد .

(جـ) والمحاورة العامة فى شئون الحياة مما لا يتصل بمفاخرة أو منافرة وهى كثيرة ، كثرة مطالب الحياة وشئونها ودواعى اتصال الإنسان بسواه من المجتمع .

---

(١) غرثى : جاع .　　(٢) الخمائص : جمع خميصة ، ضامرة البطن أى من شدة الجوع .

(٣) الغميصاء : إحدى الشعريين ، قال فى القاموس : من أحاديثهم : إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت ويقال لها الغموص أيضاً .

(٤) راهص غريمه : راصده ، قال فى القاموس : والمراهص لم يسمع بواحدها .

(٥) الكلاب : موضع ، والرواهص من الحجارة : التى تنكب الدواب ، والصخور الثابتة.

(٦) راجع حديث هرم بن قطبة مع عمر بن الخطاب حول هذه المنافرة فى البيان والتبيين (١ : ١٦٨) .

سجع الكهان وصور منه

١ ـ حديث زبراء الكاهنة مع بنى رئام :

كان ثلاثة بطون من قضاعة متجاورين بين الشحر وحضرموت وهم : بنو ناعب، وبنو داهن ، وبنو رئام ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، وكانت بنو رئام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء ، وكان لهم عجوز تسمى خويلة ، كان يدخل عليها أربعون رجلا كلهم لها محرم : بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما ، وكان لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكانت زبراء كاهنة .

فقالت زبراء لخويلة: انطلق بنا إلى قومك أنذرهم، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء، فقاموا إجلالا لها .

فقالت : يا ثمر الأكباد ، وشجا الحساد ، هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤبد[٢] الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول ، قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، إن شجر الوادى ليأدوا[٢] ختلا ، ويحرق أنيابا عصلا[٣] ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون منه معلا[٤] .

وانصرفت عنهم ، فانصرف منهم أربعون رجلا ، وبقى ثلاثون . فرقدوا فى مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين . وأقبلت خويلة عند الصباح، فوقفت على مصارعهم، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة وألقتها فى عنقها[٥] .

---

(١) الداهية والأمر العظيم .　　(٢) أى يختل .

(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض ـ والعصل : المعوجة .

(٤) أى منجى .　　(٥) راجع ١٢٦ ج ١ الأمالى .

٢ ـ وراجع حديث مصاد بن مذعور وخروجه فى طلب الذود ، وما أخبره به الجوارى الأربع الطوارق بالحصا[١] .

وحديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج ووصفهم الأرض لقومهم بعد رجوعهم[٢] .

واقرأ حديث سواد بن قارب وكهانته[٣] ، وحديث ابنة الخس مع أبيها[٤] .

ووفود عبد المسيح ـ رسول كسرى ـ على سطيح الكاهن[٥] .

وكانت هند بنت عتبة زوجا للفاكه بن المغيرة المخزومى، وكانت داره ناديا لقومه ، فاتهمها الفاكه برجل واستلحقها بأبيها ، فخرج بها والدها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من قومها ، وأقبل معهم الفاكه فى رجال من قومه. فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكسارا وتغيرا ؛ فقال لها: يا بنية لا تكتمينى من أمرك شيئا ، فإن كان ما بك لريبة نرجع ولا بأس عليك ، فقالت هند : لا والله يا أبت ، ما ذاك لريبة ولا فاحشة « ولكنكم تقدمون على بشر يخطىء ويصيب ، وأخشى أن يسمنى بسمة ، تبقى على وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأبلوه لك ، ثم خبأ خبيئاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن، فأخبرهم بخبيئهم ، ثم أقبل على هند فقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية . وستلدين ملكاً اسمه معاوية .

ما هى الكهانة ؟

والكهانة قد سبق الحديث عنها وهى تعرف الغيب من الأمور المستقبلة أو الماضية.

وكان فى العرب كهان يتنبأون بالحوادث ، وللعرب اعتقاد كبير فيهم ، فهم ملاذ المريض ، وطمأنينة الحائر ، والحكم فى الخصومة .

ومن أشهر هؤلاء الكهان : شق وسطيح الذئبى[٦] . وطريفة الخير امرأة عمرو ابن عامر الحميرية وكانت باليمن وهى التى تنبأت بخراب سد مأرب ، ومنهم فاطمة الخثعمية وكانت بمكة ، ولها قصة مع والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسلم عبدالله

(١) ١٤٢ جـ ١ الأمالى . (٢) ١٨٠ جـ ١ الأمالى .
(٣) ٢٨٩ جـ الأمالى . (٤) ذيل ١٠٧ الأمالى . (٥) ١٧٨ جـ ١ العقد ط ١٩٢٨
(٦) كانا متعاصرين فى زمن كسرى أنو شروان وولدا معا .

ابن عبد المطلب قبل أن يتزوج بآمنة بنت وهب ، ومنهم زبراء ، وسواد بن قارب وغير هؤلاء كثيرون .

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأولئك الكهان وبعجائبهم فى الإخبار بالغيب ومعرفة الحوادث .

وكانت الكهانة منتشرة فى الجاهلية قبل البعثة ، وتدور غالباً حول التبشير بنبى يبعث ، وتفسير الرؤى ، ومعرفة ما خفى عنهم من الحوادث .

وهى نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحدس وصفاء الروح والقدرة على التحليق فى جو سماوى مجرد عن حدود المادة ، وكثيراً ما تصدق النبوءات فى مثل هذه الأحوال .

ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين :

(أ) كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر أهل الجاهلية ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن ، مثل حازى جهينة ، وشق ، وسطيح ، وعزى سلمة ، وإشباههم ؛ وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع . وكان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى يحكمون وينفرون بأسجاع وكذا ربيعة بن حذار[1] .

(ب) ومن أهل الدهاء والنكراء ومن أهل اللسن واللقن ، والكلام الصحيح ، والأمثال السائرة . والمخارج العجيبة : وهند بنت الخس ، وهى الزرقاء ، «وجمعة بنت حابس» ، وهما داهيتا نساء العرب كما يقول أبو عمرو بن العلاء[2] ويذكر حواراً لابنة الخس مع أبيها[3] .

(ج) ويذكر أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان[4] ومنهم — كما يقول — فى الجاهلية. عبيد بن شربة ، وشق بن الصعب ، وربيع بن ربيعة السطيح الذئبى . والمأمور الحارثى ، والديان الحارثى الشريفان الكاهنان[5] .

(١) ١٩٥ جـ ١ البيان والتبيين . (٢) ٢٠٥ جـ ١ المرجع .
(٣) ٢١٢ جـ ١ المرجع . (٤) ٢٣٠ جـ ١ المرجع . (٥) ٢٣١ جـ ١ المرجع .

الفصل الثالث

الشعر فى العصر الجاهلى

تعريف الشعر :

يتفق الأدباء على أن الكلام لايسمى أدبا ، ولايمت إلى الفن بنسب ، إلا حين يجتمع له روعة التأثير ، وبراعة الفكرة ، ودقة المعنى ، وجمال العبارة ، ولطف الأسلوب وإشراقه .

فإذا بلغ هذه الغاية ، واستوفى تلك السمات ، فلابد أن يأخذ أحد هذين اللونين :

١ — هذا اللون من الكلام الذى يجرى على الألسنة ، لايتقيد صاحبه بوزن ولا يلتزم فيه قافية ، ولايتوقف إلا على سلامة الفكرة ، وصحة المنطق ، واستقامة أركان الكلام وهذا النوع هو الذى يسمى بالنثر .

٢ — ذلك النوع الذى يلتزمون فيه حدودا خاصة ، وسمتا معينا ، ينضره دائما إشراق الخيال ، وحلاوة اللفظ وأناقته ، وجمال المعنى وبهجته ، مع خضوعه دائما لقيود الوزن وحدود القافية . وهذا هو الذى يطلقون عليه الشعر . لأنهم كما يقولون شعروا به وفطنوا له[1] .

فالشعر إذن هو الكلام الجيد البليغ الذى يعتمد على الوزن والقافية .

ولأنه يعد أسمى أنواع الكلام ، وأجمل ألوان البيان ، لما يحتويه من بهاء يأخذ بالألباب ، وجمال يستهوى الأفئدة ، فقد يطلق بعض الأدباء على كل كلام ينحو هذا النحو ، ويلبس تلك السمة ، لفظ الشعر كما قال حسان لابنه حين وصف زنبوراً لسعه بقوله : « كأنه ملتف فى بردى حبرة » شعر ورب الكعبة . وهو لاشك يقصد من وراء ذلك أن هذا الكلام كاد يلحق بالشعر فى براعة خياله وروعة تصويره . ولعله لهذا كان

---

(١) ٧٧ نقد النثر ، ٩٦ ج ١ العمدة .

العرب يقولون فى القرآن إنه شعر ، إذ اجتمع له أسمى وأروع ما فى جمال البيان وخلابة الأسلوب وسمو التصوير ومن تأثير على النفوس وسلطان على الأحاسيس ونفاذ إلى أغوار القلوب .

ولقد رأينا من أدبائنا المحدثين حين يزدهيهم بيان أو يطربهم أدب منثور ، من يطلق على الكلام الجيل ، الذى لا يتحلى بالوزن ، ولا يتقيد بالقافية لفظ شعر منثور . وكل ذلك من باب الإلحاق والتجوز .

على أن من أدباء الغرب من لا يشترط فى الشعر الوزن والقافية وقد يعفيه بعض أدباء العرب من قيد القافية ، ويرون أن ذلك أدعى إلى طول القصيدة وحسن التصرف واحتشاد الألفاظ ، التى تساعد الشاعر وتمده بالجزل من القول دون أن يلحقه كلال أو يصيبه إعياء .

على أننا ونحن بإزاء الكلام الفنى الذى يتميز بسمة خاصة فى بلاغته ، ويستلفت الأذهان بحسنه وروعته ، لابد أن نفرق بين النثر والشعر ، ولا يكون ذلك إلا بالوزن .

ولقد راعى ذلك علماؤنا المتقدمون ، حين تناولوه بالبحث ، فقال قدامة ابن جعفر فى تعريفه : إنه قول موزون مقفى يدل على معنى .

وقال ابن خلدون[1] : هو الكلام الموزون المقفى ، أى ما اجتمع فيه قيد الوزن والقافية معا . ولعل ابن خلدون لاحظ ما فى هذا التعريف من قصور ، ينزل بالشعر إلى درجة النظم ، الذى لا يحرص على معنى ولا يستهدف فكرة ، فعاد ثانية[2] إلى تعريفه بقوله : الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء فيها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به .

---

(١) المقدمة ص ٦٦٦ . (٢) المرجع ص ٥٧٣ .

ويقول ابن رشيق فى تعريفه[1] : الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء ، وهى اللفظ والوزن والمعنى والقافية فهذا هو حد الشعر .

ومن ذلك كله نرى أن جمهرة الأدباء على أن الكلام لا يتميز عن النثر ، ويطلق عليه لفظ الشعر ، إلا حين يجتمع له المعنى والوزن والقافية .

عناصر الشعر :

لا يستطيع الكلام أن يسمى شعراً ، ولا يصطبغ بصبغة الشاعرية ، حتى تتهيأ له أركان الشعر ، وتجتمع فيه عناصره وكلما وضحت هذه العناصر كان أشد تأثيراً على النفس ، ونفاذاً إلى القلب ، وإثارة للعاطفة . وهذه العناصر هى :

١ ـ المعنى :

فالمعنى الشعرى سواء كان حقيقة أم خيالا لا بد أن يتأنق فى صوغه الفكر ، ويطرز حواشيه الخيـــال ، وأن تحشد له الألوان التى تزيد بهجته وتسيغ قبوله . وهناك فرق بين المعنى الذى تؤديه قطعة من النثر والمعنى الذى يحمله بيت من الشعر . إذ اعتماد الأول على العقل يخاطبه ، والحجة يسوقها ، والمنطق يحتمى به ، واعتماد الثانى على الخيال يوقظه ويذكيه ، والشعور يثيره ، والعاطفة يلهبها ، والمرء حين يصغى إلى معنى تجود به قريحة شاعر موهوب ، تنقاد له مشاعره ، وتخبت جوارحه ، وقد تهيج عبرته ، وتجتمع شجونه ، وتشتد لوعته . وهـذا ابن الرومى رثى ولده بقوله :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى	فجـودا فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنـايا ورميها	من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى	فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخـــير من لمحاته	وآنست من أفعاله آية الرشد

(١) العمدة ص ٩٩ ج ١ .

فيثير الحــزن الشديد ويبعث الألم المتقد ، ويفعل فى تهييج الشجون وإسالة العبرات ما لا يفعله كتاب .

وهذا أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عــذر
توفيت الآمال بعــد محمد   وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قــل ماله   وذخرا لمــن أمسى وليس له ذخر

فيدعو العيون أن تسخو بالدمع ، ويحرض القلوب على أن تستحضر اللــوعة والحسرة والأنين ، ومن هنا ندرك أن معانى الشاعر تعتمد دائما على إثارة العاطفة ، وتهييج المشاعر . وقد يصطنع لذلك طرقا مختلفة من تشبيه واستعارة ومجاز وحقيقة، فتكون الصورة التى أداها وأبدع فى تنسيقها وتأنق فى صوغها أدعى إلى الإعجاب وأجلب للتأثر . حيث يعمل الخيال الشعرى عمله فى تجليتها وتلوينها .

٢ ـ اللفظ :

ألفاظ اللغة هى واحدة لا تختلف فى ترتيبها ، ولا تتباين فى نطقها ، مهما كانت المعانى التى تؤديها ، والإنسان الذى ينطق بها ، ولكن الاختلاف المظيم والفوارق الجمة تأتى من جهة استعمالها وتعاطيها ، فإذا أوتى الأديب حظاً وافراً من حسن الذوق، ودقة الاختيار ، وقوة الملاحظة ؛ استطاع أن ينتقى الألفاظ الشعرية التى تمس الحس، وتهزه هزاً ، وتدخل القلب دخول الحبيب الأليف المأنوس به . دون أن تكد فكراً أو تثقل على سمع .

وألفاظ الشاعر تتآخى دائما مع معانيه ، وتتلاءم مع أفكاره ، وكلما كان المعنى مما يرقص له الفؤاد ، وتهتز له الجوانح ، استدعى لفظا موسيقياً نابضاً بالجمال والإشراق.

فالمعنى الجيد ، والخيال الطريف ، يحتاج إلى لفظ مونق ، وأسلوب مشرق . وعبارات تفيض رقة وعذوبة وسلاسة ، وقوة وجزالة ، وكم من معنى نادر أفسده لفظ مرذول ، وأسلوب ضعيف مفكك .

أما الأسلوب الناضج القوى، والصورة البارعة الممتعة، التى تفيض بالجمال والبهاء، فإنها تستولى على فكر الإنسان وإحساسه، وتمتلك منه مواطن الإعجاب .

ومن يقرأ وصف النابغة للجيش لا يسعه إلا أن يطير فرحا وطربا من روعة ما يسمع . . يقول النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدى بعصائب[1]
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب[2]
تراهن خلف القوم خزراً عيونها ... جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب[3]
جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب[4]
لهن عليهم عادة قد عرفنها ... إذا عرض الخطى فوق الكواثب[5]
على عارفات للطعان عوابس ... بهن كلوم بين دام وجالب[6]
إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب[7]
فهم يتساقون المنية بينهم ... بأيديهم بيض رقاق المضارب[8]
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب[9]

يقول الجرجانى[10] : وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه فى تحسين الشعر، فتصفح شعر جرير وذى الرمة فى القدماء، والبحترى فى المتأخرين . وتتبع نسيب متيمى العرب، ومتغزلى أهل الحجاز : كعمر وكثير وجميل وأضرابهم، وقسهم بمن هو أجود منهم شعراً، وأفصح لفظا وسبكا، ثم انظر واحكم

---

(١) العصائب : الجماعات . (٢) الضاريات : المتعودات . والدوارب : المتمرنات .
(٣) خزراً : تنظر بمؤخر عيونها . وثياب المرانب : هى ثياب مائلة إلى السواد .
(٤) جوانح : مائلات للوقوع . (٥) الخطى : رماح منسوبة إلى الخط وهى بلدة، والكواثب فى المنسج أمام القربوس .
(٦) الدامى : الذى يسيل دما، والجالب : الذى برأ، أو علته الجلبة وهى القشرة .
(٧) أرقلوا : أسرعوا . (٨) المضارب : جمع مضرب وهو حد السيف .
(٩) الفلول : الثلوم . والقراع : المجالدة . (١٠) الوساطة ص ٣٠ .

وأنصف ، ودعنى من قولك: هل زاد على كذا . وهل قال إلا ما قاله فلان، فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ــ وإنما تقضى إلى المعنى عند التفتيش والكشف، وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب العمل علته والعنف به .

٣ ــ الوزن والقافية :

وأهم العناصر التى تفرد الشعر بطابعه الخاص ، وتضفى عليه سمة مميزة هو الوزن . . فإن لحسن الإيقاع ، وجمال التقسيم، وروعة التنغيم ، من الخفة على السمع، والعلوق بالقلب . والتأثير فى النفس ما ليس للكلام المسرود. الذى لا يسنده الوزن، ولا يؤلف بينه النظام .

ولقد رأينا فى أدبنا العربى أن ما وصل إلينا من تراث الشعر، فراع الناس وبهرهم، وأثار كامن إعجابهم ، إنما جاء فى هذا السمت . وذلك الطراز المعروف الموزون ، فإذا تأنق بعد ذلك أديب، أو اجتهد فنان، فى خلق صورة تلتمع أضواؤها وتشع أفكارها، فى ألفاظ مرسلة ، فلا يصح أن نقول إنها شعر ، إذ أنها تنقص الوزن الذى كان يزيد من جمالها ، ويضاعف من رونقها وبهائها ، لو أنه كان موجودا .

ولولا الوزن لما تهيأ لهذا التراث العربى أن يصل إلينا على تعاقب الأجيال ، وتتابع الدهور ، والقوم إذ ذاك لا تسعفهم حضارة بكتابة ، ولا يواتيهم علم بتدوين.

ولا يخفى ما للقافية كذلك من سحر وجاذبية ، ومن جمال ووقع لدى السمع ، ومن دلالة على براعة الشاعر ، وإعلان عن مقدرته .

فاتحاد القافية يصنع فى تجميل القصيدة ، وحسن استوائها ، ولطف وقعها ، ما يذهب به التعدد ، على أن هذا الاتحاد من ناحية أخرى قد جعل الشعر العربى قصيراً بالنسبة إلى غيره من أشعار الأمم ، التى امتازت بالطول ، لأن اضطرار الشاعر إلى التزام سمت خاص ، والتقيد بقافية واحدة ، وخضوعه لطبيعته البدوية التى لا تميل إلى الاستقصاء ، ولا تجنح إلى الدقة والعمق بل تكتفى باللمحة ، وتسكن إلى الخاطرة . كل ذلك كان سببا فى قصر الشعر العربى عن غيره .

وقد دعا جماعة من المحدثين كما سبق إلى طرح القافية من الشعر العربي الحديث ، لأنها في زعمهم وإن تعددت في القصيدة الواحدة ، بجعل كل قسم من أقسامها على قافية — قيد للشاعر ، وعبء عليه ، إذ لا تدع الشاعر حرًّا في تصوير ما يريد ، وهي السبب الأكبر في رأيهم لتأخر الشعر العربي عن الشعر الغربي ويسمون مثل ذلك « الشعر المرسل » .

ويدعو آخرون إلى تعدد القوافي ، ويقولون إنه إذا اتسعت القوافي لشتى المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول ، نزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء القصة والوصف والتمثيل . ومثل ذلك يقبل إذا كان تعدد القافية يأخذ شكل المربعات أو المخمسات أو الرجز مثلا . أما دون ذلك ، فهو قبيح .

ويدعو بعض المعاصرين إلى التجديد في أوزان الشعر وبحوره القديمة الموروثة عن الخليل للتحرر من الأوزان القديمة المحدودة ، وليكون الشعر أقدر على تصوير ألوان الحضارة والترف والعمران ، وليلائم التجديد المستمر في الغناء وألحانه . وهذا التجديد لابد أن يكون له قيود وحدود وإلا كان عبثا مثل عبث أصحاب « الشعر الحر » الذين يبنون القصيدة على نظام التفعيلة ولا يتقيدون بالنظام الشطري للبيت .

ولا شك أن في هذه الدعوات إسرافاً في الخصومة للشعر العربي القديم ومناهجه الموروثة . . وإن كنا نعـــد تعدد القوافي في القصيدة بحسب أغراضها وموضوعاتها أخف وأيسر مما سواه .

ومما لا ريب فيه أن الشعر العربي بصورته الموروثة فيه جمال فني ظـاهر ، وله روعة وقوة تأثير ، والتزام الوزن والقافية فيه يكسبه رنيناً موسيقيًّا ساحراً ، ويدل على قدرة الشاعر واكتمال ثقافته الأدبية .

نشأة الشعر :

ليس هناك من شك في أن الإنسان قد اهتدى إلى الشعر بفطرته . وانساق إلى هذا الفن الرفيع بطبيعته ، التي شاقها ما في الكون من حسن التناسق ، وجميل

الانسجام ، وحلو الأنغام ، دعته طبيعته الدافقة أن يتغنى بما يعتلج فى صدره ، ويشدو بمـــا تزخر به نفسه ، من ألوان الإحساسات ، وفنون الانفعالات ، فتفتق بالغناء لسانه ، وتفجر به بيانه ، وانطلقت عقيرته .

ثم أصغى إلى ما يحيط به من تناوح الرياح ، واصطفاق المياه ، وخرير الأنهار ، وحفيف الأشجار ، وتعاقب الليل والنهار . . وأوحت إليه هذه المظاهر الرائعة التى تهتف بها موسيقى الـكون ، أن يشدو بأنغامها الحالمة ونبضاتها الخافقة .

أحس بمان حركت قلبه ، وأثارت نفسه ، وجاش بها صدره، ثم استفاضت على لسانه فى صورة منغومة موقعة ، وكلام منسجم ، وألفاظ متناسقة ، ثم أخذت هـذه الأنغام ، أو تلك الـكلمات التى يتغنى بها حين تهيجه ذكرى ، أو تثيره لوعة ، أو يبعثه داع ، أخذت تتطور وتتغير حتى استقرت فى أوضاع خاصة ، هى التى تعرف عندنا الآن بأوزان الشعر .

فنشأة الشعر تـكاد تـكون توأما لنشأة الغناء، إذ كان الحافز لهذا هو الداعى إلى ذاك.
وإذا كان الجمال المنبعث منهما له تأثير رائع على الأفئدة والأسماع، وعلى الغرائز والطباع؛ ثم أخذ كل فن منهما يعمل دائباً فى رسالته ، ويتطور فى أداء مهمته ، ويحاول أن يأخذ أوضاعاً خاصة به فتطورت أوزان الشعر، وتعددت وأخذت سمتها المعروف الآن؛ :تطورت ألحان الغناء ، وأصبح فناًّ قائماً بنفسه لا يحتاج إلى الشعر ، ولا يتوقف على أوزانه ، وصار كذلك الشعر يستطيع أن يصور خوالجه ، ويرسم أحاسيسه ، دون أن يقصد إلى الغناء ، أو يفكر فيه .

وسواء قلنا : إن نشأة الشعر والوزن الشعرى جاء بحكم حركة العمل الجماعية أو نتيجة لحركة الحداء فى السير أو للرقص الجماعى ، فإن ذلك كله يؤدى إلى نتيجة واحدة .

قال ابن رشيق فى العمدة[1] : « كان الـكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى

(١) ص ٥ ج ١ .

الثناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم . فتوهموا أعاريض ، فعملوها موازين للكلام . فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ، لأنهم شعروا به ، أى فطنوا له .

أولية الشعر العربى :

ليس من السهل على الباحث أن يهتدى إلى تاريخ صحيح لمولد هذا الفن الجميل عند العرب . فهم أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائعهم ؛ وتشدو به ملكاتهم . يقولونه إذا حلوا أو ارتحلوا فى ظعنهم وإقامتهم ، وخوفهم وطمأنينتهم ، وحربهم وسلمهم .

وهم يقولون إن أولية هذا الشعر ترجع إلى ما قبل الإسلام بقرن ونصف على الأكثر. وابن سلام الجمحى يقول[1] : ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته ؛ وإنما قصدت القصائد ؛ وطول الشعر ، على عهد عبد المطلب أو هاشم بن مناف . وقال الأصمعى : إن المهلهل أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر .

ولا يمكن لباحث أن يطمئن إلى أن هذا التراث الحافل ، وذلك الشعر المهذب الخالد ، يرجع إلى قرن ونصف قبل البعثة. فهل من المعقول أن يولد فن كامل النمو، تام النضج ، مستوى الخلق ، لا يستولى عليه ضعف ، ولا يستبد به هزال . ولقد قضى العرب أزماناً سحيقة بهذه الجزيرة ، وبادت منهم طوائف . وقامت دول إثر دول ؛ فلا يعقل أن تعيش الطبائع كليلة غافية ، حتى زمن هاشم أو عبد المطلب . ثم تنفتح دفعة واحدة عن شاعرية بارعة ، وخيال رائع ، ونظم فاخر ، يخلد على وجه الزمن .

إن الذى يتقبله العقل ويطمئن إليه ضمير الباحث ، أن آثار تلك العهود وأشعارها فى تلك الحقب . قد انطوت عليها حجب الزمان وأسدلت عليها أستار النسيان ، فلم يصل إلينا عنها ولم يهتد فيها على أثر أو خبر . وإذا كان الشعر بعد ذلك قد دخل عليه

(١) ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام .

الزيف ، وشاع فيه الوضع ، وأثيرت حوله الشكوك والريب . فلا جرم يكون للدارس مندوحة حين ينفل تلك الأحقاب ، التى لم يساعدها تدوين ، ولم تتمكن منها رواية صحيحة .

فإذا جاء بعد ذلك إنسان ، وقال هذا شعر منسوب إلى عاد وثمود ، أو إلى طسم وجديس ، إلى آخر تلك الأسماء التى وعاها التاريخ مجردة عن آثارها ؛ وحفظها عاطلة خالية من أعمالها ، قلنا له كما قال الله جل شأنه : «وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى » .

ولقد أثر عن بعض الشعراء الأوائل من الأشعار ما يدل على أنهم تأثروا بأشعار أسلافهم ، وإن لم ترو لنا هذه الأشعار . هذا امرؤ القيس يقول :

عـوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن خـذام

فمن هو ابن خذام هذا ، وما هى تلك القصائد التى صورت دمعته ، وحملت آهته ؟
وهذا زهير يقول :

ما أرانـا نقول إلا معـاراً   أو معاداً من قـولنا مكروراً

فأين هذه الأشعار التي استعاروها ، وتلك الأخيلة والأفكار التى كرروها ورددوها ؟ .

وهذا عنترة يصيح قائلا :

* هل غادر الشعراء من متردم ؟ *

نخلص من ذلك كله إلى أن الشعر قد تهذبت حواشيه فى زمن لا نعرفه ، ولا يمكن أن نهتدى إليه ، لأن العرب لم تساعدهم كتابة ، ولم يسعفهم تدوين . وكل ما أمكن الوصول إليه تلك الأشعار التى أثرت عن أصحابها قبل الإسلام بقرن أو أكثر قليلا .

ولقـد كثر الشعراء فى الجاهلية ، حتى كان لـكل قبيلة شاعر ، يدافع عن أحسابها ، ويذيع مفاخرها ، وينطق بلسانها ، وإذا نبغ الشاعر فى قبيلة أسرعت القبائل إليها بالتهنئة .

أنواع الشعر

يرى المحدثون من أدباء الأفرنج أن الشعر ينقسم إلى أنواع ثلاثة: الشعر القصصى والشعر التمثيلى ـ والشعر الغنائى .

١ — الشعر القصصى :

فأما الشعر القصصى . فهو الذى يعتمد فى مادته على ذكر وقائع وتصوير حوادث فى ثوب قصة تساق مقدماتها وتحكى مناظرها وينطق أشخاصها .

فالشاعر القصصى قد يطوف بخيانه حادث من الحوادث تنفعل به نفسه وتتجاوب له مشاعره ويهتز إحساسه ، فيعمد إلى تصوير هذا الحادث كما تمثل لديه فى قصة ينسج خيوطها ويرسم ألوانها ويطرز حواشيها .

وقد يبتدع قصة ويخترع حادثة لترويج فكرة أوتشيع لرأى. فيختارلها الأشخاص الذين يتحدث بلسانهم وينطق بما فى نفوسهم .

والقصة دائما تعتمد على براعة الخيال وقوة الحبك وحسن الملاءمة بين المناظر ، والاحتيال فى إنطاق الأشخاص بما تختلج به جوانحهم، ويتردد فى صدورهم من الأفكار. وقد تصور القصة الأمجاد الحربية وتسجل المفاخر القومية ، وتتغنى بما مر على الأمة من بطولة وشجاعة . وتذكر أعمال الأبطال ومغامراتهم فى الحروب فتسمى حينئذ ملحمة ؛ ولابد أن تدور وقائعها حول بطل مغامر يقتحم الأهوال ويخوض المغامرات ويأتى بأعمال خارجة عن مألوف الناس وعاداتهم ثم لابد كذلك أن يكون من قوة الصوغ ونخامة الأسلوب وجمال الأداء مايلفت إليها النفوس ويجذب نحوها الأسماع .

ومن هذا النوع إلياذة هوميروس وهى ملحمة فى بضعة عشر ألف بيت متسلسلة الحوادث فى موضع واحد هو حرب طروادة مع اليونان .

والأينيادة وهى ملحمة لاتينية . نظمها فرجيل أكبر شعراء الرومان ، مقلداً بها إلياذة هوميروس .

والمهابهاراته الهندية وهى ملحمة هندية نظمها « فياسة » أحد كهان الهنود وتبلغ مائتى ألف بيت فى وصف الحروب بين الشعوب الهندية .

والشاهنامة وهى ملحمة فارسية نظمها أبو القاسم الحسن بن إسحاق الفردوسى المتوفى عام ٤١١ هـ فى تاريخ الأكاسرة وأخبارهم ووصف الحرب بين إيران وطوران .

٢ — الشعر التمثيلى :

وهو نوع من الشعر يعتمد كذلك على القصة ، وحوادثها ، ولكن لابد له من مناظر يقوم بهـــا أبطال وأشخاص يمثل كل منهم دوره ويؤدى مهمته ويبرز أمام العيون بالوقائع كما تمثلت على صفحة الحياة نابضة ناطقة ، وعماد الشعر التمثيلى الحوار والمجاذبة بين أشخاص مختلفين ، ولابد أن تصحبه مناظر يراها النظارة .

وإن اسمه ليحمل ما يرمى إليه من مدلول فهو تمثيل لمـا وقع كأنه يحدث ابتداء وقت التمثيل . دون ذكر لفظ قال أو أجاب أو نحوها .

والشعر العربى القديم وإن كان قد خلا من هذا اللون فقد حفل العصر الحديث بدرر قوية نادرة مثل كليوباتره ومجنون ليلى وقمبيز لأمير الشعراء أحمد شوقى بك .

٣ ـ الشعر الغنائى :

وهو الذى يصف به الشاعر ما يحس من خواطر وما يجيش فى نفسه من خوالج ، يحب ويبغض ويفرح ويحزن ويرضى ويغضب فيفيض قلبه بما يجد وينطق لسانه بما يشعر . ويسكب آلامه المبرحة وهمومه الدفينة وعواطفه المشبوبة فى أسلوب مؤثر ، يوقظ غافى المشاعر ويحرك كامن الإحساس .

ولعل الذين قسموا الشعر إلى قصصى وتمثيلى وغنائى ، لحظوا أبرز معنى يغلب على كل قسم . فالقصصى يظهر فيه القصص واضحا غلاباً وإن كان مما يمكن أن يتغنى به ، والتمثيلى يبرز فيه التمثيل واستعراض الحركات . والغنائى يغلب عليه الصلاحية للغناء لأنه أدب ذاتى يصف الإحساس ويصور الوجدان وإن لم يكن فى بعض صوره ومظاهره مما يصلح للغناء . وقد توجد فيه القصة ولكنها ليست من قـــوة المظهر

وا كتمال المقومات بحيث يمكن أن يسمى بها فهو إذا كان قد حمل قصة أو حكى حادثا أو صور منظراً من مناظر الحياة فذلك مما وقع له عفوا لأن سوق الكلام وتصوير ألوان النفس قد اقتضاه واستدعاه .

الشعر العربى من أى نوع من هذه الأنواع:

نقرأ الشعر العربى من لدن عصر الجاهلية ، ونستعرض قصائده، وندرس روائعه وأوابده ، فتطالعنا من ظواهره السمة الغنائية . فهو فى كل أطواره تسجيل لخلجات الأنفس ونوازعها ، وتصوير لما يحسه الشاعر من نعيم وشقاء وراحة وعناء ، وخير وشر ؛ وما يمر أمامه من صور الحياة وأحداث الوجود؛ وما يكابده من هول الصحراء، وعصف الرياح ، ولمع البروق ، وعواء الذئاب ، وخداع السراب .

فهو شعر وجدانى تبعثه الانفعالات النفسية ، وتزجيه الأحاسيس الذاتية . ومن هنا برع الشاعر العربى أشد البراعة فى كل ما يقع عليه حسه ، أو يتصل به وجدانه أو يراه بصره ، فافتن أيما افتنان فى وصف المرأة ، وتحدث فى كل مناسبة عن هيامه بها ، وحبه لها ، وأجاد فى وصف الإبل عماد رحلتهم ، وفى وصف الخيل لأنها عدتهم يوم الطعان والنزال . كما أبدع فى وصف المعارك الحربية ، وخلد بطولة الأبطال فى قصائد حية باقية .

وإن القارئ ليطالع قول طرفة يدعو إلى اللذة ، ويؤثر اللهو ، ويعلن أن الموت يستوى عنده المسرف والبخيل ، فيرى صيحة رجل أخذت عليه الشهوة أقطار نفسه إذ يقول :

نـدامای بيض كالنجوم وقينة ... تروح إلينا بـين برد ومجسد[1]
إذا نحن قلنا أسمعينا انبـرت لنا ... على رسلها مطروفـة لم تشدد[2]

---

(١) الندامى : جمع نديم . والقينة : الأمة المغنية ، تروح أى تأتينا عشية . والمجسد : الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران أو الثوب الذى يلى الجسد وهو الشعار .

(٢) على رسلها : هينة فى رفق وتؤدة مطروفة العين أى ساكنة الطرف ، أى لم تبالغ فى صياحها .

إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها ... تجاوب أظآر على ربع ردى[1]

وما زال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى[2]

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المبعد[3]

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

أرى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوى فى البطالة مفسد[4]

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد[5]

ولعل السر فى أن الشعر العربى قد خلا من اللونين القصصى والتمثيلى : أن كلا منهما يحتاج إلى الكتابة والتدوين واستقرار الحياة ، حتى يتسنى للشاعر أن يجيل فكره ، ويعمل ذهنه ويتروى فى ترتيب الأحداث، واستنطاق الأشخاص ، وتحليل الطبائع ، ودراسة النفسيات والإلمام العميق بنزعات القلوب، وخلجات الأفئدة واتجاه النرائز ، وذلك من أبعد الأشياء عن طبيعة العربى ، الذى لم تؤهله حياته البسيطة لبحث أو درس ، ولم تدعه إلى إعمال ذهن ، وكد فكر ، واكتشاف مقدمات ، وترتيب نتائج ، ولم تمكنه طبيعته من تحليل أو تعمق إنما كان يعتمد على اللمحة الخاطفة ، والخاطرة التى ينبجس بها الإحساس لأول وهلة . . ومن هنا كان يدل دائماً بالقول الموجز ، والعبارة المختصرة ، قال ابن الأثير ، فى كتابه المثل السائر : « إنى وجدت العجم يفضلون العرب فى الإسهاب، مع الاحتفاظ بالجودة؛ فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ؛ كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب

---

(١) أظآر جمع ظئر وهى الناقة المرضع. والربع الفصيل الذى ولد فى ربيع. وردى أى هالك.

(٢) الطريف : المال الذى يكسبه الإنسان بنفسه . والتليد والمتلد الذى يرثه عن آبائه .

(٣) المبعد : الأجرب المطلى بالقطران المبعد عن الإبل .

(٤) النحام : الشحيح الذى يسعل حين تطلب إليه حاجة ، والغوى : الذى يتبع هواه .

(٥) يعتام : يقصد. والعقيلة : الكريمة على الشخص من مال وغيره . الفاحش : البخيل .

المعروف بشهنامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ؛ وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه . . وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، « وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر » .

لقد نشأ شعر العربى من طبيعة نفسه ومما يتصل به من رياح متناوحة ، وسماء صافية ، وصحراء جدباء مقفرة ، فجاء لوناً واحداً ، تمثلت فيه خواطر أناس تشابهت حياتهم . وتقاربت معايشهم ، وانطوت عليهم طبيعة واحدة، تضن بالرزق ، وتفيض بألوان الحب والتراحم والتعاطف ، أو تدعو إلى النزال والقتال .

من أجل ذلك توحدت غالبا مشاعرهم ، وتجاوبت عواطفهم ، وتماثلت آمالهم وأمانيهم ، وكادت أن تتماثل أخيلتهم وألفاظهم ومعانيهم ، تستبين ذلك فى وقوفهم على الأطلال ، وبكائهم الديار والآثار ، وذكرهم من أقاموا ثم تحملوا ، واستقروا ثم ارتحلوا ، حتى كادت بعض تعابيرهم أن تتشابه إلى حد بعيد ، وحتى رأينا امرأ القيس يقول :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون : لاتهلك أسى وتجمل

ويجىء طرفة فيقول :

وقوفا بهـا صحبى على مطيهم ... يقولون : لاتهلك أسى وتجلد

ولذلك صح عندهم أن يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معـــاراً ... أو معاداً من لفظنا مكرورا

وأن يقول عنترة :

* هل غادر الشعراء من متردم ؟ *

على أن العرب لم يفتهم أن يتخيلوا فى شعرهم مايصح أن يكون بين المحبين من وصل وصد ، وتقارب وتباعد ، وأسباب الإغراء ، وعوامل الإثارة ، فاخترعوا لذلك أقاصيص وحكايات نبض بها شعرهم ، وانطوت عليها بعض قصائدهم ، والذى يقرأ

شعر امرىء القيس ، أو يستعرض ديوان عمر بن أبى ربيعة ، يلمح فيه من ذلك ألواناً طريفة جميلة .

وهم كذلك لم ينب عنهم أن يسجلوا وقائعهم فى الحروب ، ويخلدوا مواقفهم فى القتال ، فنطقت بذلك أشعارهم ونضحت قصائدهم ، وإن اختلف نهجهم ، وغايرت طريقتهم طرائق شعراء القصص والملاحم .

ولقد تحدث أمثال عنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والمهلهل فى أشعارهم عن الحروب ، وما يتمثل فيها من شجاعة وبطولة ، ولكن هؤلاء وأولئك لايصح أن يسلكوا ضمن شعراء الملاحم والقصص ، لأنهم كانوا يصفون وجدانهم وإحساسهم ، وقد جاءهم ذلك عفواً دون أن يقصدوا إلى وضع قصة أو يعمدوا إلى تصوير ملحمة .

ولعل السر فى اعتبار هذا اللون من الشعر بالغنائى أن منشأه فى الأصل الرغبة فى التغنى بما يعتلج فى الصدر من هم ، أو يطوف بالنفس من رغائب .. ثم كان للعرب من حداء الإبل ليستخفها الطرب ، ويأخذ منها النغم ، فتهتز وتنشط ، حافز أى حافز على الغناء ، ومن هنا كانوا يطلقون على إلقاء الشعر إنشاداً ، وكان كثير من الشعراء القدماء يتغنون بشعرهم ، ولقد قيل إن هوميروس صاحب الإلياذة لم يكن يلقى أشعاره إلقاء ، بل كان يتغنى بما يحفظه من قصص الأبطال . . ولقد قيل إن كلمة « شعر » العربية مأخوذة من كلمة شير العبرية بمعنى الترتيلة أو التسبيحة[1] . . وفى أخذهم السجع من هديل الحمامة ، والرجز من إيقـــاع مشى الناقة ، وقولهم : أنشد فلان قصيدته ؛ ما يدل على أن الشعر مصدره الغناء .

والخلاصة أن لون الشعر العربى عامة والجاهلى خاصة من ألوان الشعر الثلاثة غنائى ، أما القصصى والتمثيلى فلا أثر لهما فيه ، والسبب فى ذلك هو :

١ — أن مزاولة هذين اللونين من الشعر تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال .

---

(١) ١٩ ج ١ فجر الإسلام .

٢ — وأنهما يتطلبان الإلمـام بطبائع الناس ، وقد شغل العرب بأنفسهم عن دراسة النفوس والتفرغ لتحليل طبائع الناس.

٣ — وأنهما يفتقران إلى التحليل والتطويل ؛ والعرب أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم استقصاء فى البحث .

٤ — وأنهما يحتاجان إلى كثرة الأساطير ، ولم تتوفر هذه الكثرة للعرب .

٥ — على أن قيود الوزن والقافية فى الشعر العربى لا تساعد على الإطالة وإنشاء الملاحم الطويلة .

٦ — وعلى أن الشعر القصصى والتمثيلى يحتاجان إلى تدوين وكتابة لأنهما لونان من ألوان التدوين والحضارة، والعربى فى الجاهلية لم يكن يعرف هذه الوسائل، وكان بعد العصر الجاهلى محتذيا للقدامى فى مناهجهم الأدبية وألوان شعرهم الفنية .

على أن الشعر العربى لايعيبه أن ليس فيه هذان اللونان، فقد جال بلونه الغنائى فى كل ميدان ، وضرب بسهم فى كل غرض ؛ وتحدث عن خفى العواطف ودقيق المشاعر ، ووصف الحرب وأبطالها .

ولو أن العرب اهتدوا إلى هذين اللونين لأجادوا فيهما غاية الإجادة.

وفى العصور الحديثة نجد شوقيا وغيره من الشعراء المحدثين ينظمون التمثيليات المختلفة التى منها عنترة وكليوباترة ومجنون ليلى وغيرها .

الشعراء المدّاحون

كان الشعر العربي ينبع دائما من طبع الشاعر ، ويتفجر من إحساسه ، لاتتحكم فيه صنعة ، ولا تستبد به كلفة ، ولا يعمد صاحبه إلى تنقيح أو تجويد ، ليكتسب رضا كبير ، أو يصل إلى عطف عظيم ، إذ هو رجل معدود فى أشراف الناس ، يضعونه فى موضع الرياسة والتعظيم ، وهو لايقول الشعر إلا استجابة لإحساسه وانقياداً لعاطفة يشتعل بها خاطره .

قال ابن رشيق[1] : كانت العرب لاتتكسب بالشعر ، وإنما يصنع أحدهم مايصنعه ، فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر ، إعظاما لها ، كما قال امرؤ القيس يمدح بنى تيم رهط المعلى :

أقر حشا امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه ، وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بنى أبيه الذين قتلوا بدير مرينا ، فقيل لبنى تيم مصابيح الظلام من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس .

فلما شعر الكبراء والقادة بأن مظاهر سيادتهم ، ودلائل عظمتهم ، تستدعى أن يكون هناك شاعر يعلى من شأنهم ، ويرفع من أقدارهم ، ويذيع مفاخرهم ، ويلبسهم من شعره حللا فضفاضة من الإجلال والمهابة ، أخذوا يقربون الشعراء ويغدقون عليهم العطايا السنية ، والهبات الجزيلة .

وبدأ الشعراء يتسابقون فى هذا السبيل ، دون ما تحرج ، أو حفاظ على ما اكتسبوا من عظيم المنزلة ، ورفيع الدرجة ؛ ولقد نشأ النابغة الذبيانى فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة ، مما صار إليه من عطاء الملوك .

وتكسب زهير بن أبى سلمى بشعره حين قبل عطايا هرم بن سنان ، حتى حلف لايمدحه زهير ولا يسلم عليه إلا أعطاه ، وخجل زهير من كثرة ما أخذ ومن طول ما أغدق عليه ، فكان يمر بالقوم ويقول عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت .

(١) ص ٦٤ ج ١ العمدة .

ولقد سأل عمر بن الخطاب ابنة زهير : مافعلت حلل هرم التى كساها أباك ؟ فقالت أبلاها الدهر . قال : ولكن ما كساه أبوك هرما لم يبله الدهر .

وجاء الأعشى فامتهن الشعر ، وابتذل جلاله ، وجعله وسيلة إلى كسب قوته وانتجاع رزقه ، وقصد به ملوك العرب والعجم .

وألح الحطيئة فى التكسب بالشعر . حتى لم يترك أحداً لايرجى منه نفع إلا مدحه طمعاً فى نواله؛ أو هجاه يأساً من عطائه .

ولئن كان الشعراء يمدحون الملوك . ويزدلفون إلى الرؤساء استدراراً لما عندهم من منح . فإن الحطيئة على جلالة شعره وعظم منزلته فيه لم يأنف من أن يقصد العامة ويسترفد أطراف الناس وغمارهم .

هنا يأخذ الشعر سمتاً جديداً ويتسم بطابع لم يكن له من قبل؛ ذلك أن الشاعر الذى كان ينطق عفو الخاطر ، ويستوحى ما يمر به من صور وما يؤثر فى نفسه من أحداث ومناظر أخذ يشحذ همته ويصقل ذهنه ، ويراجع فكره ، ويهذب بيانه ، ويجود فيما تفيض به شاعريته من ألوان القول ليكتسب رضا الممدوح ويصل إلى ما يريد من نفسه حتى قيل إن زهيراً كانت له قصائد تسمى الحوليات لأنه ينشئها ثم يراجعها ثم يعرضها فى حول كامل حتى ترضى بها نفسه ويسكن إليها خاطره ، وبذلك قيل لهؤلاء المجودين: عبيد الشعر .

وكما تأثر جوهر الشعر حين جعله الشعراء سلماً إلى الأغراض المادية وذريعة إلى المنافع الشخصية، كذلك تطامنت منازل الشعراء وغض هذا التكسب من أقدارهم فانصرف عنه كثير من رؤسائهم وأنفوا من قوله ، وإن ظلوا يرهبون سلطانه ويفرقون من سوطه ويضعونه الموضع اللائق به .

قال صاحب العمدة : « كان الشاعر فى مبتدأ الأمر ، أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر ، وشدة المعارضة ، وحماية العشيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه من قبيلته . فلما تكسبوا به ، وجعلوه طعمة وتناولوا به الأعراض ، صارت الخطابة فوقه »[1] .

(١) العمدة جـ ١ ص٦٦ .

رواية الشعر ورواته

روايته :

كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظاً وأقواهم حافظة ، ولم تكن الكتابة مما يعتمدون عليها فى نظامهم الاجتماعى، ومن ثم لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية فى ديوان أو سفر ، وإنما كان محفوظاً فى الصدور تعيه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواة العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ولكن لا عجب ، فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع .

ولقد كان الأصمعى – وهو من مشاهير الرواة فى العصر العباسى – يقول: مابلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ، ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

لخلف الأحمر ، نحلها ابن أخت تأبط شرًّا ، وكذا كان يفعل حماد يحقق الشعر القديم ويقول : ما من شاعر إلا قد حققت فى شعره أبياتاً فجازت عنه إلا أعشى بكر فإنى لم أزد فى شعره غير بيت(1). ويقول المفضل : سلط على الشعر من حماد ما أفسده، ورغم هذه الرواية والحافظة القوية فقد ضاع الكثير من الشعر العربى الجاهلى وغيره، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير(2) .

وأصيب الشعر العربى مع الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من بعض الرواة ، لأسباب كثيرة ، منها العصبية أو الرغبة فى تفادى الإحراج أو سوى ذلك .

(١) راجع ٤٠٢ : ٣ العقد .   (٢) ٢٩٤ : ٢ المزهر .

ولكن النقاد اهتموا بتمييز الصحيح من المنحول ونبهوا على الكثير من المختلق ، وألفوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما صح من الشعر الجاهلي والآثار الأدبية الأخرى .

رواته :

كان لكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشده، ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه في القريض ، فكان امرؤ القيس : راوية أبي دؤاد الإيادي . وزهير : راوية أوس ابن حجر ، والأعشى : راوية المسيب بن علس ، كما كان الحطيئة رواية زهير . .

واشتهر من قريش أربعة بأنهم من رواة الأشعار وعلماء الأنساب وهم : مخرمة ابن نوفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب .

ثم تعدد رواة الشعر من بعد وكان من أبرزهم :

١ ـ أبو عمرو بن العلاء البصري م سنة ١٥٤ وله روايات ولم يترك مؤلفات[١] .

٢ ـ حماد الراوية (٧٥ ـ ١٥٦ هـ) كوفي ، وليس له مؤلفات[٢] . ويقول فيه ابن سلام : وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية وكان غير موثوق به ، ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب .

٣ ـ الخليل بن أحمد (بصري) ـ (١٠٠ ـ ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض .

٤ ـ خلف الأحمر (بصري) توفي سنة ١٨٠ هـ وليس له مؤلفات ، ونقل عن السيوطي أنه ألف كتاب الجبال وما فيها من شعر ، وله ديوان خاص . وقيل إنه صاحب لامية العرب[٣] المنسوبة للشنفرى .

٥ ـ يونس بن حبيب البصري المتوفى سنة ١٨٢ هـ .

٦ ـ المفضل الضبي المتوفى ١٨٩ هـ (كوفي) وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب في كتاب (المفضليات) وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

(١) الفهرست ٤٢ . (٢) الفهرست ١٣٤ . (٣) الصناعتين ٤ .

٧ ـ أبو عبيدة (بصرى) المتوفى ٢٠٩ هـ وله مؤلفات فى اللغة ومجاز القرآن ، والنقائض.

٨ ـ الأصمعى البصرى ـ المتوفى ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات فى اللغة ، وكتاب الأصمعيات ، طبع أوربا ، وكتاب فى الكروم والنخيل .

٩ ـ محمد بن سلام الجمحى ـ المتوفى ٢٣١ هـ وله طبقات الشعراء وغريب القرآن[1] .

١٠ ـ النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١١ ـ مؤرج السدوسى المتوفى سنة ١٩٥ هـ .

١٢ ـ ابن الكلبى هشام بن محمد المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١٣ ـ الهيثم بن عدى (كوفى) ـ وله مؤلفات . وتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

١٤ ـ أبو زيد الأنصارى المتوفى ٢١٦ هـ ثقة ، وله مؤلفات .

١٥ ـ أبو عبيد بن القاسم المتوفى سنة ٢٢٣ .

١٦ ـ ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ كوفى ثقة وله مؤلفات .

الرواة بين التوثيق والتجريح :

إذا كان من الملاحظ فى العصر الجاهلى أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإنه قد لوحظ فى العصر الإسلامى ظهور طائفة من الرواة لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس .

فإذا امتد بنا السير إلى نهاية العصر الإسلامى ومطلع العصر العباسى وجدنا طبقة من الرواة المحترفين الذين اتخذوا رواية الشعر الجاهلى عملا أساسياً لهم ، وهؤلاء الرواة لم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها .

(١) الفهرست .

ومع حرص كثير من الرواة على هذا الشعر الجاهلى والحفاظ عليه لأنه سجل حياتهم ومظهر أمجادهم ومفاخرهم . . مع هذا الحرص فقد سقط منه الكثير فى أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمنى الطويل . . وفى ذلك يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ،راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقـــد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل من ذلك وذهب عليهم منه كثير »[١] .

ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى نجد هؤلاء الرواة قد كوّنوا مدرستين متقابلتين : هما مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، وعرف الأولون بتشددهم فى الرواية دون الآخرين ، ومن هنا تضخمت الروايات ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الغريب ما ذكر من أن الكوفة عرفت فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال ، حتى إن مالك بن أنس كان يسميها (دار الضرب) يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تضرب الدراهم والدنانير وتصنع ، وفى ذلك يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر الكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بيّن فى دواوينهم »[٢] .

ولقد ندد البصريون بالكوفيين ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد . فكان كل منهما يشكك فى الآخر ، فبينما يفتخر البصريون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيين فى هذا الميدان شيئاً وأن الأمر بالعكس ، يدعى الكوفيون أن الأصمعى وأبا عبيدة (وهما من أبرز البصريين الرواة) لا يحسنان قليلا ولا كثيراً[٣] .

ومع هذه الاتهامات والادعاءات المتبادلة بين البصريين والكوفيين فإن الواضح

---

(١) ابن سلام ص ٢٢ وراجع العصر الجاهلى د . شوقى ضيف ص ١٤٠ — ١٤٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤ وراجع العصر الجاهلى وشوقى ضيف ص ١٤٩ .

(٣) راجع مصادر الشعر الجاهلى د . ناصر الدين الأسد ٤٢٩ — ٤٣٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م .

أن رواية البصرة فى جملتها أوثق من رواية الكوفة ، وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة فبين الطرفين جميعا متهمون ، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى . وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها ـ وهو أبو عمرو بن العلاء ـ كان أمينا ، بينما اتهم رأس رواة الكوفة ـ حمادا ـ بكثرة الوضع ، فهو لا يوثق به فيما يرويه[1] .

ولم يترك علماء الرواية الميدان خاليا من جهودهم ، فقد قاموا يميزون بين الأصلى الخالص والدخيل ، وهذا هو (المفضل الضبى) يدلى بدلوه فى مجال الرواية ، ويروى ابن الأعرابى الكوفى عن المفضل أنه قال : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ فقال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »[2] .

وإذا كان المفضل قد تصدى لأمثال حماد الراوية الكوفى ، فإن الأصمعى قد تصدى كذلك لأمثال خلف الأحمر البصرى وسدد إليه سهام الاتهام ، وأنه « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعا كثيراً وعلى غيرهم عبثاً بهم فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة »[3] وبهذا يبرز دور العلماء مع الرواة بين التوثيق والتجريح . . .

---

(١) راجع العصر الجاهلى ص ١٥٢ .
(٢) الأغانى ٨٩٦ ومعجم الأدباء ١٠ ـ ٢٦٥ ، العصر الجاهلى ص ١٥٢ .
(٣) مراتب النحويين ص ٤٧ .

تدوين الشعر الجاهلي :

ثبت أن العرب لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية وإنما كانوا ينشدونه إنشاداً ، اعتماداً منهم على سرعة البديهة وقوة الذاكرة ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام فما هو إلا أن ينصرف (العربى) وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد . فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه »[١] .

وظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام،حتى مصرت الأمصار وراجعت العرب الأشعار ، وأخـــذت فـكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، وتقييد بعض الأخبار التاريخية ، وقد يكون فى تدوين الحديث ما يرشد عن تدوين الشعر فلقد كان كثير من الصحابة والتابعين ينـكرون فـكرة التدوين ، ومن هنا يمكن القول بأن التدوين لم يكن عاما إلا على رأس المائة ، وأن اهتمام القبائل بشعرها الجاهلى وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها ونخرها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها ، كل ذلك كان من أهم الدواعى لتدوين هذا الشعر ولـكنه لم يدون إلا فى حقبة متأخرة من عصر بنى أمية[٢] ثم بلغ ذروته فى عصر بنى العباس .

أهم المجموعات التى دوّن فيها الشعر الجاهلى :

كانت المدونات الشعرية الأولى قد وصلت إلى علماء الطبقة الأولى من الرواة ، فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم ثم تناولت هذه المدونات منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل .

ومن أول هذه المجموعات التى تعد من أهم مصادر الشعر الجاهلى : المعلقات ، ويقال إن أول من رواها مجموعة فى ديوان خاص بها : حماد الراوية، وقد عنى الشراح

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٨ ، العصر الجاهلى ص ١٥٨ .

(٢) راجع العصر الجاهلى ١٥٩ .

بهذه المجموعة فشرحوها مراراً، وطبع من شروحهم شرح الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦هـ ثم شرح التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ . وغيرهما من الشراح وكان حماد الراوية قصد اختار لهذا الديوان سبع قصائد من عيون الشعر وسماها بالسموط أو المعلقات دلالة على على نفاستها ونقاء جوهرها ، وهذه القصائد هى معلقات امرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم ، وهذه هى القصائد المتفق على أنها من المعلقات ، والسادسة والسابعة : قصيدتا عنترة والحارث بن حلزة ، وقد وضع المفضل مكانهما قصيدة النابغة التى مطلعها :

عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وقصيدة الأعشى التى أولها :

ما بكاء الكبير بالأطلال   وسؤالى وما ترد سؤالى

وشعراء هذه المعلقات هم أشعر شعراء الجاهلية ما عدا الحارث بن حلزة ويقال إن السبب فى ضم قصيدته إلى هذه المجموعة عصبية حماد لقبيلته بكر بن وائل ، وكانت هذه القبيلة فى عداء دائم مع قبيلة تغلب ، وقد شهرت قصيدة عمرو بن كلثوم شهرة واسعة لتمجيدها قبيلة تغلب ، ولانتشار هذه القصيدة بين الناس وفى المجتمعات والأندية لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ، ومن هنا وجد نفسه مضطراً لاختيار قصيدة أخرى إلى جانبها تشيد بمجد سادته وهم قبيلة بكر بن وائل ، وهكذا اختار قصيدة سليل هذه القبيلة وشاعرها وهو الحارث بن حلزة القليل الشهرة فيما عدا ذلك[1] .

وهناك من يجمل هذه المختارات تسعا ، بإضافة القصيدتين اللتين اختارهما المفضل إلى السبع التى اختارها حماد، وهناك من يجعلها عشرا بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص التى أولها :

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

---

(١) تاريخ الأدب العربى . كارل بروكلمان جـ ١ ص ٦٨ ، الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام للدكتور عبد الحميد المسلوت ص ٢٠١ .

والمجموعة الثانية من هذه المنتخبات هى المفضليات ، نسبة إلى جامعها : المفضل الضبي . راوى الكوفة الثقة، وهى موزعة على سبع وستين شاعراً منهم سبع وأربعون جاهليا وعلى رأسهم : المرقشان الأكبر والأصغر ، وعلقمة بن عبدة ، والشنفرى ، وتأبط شرا ، والحارث بن حلزة ، وبشر بن أبى حازم وغيرهم .

والمجموعة الثالثة : الأصمعيات، نسبة إلى الأصمعى راويها، وقد نشرها (الوارد) عن نسخة سقيمة فى برلين سنة ١٩٠٢ م وأعاد نشرها عبد السلام هارون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطى نقلها عن أصل قديم ، وهى نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، موزعة على واحد وسبعين شاعراً ، منهم نحو أربعين جاهليا على رأسهم امرؤ القيس .

وهذه المجموعة كسابقتها (المفضليات) فى الثقة بها وعلو درجتها ، غير أنها لم تحظ بتعلق الشراح بها كالمفضليات ، لأنها كانت أقل اشتمالا على الغريب ، ولأن الأصمعى عمد فيها إلى اختصار الرواية[1] .

والمجموعة الرابعة : جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا يوجد اسمه بين الرواة المشهورين، وهذه الجمهرة تضم تسعا وأربعين قصيدة طويلة، موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم منها سبع قصائد . والقسم الأول منها خاص بالمعلقات .

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة ، وجدنا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة ، وقد نشرها (الوارد) إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعى التى احتفظ بها فى شرح (الشنتمرى) بل أضاف إليها زيادات هى فى الأكثر منحولات .

ومن الكتب الجيدة التى تشتمل على شعر جاهلى كثير . . شرح النقائض لأبى عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذى قيل فى أيام العرب ، وحذا حذوه من كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله ، وابن عبد ربه فى عقده .

(١) العصر الجاهلى د . شوقى ضيف ص ١٧٦ ، الأدب العربى د. عبد الحميد المسلوت ص ٢٠٢

ومن الكتب الجيدة كذلك: طبقات الشعراء لابن سلام، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وهناك كتب ألفت فى البصرة مثل : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد والأمالى لأبى على القالى والأخير فيه انتحال كثير .

ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة : كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وكذا كتابه الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء .

وهناك أشعار جاهلية كثيرة فى كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة ، والصناعتين للعسكرى، والوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى، والعمدة لابن رشيق ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ويعد من أهم هذه المراجع .

ومن الكتب المتأخرة التى احتفظت ببعض ما فقد من الروايات القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة ، ومثل هذا الاتجاه فى شرح السيوطى على شواهد المغنى لابن هشام[1] .

---

(١) يراجع فى هذا البحث : مصادر الشعر الجاهلى د . ناصر الدين الأسد ص ٥٧٣ وما بعدها ، العصر الجاهلى د . شوقى ضيف ص ١٨٢ ، تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان جـ ١ ص ٦٧ — ٨٦ .

نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى

— ١ —

كتاب فى الشعر الجاهلى للدكتور طه :

فى عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦ م كان الدكتور طه حسين ـ رحمه الله ـ عضوا فى هيئة التدريس فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ـ جامعة فؤاد الأول ـ ثم جامعة القاهرة فيما بعد ـ وكان يقوم بتدريس مادة « تاريخ الأدب العربى » .

وفى العام نفسه أصدر كتابه المشهور « فى الشعر الجاهلى » ، الذى طبع فى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة فى ١٨٣ صفحة .

وأثار الكتاب ضجة أدبية وسياسية كبيرة كان لها أثرها الضخم فى الحياة الأدبية والفكرية ؛ ومن غير شك كان الكتاب أساسا للدراسات الأدبية الحديثة . بل إننا نعدّه بدء مرحلة جديدة فى دراسة الأدب العربى . ولقد عزّز الكتاب المنهج الحديث الاستشراقى فى دراسة الأدب ونقده ، وفتح الباب على مصراعيه لتأثر كبير فى مجال الدراسات الأدبية بالمناهج الجديدة ؛ وقد صدر فى نقد الكتاب كتب كثيرة ، كان فى مقدمتها :

١ ـ النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى .

٢ ـ الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفى جمعة ـ صدر عام ١٩٢٦ .

٣ ـ نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر فيما بعد ـ وقد صدر عام ١٣٤٥ هـ عن المطبعة السلفية فى القاهرة .

٤ ـ محاضرات فى بيان الأخطاء التى اشتمل عليها كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضرى ـ نشرت فى مجلة القضاء الشرعى .

٥ ـ نقد كتاب « الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى ـ طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر ـ فى أكتوبر ١٩٢٦ .

٦ ـ نقض مطاعن فى القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة .
٧ ـ الشعر الجاهلى والرد عليه لمحمد حسين .
٨ ـ مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين ، للشيخ عبد المتعال الصعيدى .
٩ ـ نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى ـ للدكتور عبد الحميد المساوت .

وعرض لنظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى كثيرون من دارسى الأدب الجاهلى ـ وفى مقدمتهم الدكاترة : محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى »[1] ، ناصر الدين الأسد فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى » ، وشوقى ضيف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى ـ العصر الجاهلى » ـ كما عرض لها كتاب كثيرون نشروا بحوثهم فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية .

ولاشك أن هذه الموجة الضخمة من الكتب التى صدرت فى دراسة الكتاب والتعليق عليه ونقده ، كانت اعترافا بأهمية الكتاب وأثره ومدى ما أثاره من قضايا أدبية تاريخية .

وقد صودر كتاب « فى الشعر الجاهلى » وطبع من جديد بعنوان « الأدب الجاهلى » بعد حذف فقرات منه كانت هى السبب الجوهرى فى مصادرته : وهذه الفقرات كانت عن قصة إبراهيم وإسماعيل ، حيث ذهب الدكتور طه إلى أنها « قصة متكلفة ومصنوعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية ورأى أن ورودها فى الكتب الدينية لايكفى لإثبات صحتها التاريخية »[2] . وكانت هذه الفقرات بمثابة التحدى ، بل كانت مجازفة جريئة فى ميدان البحث العلمى أيضاً . . وقد سبق أن جهر بعض المستشرقين بهذا الرأى من قبل ، وذلك من مثل « القس زويمر » الذى ترجم إلى العربية كتاب « مقالة فى الإسلام » لمؤلفه جرجيس صال الأنكليزى ، وألحق به ذيلا ردّد فيه (فى ص ١٠ ـ ٢٥) القول بأن قصة

---

(١) ص ٣٨٩ ـ ٤٠٤ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ـ طبعة ١٩٤٨ .
(٢) ٢٥ ـ ٢٩ فى الشعر الجاهلى .

إسماعيل وسكناه مكة دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب ، تزلفا إليهم ، وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت القدس أو إلى تأسيس مملكة لهم فى بلاد العرب . ولما ظهر الرسول محمد رأى المصلحة فى إقرارها فأقرها[1] . هكذا قال زويمر وهو مبشر معروف فى الأوساط التبشيرية .

إن كتاب الأدب الجاهلى يمثل كل آراء ونظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلى ، ويحتوى على نظرية الانتحال التى ذهب إليها ؛ وعرضها بتفصيل ، مبينا أدلتها ونتائجها التطبيقية ، حيث أفاض الدكتور فى شرح ذلك كله إفاضة واسعة .

— ٢ —

شرح الدكتور طه لنظريته فى الانتحال :

يرى الدكتور طه حسين أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء إنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ؛ وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على شىء . والعصر الجاهلى القريب من الإسلام إنما يمثله القرآن ، وتمثله الأساطير[2] ؛ وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول فى تفسير القرآن ، بل يجب العكس[3] . والشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، والقرآن يمثل لنا حياة دينية وعقلية قوية ، مما كان عليه المستنيرون من العرب ؛ ويمثل لنا القرآن الكريم أيضاً اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية ، من حيث يخلو الشعر الجاهلى من ذلك كله[4] . والأدب الجاهلى أيضاً لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة

(١) النص عن كتاب مع زعيم الأدب العربى ص ٢٥ — ٤٨ .

(٢) ٦٤ و ٦٥ و ٧٠ الأدب الجاهلى . (٣) ٦٦ المرجع نفسه .

(٤) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلى .

العدنانية ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام، كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين[1] . كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ، ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ؛ وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام[2] .

ثم يجمل الدكتور طه حسين فى كتابه أسباب انتحال الشعر الجاهلى ، فيذكر البواعث الدينية والسياسية ، وأثر القصّاص والشعوبية والرواة فى هذا الانتحال[3] .
ثم يستعرض الشعراء ، مؤكدا ما ذهب إليه من أن أكثر مايضاف إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين منحول ، رافضا الشِّعرَ المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش، ويقول: إن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، فالشعر الذى يضاف إلى « جرهم » وسواهم من الذين عاصروا إسماعيل منحول ، وليس لليمن فى الجاهلية شعراء . أما ربيعة وهى من عدنان ، وتسكن فى الشمال، فشعرها دون شعر المضريين، وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا ، فالشعر أصل فى مضر دون اليمن أو ربيعة ، فنظرية تنقل الشعر فى القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان فى مضر ، ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها، وهم ربيعة ، ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ، ثم إلى الموالى وليس كما يقول علماء العربية من أن الشعر كان فى اليمن ، ثم انتقل إلى ربيعة، ثم إلى قيس من مضر، ثم إلى تميم، وشعراء المدينة ليسوا يمنيين ، بل هم مضريون[4] .

إن جملة آراء الدكتور طه حسين ترتكز على أساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلى ، وتأكيد هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، أهمها :

---

(١) ٨١ ـ ٩٥ المرجع نفسه .   (٢) ٩٦ وما بعدها المرجع نفسه .
(٣) ١٢٢ ـ ١٨٦ الأدب الجاهلى .
(٤) راجع ١٩٢ ـ ٢٠٨ الأدب الجاهلى للدكتور طه .

١ ــ أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهليين لا يمثل الحياة الجاهلية .

٢ ــ وأنه لا يمثل اللغة نفسها .

٣ ــ كما أنه لا يمثل اللهجات العربية .

هذه هى نظرية الدكتور طه فى انتحال الشعر الجاهلى كاملة ؛ وهى نظرية كان لها دويها الشديد ، وكان لها كذلك طابع الثورة العقلية ، التى استمد أصولها الدكتور من دراسته فى فرنسا ، وعلى أيدى الكثير من المستشرقين ، وقد اعتمدت على ما تعتمد عليه مثل هذه الثورة من أدلة خطابية كثيرة لا تستند إلى أساس علمى صحيح .

— ٣ —

نظرية الانتحال قبل الدكتور طه :

وبلا ريب فإن لهذه النظرية مقدمات طويلة كانت هى مصادر الدكتور طه فيما ذهب إليه حولها :

١ ــ فالمفضل الضبى (١٨٩ هـ) كما روى أبو الفرج فى كتاب الأغانى يذكر عن حماد أنه « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »[1] .

ويروى أبو الفرج أن حمادا (١٥٥ هـ) اعترف فى مجلس الخليفة المهدى العباسى بأنه زاد فى شعر زهير ، وأن خلفا الأحمر (١٨١ هـ) وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجودا فى الجاهلية وكذبوا على الشعراء[2] .

---

(١) الأغانى لأبى الفرج ٥/١٧٢ ــ طبعة الساسى .

(٢) المرجع السابق أيضا ــ وقد سبق إلى ذكر ذلك محمد لطفى جمعة فى « الشهاب الراصد » ص ٢٥ و ٢٦ ــ ويذكر ذلك د . المسلوت فى كتابه « نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى » أيضا ص ٧١ و ١٩٣ و ١٩٤ وينفى رواية أن حمادا جلس فى مجلس الخليفة المهدى ، لأن هذا الخليفة لم يجلس على عرش الخلافة إلا عام ١٥٨هـ ، بينما توفى حماد عام ١٥٥هـ فى رواية ابن خلكان ، أو عام ١٥٦هـ فى رواية ابن النديم فى « الفهرست » وقد ذكر ذلك نقلا عن الخضر حسين فى كتابه « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ص ٢٧١ .

٢ ـ ويعد محمد بن سلام الجمحي البصري (٢٣١هـ) من قدامى الذين عرضوا للشعر الجاهلي وانتحاله في كتابه « طبقات الشعراء » ، فقال[١] : « وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير ، لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج، ولامثل يضرب، ولامديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب، ولانسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » . ويذكر ابن سلام أن ما حمل على طرفة وعبيد بن الأبرص من الشعر كثير[٢] . ويرجع سبب الانتحال إلى : غفلة العلماء أو جهلهم بوضع الشعر وانتحاله ، أو اختلاط الأمر على بعض الرواة ، أو محاولة بعض القبائل إلى التزيد من الشعر الذي قيل في مآثرها، أو كذب الرواة وتلفيقهم رغبة في الجوائز؛ على أن أبا عبيدة (١٠٨ هـ) ، والمفضل (١٨٩ هـ) ، والأصمعي (٢١٦ هـ) كانوا من ذوي العناية والتدقيق والضبط ، وكان حماد (١٥٥ هـ) من موالي بكر ، ولم يمنعه ذلك من رواية معلقة عمرو بن كلثوم في مفاخر قبيلة تغلب ، وكما نعلم فإن تغلب وبكرا كانا في الجاهلية من أشد الأعداء بعضهما لبعض .

يثبت محمد بن سلام إذاً الانتحال ، ويرجعه إلى أسباب معقولة ، ولا يسرف في أمر هـــذا الانتحال ، فيجعله في مواضع خاصة لايتعداها ، ومناسبات معينة لا يتجاوزها .

٣ ـ وابن هشام (٢١٨ هـ) صاحب السيرة يذكر الكثير من المنحول على حسان وغيره من شعراء الرسول والسيرة .

٤ ـ وكذلك يذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه « الأغاني » الكثير من المنحول على الشعراء القدماء والمحدثين .

---

(١) ص ٦ من مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » بتحقيق الأستاذ محمود شاكر .

(٢) ص ٢٢ المرجع نفسه .

٥ ـ وعرض مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب العرب » المطبوع عام ١٩١١ للانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه عرضاً تفصيلياً[١] .

٦ ـ وكذلك عرض الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » لأصول نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه ، مستدلا بكلام ابن سلام ، وسائرا فى ضوئه[٢] .

٧ ـ وممن أثار البحث فيها من المستشرقين : « نولدكه » ، « ورينيه بسِّيه » عميد كليـــة الآداب بجامعة الجزائر سابقا ، فى رسالة له عنوانها « الشعر العربى الجاهلى » طبع باريس عام ١٨٨٠ ؛ وكذلك « نيكلسون » فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية »[٣] .

٨ ـ وذهب «مرجليوث» إلىأن الشعر الجاهلى منحول كله بعدالإسلام، وأضيف إلى أسماء جاهلية[٤] ، ويقول : إن فى لغة القرآن مشابه كثيرة من لغة الشعر الجاهلى[٥] . كما يرى أن الشعر الجاهلى فى معظمه مصنوع ، وضع على مثـــال القرآن[٦] . وقد أكد ذلك فى مجلة الجمعية الآسيوية الملـكية عام ١٩١٦[٧] . وقد تصدى للرد عليه السير « تشارلس جيمس ليال » فى مقدمة ترجمة « المفضليات للإمام المفضل الضبى ـ ١٨٩ هـ » المطبوعة عام ١٩١٨ ثم عاد مرجليوث وكتب فى مجلة الجمعية الآسيوية الملـكية عام ١٩٢٥ مقالا ذكر فيه أدلته على انتحال الشعر الجاهلى[٨] .

---

(١) ٣٦٥ ـ ٣٨٥ تاريخ آداب العرب للرافعى .

(٢) ٥٠ ـ ٦٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف ـ ط ١٩٢١ بالقاهرة .

(٣) ص ١١٣ و ١٢٨ و ١٣١ ـ ١٣٥ طبعة عام ١٩١٤ .

(٤) مادة محمد من دائرة معارف الأديان والعقائد .

(٥) كتاب محمد وظهور الإسلام لمرجليوث ، المطبوع عام ١٩٠٥ .

(٦) راجع ص ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلى .

(٧) ص ٣٩٧ ـ راجع ص ١٧ من كتاب نقض كتاب فى الشعر الجاهلى للشيخ الخضر حسين .

(٨) ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلى ، ١٧ نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » الخضر حسين ، ٧٥ نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى للمسلوت .

هذه هى جملة الآراء التى قيلت عن انتحال الشعر الجاهلى قبل أن يصدر الدكتور طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، ويتبنى هذه النظرية ويفصلها ، ويتوسع فى ذكر أدلتها فى كتابه «الأدب الجاهلى».

— ٤ —

أهم أدلة الدكتور طه على نظريته:

أولا : لا يمثل الشعر الجاهلى حياة الجاهليين الدينية ، ولا العقلية ، ولا يصور لنا ما كان بينهم وبين غيرهم من الأمم المجاورة لهم من صولات سياسية ولا يصور لنا حياة العرب الاقتصادية[١] .

وقد يكون رأى نولدكه المستشرق المعروف مناقضا كل المناقضة لرأى الدكتور طه ، حيث ذهب إلى أن السبع الطوال أو المعلقات خالية بالتأكيد من التزييف أو التزوير فلا يشك فى صحتها .

ويؤكد رينان[٢] صحة الشعر الجاهلى وثبوت صدقه بلا قيد ولا حصر ، فإن المعلقات وديوان الحماسة وكتاب الأغانى وديوان الهذليين قد قبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة فى معناها ومبناها لبعث محمد ، أى أن العلماء أقروا صحتها شكلا وموضوعاً ، وأقروا انحدارها إلينا من العهد المتقدم على الإسلام ، أما فيما يتعلق بالمعانى فلا يجوز الشك فيها لأن هذه الأشعار تمثل لنا الحياة الجاهلية ، كما تمثلها مرآة كاملة ، وهذه القصائد تتعلق بشخصيات وحوادث حقيقية . ولا يوجد ما يبيح لنا أن نفترض — كما افترض شولتنز — أن المسلمين قد أبادوا الأدب الجاهلى بسبب عداوتهم للوثنية ، فإن افتراضا كهذا يتنافر مع النتيجة الثابتة ، التى تدل على أن الكتابة لم يشع استعمالها عند العرب إلا قبل محمد بقرن واحد تقريبا ؛ ويجب علينا أن نمنح درجة أعلى من التصديق والصحة

(١) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلى لطه حسين .

(٢) ٣٠٤ و ٣٠٥ تاريخ اللغات السامية لرينان نقلا عن ص ٣٠٢ من كتاب « الشهاب الراصد » .

للمقطوعات الشعرية الصغيرة المثبتة فى كتب التاريخ والشعر الجاهلى ، فإن هذا هو فى الحق أقدم أنواع الشعر العربى . . ثم يقول ريمان أيضا : وفى الحق نعتقد أن العرب لم يغيروا فى الشعر الجاهلى شيئا عن قصد، وأن الاختلافات التى وجدت هى من النوع الذى لا يمكن اتقاؤه فى حالة تداول النصوص بين أفواه الحافظين لها ، دون معونة التقييد بالكتابة[1] .

وقال نيكلسون فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص١٣١ : كان[2] الشعر الجاهلى محفوظا بالتواتر الشفوى ، وتساءل عن سر إمكان ذلك وأجاب عن هذا التساؤل فى قوة وتأكيد لصحة هذا الشعر .

والحياة الجاهلية فى كل صورها وألوانها لا يمكن أن تجد وثيقة كبيرة تدل عليها إلا الشعر الجاهلى .

يقول « تين » فى مقدمة كتابه « تاريخ فنون الأدب عند الإنجليز » : إن الآداب صورة كاملة صحيحة من الأشخاص والزمن الذى يعيشون فيه[3] . ويقول نيكلسون أستاذ آداب اللغـة العربية فى جامعة أكسفورد سابقا ومؤلف كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ـ ص ١١ ـ من مقدمة الكتاب المطبوع عام ١٩١٤ : (إن الشعر الجاهلى مرآة الحيـــاة العربية) ، ويقول أيضا فى ص ٢٦ : (إن مزايا العصر الجاهلى مرسومة صورها بأمانة ووضوح فى الأغانى والأناشيد التى نظمها الشعراء الجاهليون) ـ ويقول كذلك فى صفحة ٢٧ : (إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام ـ الجاهلية ـ تصويرا أقرب ما يكون من الدقة فى مظاهره الكبرى) .

ويقول ثور بيكه Thorbecke المستشرق الألمانى فى كتابه « عنترة أحد شعراء الجاهلية »[4] : « لا نملك مصادر موثوقا منها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية

---

(١) ٣٦٢ المرجع السابق . (٢) هذا النص منقول عن كتاب الشهاب الراصد ص ٣٠٤

(٣) ص ٣٩ الشهاب الراصد ـ محمد لطفى جمعة .

(٤) راجع ص ١٤ من الكتاب .

سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية » . وقال أيضا فى كتابه ص ٧٩ : « يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » .

ويقول نولدكه المستشرق الهولندى فى كتابه الشعر العربى القديم ـ الجاهلى ـ ص ١٧[1] : إن عادات العرب الجاهليين وأحوالهم معلومة لنا بدقة من أشعارهم ، وفى الشعر الجاهلى ما يفتن القارئ من أوصاف الحياة والعادات فى البادية .

إن الشعر الجاهلى فى رأينا نحن وثيقة خطيرة تصور حياة الجاهليين وألوان معيشتهم ، وتصف البيئة الجاهلية بما فيها من حيوان ونبات وأرض وجبال وأشجار ووديان وقرى وصفا دقيقا ؛ وتعبّر تعبيرا واضحا عن الأمطار والرياح والجو ، وهى سجل لتاريخ الجاهليين وأيامهم وأخبارهم . يقول محمد لطفى جمعة فى كتابه « الشهاب الراصد »[2] : « يدل الشعر الجاهلى على نفوس ناظميه وحياتهم ، بل إنه أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم » .

الشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير ومبثوث فى مختلف المصادر القديمة . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يمحو ما قبله .

وفى الشعر الجاهلى دلالات واضحة كثيرة على اتصال العرب بغـــيرهم من الأمم ، وعلى ألوان الحياة الاقتصادية التى كانت تظلهم ، ولـكن هذا الشعر مفرق فى مختلف المصادر ، وليس مجموعا فى كتاب واحد .

ثانياً : ما ذكره الدكتور طه من نفى وجود شعراء يمنيين ، ومن عكسه لما ذهب إليه الباحثون القدماء حول نظرية تنقل الشعر فى القبائل . . وهو إنما يعتمد فى ذلك على أدلة هى تصورات لا ترتفع إلى درجة الحقيقة .

---

(١) طبع عام ١٨٦٤ فى هانوفر ـ نقلا عن ص ٤٠ من كتاب الشهاب الراصد لمحمـــد لطفى جمعة .

(٢) ٤١ الشهاب الراصد .

ثالثاً : الشعر الجاهلى واللغة :

يستدل الدكتور طه على انتحال الشعر الجاهلى بأنه لا يمثــل اللغة العربية . فالدكتور يرفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش، ويشك فى هجرة اليمنيين إلى الشمال ، وليس من المعقول عنده أن يكون كل الشعراء قد هاجروا من اليمن ، ويقول : إنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، وكل ما يضاف إلى « جرهم » وسواهم منحول . إن المأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل ـ فى رأى الدكتور ـ على انتحال هذا الشعر على القحطانيين .

ولا نسلم مع وجود فوارق بين الحميرية والعدنانية أنهما لغتان متميزتان ، بل لا نزيد الخلاف بينهما على أنه اختلاف لهجات، والفوارق الكبيرة التى يجسمها بعض العلماء بين الحميرية والعدنانية يمكن حملها على أنها صورة لحياة قديمة جدا قبل عمل عوامل التهذيب اللغوى فى الجزيرة العربية . ولو سلمنا بهذه الفوارق الكبيرة بين اللغتين القحطانية والعدنانية ، فإنه لا يترتب على ذلك وجوب تمثيل القحطانية فى شعر الشعراء القحطانيين المروى شعرهم، لأن القحطانيين فريقان: سبئيون، وحميريون، فالسبئيون[1] نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ، كما تؤكد ذلك جميع الوثائق التاريخيــــة ، ومصادر كتب اللغة والأدب ؛ ومنهم اللخميون المناذرة ملوك الحيرة ، والغساسنة ملوك الشام ، والأوس والخزرج سكان المدينة ، وسواهم . أما « حمير »[2] فهى التى كانت بأرضها فى ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهى التى قال فيها أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) : ما لسان « حمير » وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا .

لقد قربت عوامل التهذيب اللغوى المتعددة بين لغات الجنوب والشمال، وجعلت هجرة السبئيين إلى الشمال اللغة العدنانية لغة لهم ، وسكان الجنوب على أية حال إنما

(١) الدولة السبئية عاصمتها مأرب (٩٥٠ ـ ١١٥ ق م) .
(٢) الدولة الحميرية (١١٥ ق م ـ ٥٢٥ م) وعاصمتها ظفار .

يرجع أكثرهم إلى هجرات شمالية ، فقد ثبت للباحثين من أمثال مولر ، وجلازر أن المعينيين[1] أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل الإسلام وقبل ظهور حورابى بجملة قرون ، والدولة الحميرية حكمت ستة قرون ونصف قرن (١١٥ ق م ـ ٥٢٥ م) وعدد ملوكها ثلاثون ملكا ، وقد فتح الأحباش اليمن فى عهد الملك الحميرى ذى نواس (٥١٥ ـ ٥٢٥ م) وقد قام الأمير الحميرى سيف بن ذى يزن بتحرير اليمن بمساعدة الفرس .

أما دولة سبأ فهى التى كانت قبل الدولة الحميرية وقد عاشت قرونا طويلة قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد أيضاً ، وقد انتهت حضارة هـــذه الدولة وسيادتها بفعل عاملين كبيرين :

الأول ـ انتقال التجارة إلى الطريق البحرى وانقطاع مرورها بسبأ .

والثانى ـ « سيل العرم » الذى حطم « سدّ مأرب » فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها ، وتفرقوا فى أرجاء الجزيرة العربية .

وقد كانت هناك عوامل عديدة قربت على أية حال لغة السبئيين والحميريين من لغة المدنانين ، واستمرت هـــذه العوامل تعمل عملها إلى ما قبل ظهور الإسلام ؟ وإلا فكيف كان يفهم ولاة رسول الله على اليمن لغة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدى الرسول صلوات الله عليه ؟

إن القحطانية والمدنانية فى الأصل لغة واحدة ، والخلاف بينهما لا يرتفع عن مستوى كونه خلافا فى اللهجات .

وإنكار شعر شاعر مثل امرئ القيس ـ بحجة أنه يمنى وأن لغتـــه تغاير اللغة المدنانية التى روى بها شعره ـ لا يمثل لنا منطقا تاريخيا يرد على ما نعرف من الأصول المدنانية لقبائل اليمن ، ومن هجـــرة قبيلة كندة إلى الشمال ونشأة امرئ القيس فى مواطن بنى أسد المدنانيين ، وليس من المعقول أن يكون ملكا على الشماليين ويتكلم

(١) الدولة المعينية قبل الدولة السبئية وعاصمتها القرن (١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق م) .

بلغة غير لغتهم وهو بين أظهُرهم . ويقول « سيديو » فى كتابه المشهور « خلاصة تاريخ العرب » : كان بين الإسماعيلية ـ المدنانية ـ والقحطانية تنافس المامرة المؤدى إلى اختلاف الكلمة ، ثم مالوا إلى الوحدة السياسية ؛ ورأوا الأشعار وسيلة لانتشار نخارهم ، وسبيلا إلى وصول مآثرهم وأعمالهم إلى أحفادهم فأحيوها وعكفوا عليها ، لكن كلام شعراء نجد والحجاز لم يفهمه شعراء اليمن ، بل لم تتفق قبائل بلد واحد على لغة واحدة .

رابعا : الشعر الجاهلى واللهجات :

يؤكد الدكتور طه نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى بأن اختلاف اللهجات أمر ثابت لاشك فيه ، ونحن لانجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ، وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام[1] ، ويرى أن شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لايمثل لهجاتهم التى كانوا يتكلمون بها .

ونحن نرد على ذلك بأن اختلاف اللهجة لايؤثر على وزن الشعر وقافيته ، لأن اللهجة هى طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثّل ذلك فى التفخيم والترقيق والإمالة وعدمها ، والجهر والهمس، مما لايؤثر فى ذات الحرف ولايستلزم العدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها، والجملة الواحدة نستطيع النطق بها مختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها فى كل صورة من صور النطق، كما فى تلاوة القرآن الكريم بالقراءات المتعددة .

على أن المتباين المتفاكر من اللهجات قد أزالته عوامل التهذيب اللغوى المديدة فى جزيرة العرب ، وسيادة لغة قريش ولهجتها قبل الإسلام ؛ وكان لمكانة قريش ولتنقلها بين القبائل والأمم ، ولشهودها مواسم الحج وأسواق العرب وكثيرا من حروبهم ؛ كان لكل ذلك أثره فى صفاء لهجة قريش ، وعذوبة لغتها ، وتخيرها من لهجات ربيعة وغيرها ، مما جعل لهجتها تسود قبل الإسلام جميع لهجات القبائل ، وصارت القبائل المختلفة وشعراؤها يحاكونها فى بلاغتها وفصاحتها وسمو لهجتها ،

(١) ص ٩٦ وما بعدها من كتاب الأدب الجاهلى .

وكانت صلات المصاهرة والمجاورة والاختلاط بين القبائل تنطى على كل خلاف لغوى ، وتقضى على كل فرقة لغوية بينها .

إن اختلاف لهجات القبائل العربية أمر مسلم به ، ولكن هذه الاختلاف لا أثر له إطلاقا على الشعر ولا يخرج القبائل عن وصفها بأنها ذات لسان واحد ولغة واحدة .

— ٥ —

وبعد : فإن نظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى تعدُّ من أعجب النظريات الأدبية الجديدة ومن أشدها تنافرا ، ومن أقواها إثارة ، وأكثرها حوارا وجدلا .

وقد أحدثت أثرها فى تطور الدراسات الأدبية والنقدية ، وفى التمهيد للمناهج الجديدة ، فى دراسة الأدب ونقده ، وفى قيام حركة حوار رائعة خصبة لم تشهد الحركة الأدبية الحديثة والمعاصرة مثيلا لها من قبل ولا من بعد.

ومهما قيل فى نقد هذه النظرية وفى التعليق عليها فإنها بلا ريب تعدُّ حدثا أدبيا فى تاريخنا الأدبى المعاصر ، وتعدُّ ظاهرة أدبية جديرة بالتسجيل والتفهم ، وتعد علامة على طريق البحث الأدبى والتجديد فيه .

وقد كان الدكتور طه عجيبا فى أسلوبه وتفكيره وجمعه بين الآراء المتباينة ليؤلف منها وحدة متكاملة . وكان فى إثارته ، وفى جدله وحواره ، وفى نقده وتعليقه ، شيئا غريبا .

وكان له من ملكاته ومواهبه وثقافته ، ومن ذكائه وألمعيته ، ومن ذوقه الأدبى الرفيع ، ما جعله يصعد إلى القمة ، ويسمو إلى الذروة ، ويجلس على أعلى مكان فى صرح الأدب ، حتى لقِّب بعميد الأدب العربى ، وكان هو فى النثر الأدبى والدراسة الأدبية كشوقى بين الشعراء ؛ كل منهما احتل منزلة الصدارة ، هذا فى النثر ، فصار عميده ، وذاك فى الشعر فصار أميره .

وعلى الجملة فإن طه حسين ونظريته فى انتحال الشعر الجاهلى سيظلان موضع الإثارة والاهتمام على مرور الأيام ، وتوالى العصور .

أسباب الانتحال فى رأى الدكتور طه حسين

١ ـ العامل السياسى :

فالسياسة قد خلقت خصومة حادة بين الأنصار وبين أهل مكة الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم وحاربوه وأخرجوه حتى اضطر إلى الهجرة منها إلى المدينة ، وهذه الخصومة هى التى أدت إلى الوضع والاختلاق بل هى التى دفعت إليه دفعاً .

ويسوق الدكتور طه دليلا على ذلك قصيدة حسان بن ثابت فى مدح الزبير ابن العوام وأسفه على ضياع إنصاف الأنصار وموالاة النبى فيهم ، فقد حدّث الرواة أن الزبير بن العوام مر بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسان ينشدهم ، وهم غير حافلين بما يقول، فلامهم على ذلك ، وذكرهم موقع شعره من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأثر ذلك فى نفس حسان فقال يمدحه :

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى ولى الحق والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذى ... يصول إذا ما كان يوم محجل

إلى آخر ما قاله فى مدحه . .

وقد روى هذه القصة نفر من آل الزبير ومن أحفاد عبد الله بن الزبير، أفتستبعد أن تكون عصبية الزبيريين قد مدت هذه الأبيات وطولتها وتجاوزت بها ما كان قد أراد حسان الاعتراف بالجميل إلى ما كانت تريد العصبية الزبيرية من تفضيل الزبير على منافسيه ، أو على منافس ابنه عبد الله[1] .

كذلك يسوق الدكتور طه قصيدة النعمان بن بشير التى أنشدها وهو منضب بين يدى معاوية ، حين قال الأخطل فى هجاء الأنصار :

ذهبت قريش بالمكارم والندى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

(١) فى الأدب الجاهلى .

فدخل النعمان على معاوية وأنشده القصيدة :

معاوى إلا تعطنا الحق تعترف	لحى الأزد مشدود عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضـــلة	فماذا الذى تجدى عليك الأراقم
فما لى ثأر دون قطع لسانه	فدونك من ترضيه عنك الدراهم

إلى أن يقول :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة	سترقى بها يوما إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى	لتلك التى فى النفس منى أكاتم
فما أنت والأمر الذى لست أهله	ولـكن ولى الحق والأمر هاشم
إليك يصير الأمر بعـد شتاته	فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم	ومنهم له هـــاد إمام وخاتم

فظاهر جداً أن هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة على أقل تقدير قد حملت على النعمان ابن بشير حملا ، ثم يخلص من ذلك إلى أن العصبية قد دفعت كل قبيلة إلى أن تعود إلى جاهليتها تمتز بقديمها وتنشر مفاخره ، وتردد من أمجاده ، وكانت فى حاجة إلى الشعر تقدمه وقوداً لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من الشعر ، وقالت منه القصائد الطوال ونحلتها شعراؤها القدماء[1] .

٢ ـ العامل الدينى :

وكان للعامل الدينى أثره القوى كذلك فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين ـ فيما يراه الدكتور طه حسين ـ إذ كان القصّاص يلجأون إليه لتفسير ما يجدونه مكتوباً فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تبع وحمير موضوع منتحل، وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص .

(١) فى الأدب الجاهلى ١٢٥ ـ ١٣٢ وراجع : الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام للدكتور السلوت ص ٢٠٨ .

ومن ذلك أيضاً شعر الشواهد الذى اخترعه الرواة حين عمد الدارسون إلى دراسة القرآن لغويًّا وإثبات صحة ألفاظه ودلالتها على معانيه فقد حرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات من القرآن بشىء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة عربية لاسبيل إلى الشك فى عربيتها.

٣ ـ القصص : فقد وجد الفن القصصى وازدهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية . أزهر أيام بنى أمية وصدراً من أيام بنى العباس ، حتى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجلس القصّاص ضعف أمر هذا الفن وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئاً فشيئا ، حتى ابتذل وانصرف عنه الناس[1] .

كان قصاص المسلمين يتحدثون إلى الناس فى مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات ، ويمضون معهم فى تفسير القرآن والحديث ورواية السير والمغازى والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا ، وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص مشغوفين بمايلقون إليهم من حديث ، وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديداً ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر .

وكان هذا القصص الذى سيطر على الحياة فى العصر الأموى فى أمس الحاجة إلى شعر يزينه من حين إلى حين ، ومن هنا عمــد القصاص إلى وضع الشعر لتزدان به قصصهم من ناحية وليسيغها القراء والسامعون من ناحية أخرى ، ومن ذلك أخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس .

٤ ـ الشعوبية : ثم يتحدث الدكتور طه عن الخصومة بين العرب والموالى فى

(١) فى الأدب الجاهلى راجع من ص ١٤٨ ـ ١٥٩ ، الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام د . المسلوت ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

الإسلام فيقول[1] : « أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخباراً وأشعاراً وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه » ويقول أيضاً : « كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعـــرب وغض منهم وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم » .

٥ ـ الرواة : والرواة فى رأى الدكتور طه حسين « بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالى من تلك الأسباب العامة وهم على تأثرهم بهـــذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هى التى أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة ، ولعل أهم هذه المؤثرات التى عبثت بالأدب العربى وجعلت حظه من الهزل عظيما : مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث ، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق » .

هذه هى الأسباب التى رآها الدكتور طه حسين داعية للوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى .

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٦٠ ـ ١٦٧ .

فنون الشعر

عرفنا أن الشعر العربى كان مبعثه الاستجابة لأحاسيس النفوس من حب وبغض، والتعبير عن رغباتها من إذاعة المكارم ونشر المحامد، وتصوير عاطفة آلمها فقد حبيب وموت عزيز أو اغتراب خلّ وفىّ .

ومن هنا تنوعت أغراضه وتشعبت فنونه وتناول الغزل والمدح والفخر والهجاء والرثاء والوصف والحماسة والاعتذار، ولكل مذهب وفن لغته التى تناسبه، وأسلوبه الذى هو ألصق به ، فالغزل يحتاج إلى رقة اللفظ وعذوبته ، والفخر يستدعى الجلبة وقوة الأسلوب وضخامة المعنى وهكذا ، ومن ثم قد يجيد الشاعر فى فن منها ويقصر فى الآخر .

قال ابن قتيبة[1] : « الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليــه المراثى ويتعذر عليه الغزل ، وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم ، وأحساباً تمنعنا من أن نظلم . وهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيباً وأجودهم تشبيهاً وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع . وذلك الذى أخره عن الفحول فقالوا فى شعره: أبعار غزلان ونقط عروس. وكان الفرزدق زير[2] نساء، وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب ، وكان جرير عزهاة[3] عن النساء عفيفاً وكان مع ذلك أحسن تشبيباً ، وكان الفرزدق يقول : « ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى وأحوجنى إلى رقة شعره لما ترون » .

وقال ابن رشيق فى العمدة[4] : « قال بعض العلماء : بنى الشعر على أربعة وهى المدح والهجاء والنسيب والرثاء » .

(١) ص ٢٦ الشعر والشعراء . (٢) يكثر من زيارتهن . (٣) عفيفاً .
(٤) جـ ١ ص ١٠٠ .

وقالوا : قواعد الشعر أربعة : الرغبة والرهبة والطرب والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب . ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع .

وإن الناظر فيما بين أيدينا من آثار العرب وأشعارهم يجد أن فنون الشعر كلها ظاهرة لامعة متحققة بأروع وأجلى بيان .

الحماسة :

١ ـ مصدر حمس بمعنى اشتد وقوى . والحماسة فى الشعر التغنى بالصفات التى تنبىء عن القوة ، وتدل على الشجاعة والاستهانة بالصعب من الأمور والعسير من المخاطر ، وخوض غمار الحروب ، وذم الجبن والخور والفرار .

ولقد أكثر شعراء العرب من تناول هذه المعانى والإلحاح على هـــذا الغرض ، لأن الشجاعة والإقدام وركوب الأهوال من الخـلائق الطبيعية المركوزة فى أعماق نفوسهم ، حتى لقد رأينا من يجمع حماسة العرب فقط فيؤلف فيها الأسفار ، ويجمع المجلدات الضخام .

٢ ـ ومن أمثلة الحماسة قول عمرو بن كلثوم يفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة :

أبا هنـد فلا تعجل علينـا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا[1]

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمراً قد روينا[2]

وأيام لنـــا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا[3]

وسيد معشر قـــد توجوه ... بتاج الملك يحمى المحجرينا[4]

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا[5]

(١) أنظرنا : أمهلنا . (٢) روين من دماء أعدائنا .

(٣) أى ونخبرك بأيام حرب لنا . (٤) المحجرون : اللاجئون .

(٥) أى قتلناه ونزلنا لأخذ سلبه فبقيت خيولنا واقفة عليه صافنة والصافن القائم أو الذى يرفع إحدى قوائمه لعبا .

وقد هرت كلاب الحى منا   وشذبنا قتادة من يلينا[1]
متى ننقل إلى قوم رحانا   يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرق نجد   ولهوتها قضاعة أجمعينا[2]

٣ — وقال الحصين بن الحمام المرى وهو شاعر جاهلى مقل :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا   ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاما من رجال أعزة   علينا ، وهم كانوا أعق وأظلما
ولما رأيت الود ليس بنافعى   عمدت إلى الأمر الذى كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة   ولا مرتق من خشية الموت سلما

المدح :

١ — المدح هو الثناء على إنسان بذكر أفضاله وتمداد خلاله الكريمة وخصاله العظيمة . ولم يكن لذلك فى أول الجاهلية مظهر خاص يجنى من ورائه المرء منحا أو يستدر رهبة ، أو يجتلب به أخلاف الرزق ، وإنما كان فى بدء أمره إحساسا بفضيلة ، وشعوراً بيد ، يدفع الإنسان إلى أن يمدح ويثنى على من قدم له المعروف أو أسدى إليه اليد ، كما قال امرؤ القيس يمدح رهط المعلى :

أقر حشا امرئ القيس بن حجر   بنو تيم مصابيح الظلام

فلما عرف الشعراء طريق العطايا والهبات أكثروا من المديح ، وبالغوا فى الزلفى . وانقطعوا للرؤساء والأمراء والملوك يثيرون فيهم كامن الغرور ، ويوقظون هاجع الكبرياء والعظمة بما يضيفون عليهم من صفات ويسبغون من نعوت .

---

(١) هرت : نبحت خوفاً . والتشذيب قطع أغصان الشجرة أوشوكها . والقتادة الشوكة أى أذهبنا شوكة من يلينا ويقرب منا من الأعداء .

(٢) الثفال : جلدة أو خرقة تجعل تحت الرحى يسقط عليها الطحين . واللهوة القبضة من الحب تلقى فى الرحى يعنى أن رحى حربهم تدور فى شرق نجد وتلتهم قضاعة أجمعين وهى قبيلة عظيمة .

ومن هؤلاء ، النابغة وزهير والأعشى والحطيئة ، وقد مدح الأخيران الملوك والسوقة .

وقد قالوا إن أمدح بيت قالته العرب قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكان الجاهليون يمدحون بكرم الخلال، كالشجاعة، والكرم، والعفة، والنجدة، والبأس ، والمدد ، ونحو ذلك من الشمائل التى كانت من دأبهم ، والتى كانوا يفاخرون بها .

ولقد شاع المدح وكثر بعد تبذل الشعراء ، واتخاذه أداة للارتزاق ، ومهنة للتكسب .

والملاحظ فى المدح الجاهلى بوجه عام الصدق ، وعدم المبالغة فى وصف الممدوح أو الغلو فى التملق له . كما حدث بعد ذلك فى العصور التالية .

٢ — وقال النابغة يمدح عمرو بن الحارث الغسانى :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والأحلام غير عوازب[1]

محلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[2]

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب[3]

تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الأضريج فوق المشاجب[4]

---

(١) الأحلام : العقول . وعوازب : بعيدة .

(٢) محلتهم أى سكنهم . ذات الإله أى بيت المقدس .

(٣) رقاق النعال أى أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم فإنما يخصف من يريد المشى، وطيب حجزاتهم كناية عن العفة . وحجزة الإزار محل شدها على الوسط من الجسم . ويوم السباسب من أعياد النصارى . (٤) الولائد : الإماء . الأضريج : الخز الأحمر . والمشاجب : جمع مشجب ، عود ينشر عليه الثوب .

يصونون أجساداً قديماً نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب[1]

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضربة لازب[2]

٣ — ومن الدائع قول زهير :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم[3]

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجُرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم[4]

تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[5]

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين فى عليا معد وغيرها ... ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

الهجاء :

١ ـ وهو ضد المدح فإنه يكون بسلب المرء مايمتز به من فضيلة، أو رميه بما ينفر منه من رذيلة ؛ وهو والمدح من الصفات الطبيعية فى النفس ، فالإنسان قد يرضى فينطلق لسانه بالثناء والمدح . وقد يسخط فتهدر طبيعته بما يوجع ويؤلم . ولقد عبر عن ذلك أبلغ تعبير الزبرقان بن بدر حين مدح وهجا فى آن واحد وقال لرسول الله (ﷺ) : رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت . . . وكان الهجاء فى الجاهلية بسلب الفضائل والرمى بضعف الهمة وفتور العزيمة ، وتخاذل المروءة كما قال الحطيئة فى هجاء الزبرقان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

---

(١) الخالص الشديد البياض والأردان جمع ردن وهو مقدم كم القميص وهذه الثياب كانت تتخذ للوكهم. (٢) لازب: ثابت . (٣) غيظ بن مرة: الحى الذى منه هذان السيدان، وتبزل: تشقق .

(٤) السحيل: الحبل أو الخيط يفتل فتلا واحدا. والمبرم: ما يفتل خيطين ثم يفتلان ثانية ويجعلان حبلا واحدا . (٥) عطر منشم مثل يضرب فى شدة التشاؤم وأصله أن امرأة عطارة تعطر أقوام بعطرها وخرجوا للحرب فهلكوا .

ولذلك قال حسان حين طلب إليه أن يحكم فى هذه القضية : لم يهجه ولكن سلح عليه .

ولقد قيل إن الأعشى هجا علقمة بن علاثة بقوله :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

فلما سمع علقمة هذا البيت بكى ، وقال أنحن نفعل ذلك بجاراتنا ؟

ومهما يكن من شىء فإن الشعراء الهجائين كانوا يقتصدون فى الإقذاع ولايسرفون فى السب والثالب ، بل إنهم كانوا يكتفون أحيانا بالتهكم والتشكيك فى فضل المهجو ، كما قال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء ؟

أو التعريض بمدح الغير كما يقول محرز الضبى :

فهلا سعيتم سعى عصبة مازن   وهل كفلائى فى الوفاء سواء ؟

ثم خرج المتكسبون بالشعر عن ذلك إلى الإفحاش كالحطيئة وهو من المخضرمين.

٢ — ومن أمثلة الهجاء قول قريط بن أنيف العنبرى يهجو قومه معرضا بمدح أعدائهم :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذا لقام بنصرى معشر خشن   عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد   ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته   سواهمو من جميع الناس إنسانا

فليت لى بهمو قوما إذا ركبوا   شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

الرثاء :

١ — هو بكاء الميت ، والتفجع عليه ، وإظهار اللوعة لفراقه ، والحزن لموته ، وعدّ خلاله الكريمة التى يروع الأعداء فقدها ، والإشادة بمناقبه وشمائله .

وكانوا فى الرثاء على شرطهم فى غيره ، لايبالغون ، ولايهولون ، فيتصورون

الأرض تميد ، والسماء ترمى بالشهب ، وإنما كانوا يبكون فى الميت الشجاعة والنجدة والسكرم والوفاء ونحو ذلك مما كانوا يتمدحون به .

وكان من عاداتهم — كما يقول ابن رشيق — أن يضربوا الأمثال بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض ، ونحو ذلك .

وقد شاركت فيه النساء وبرزن فيه، لرقة قلوبهن، وغزارة دموعهن ، كجليلة امرأة كليب ، والخنساء ، وعاتكة بنت زيد وغيرهن .

وكانوا أحياناً يستهلون قصائد الرثاء بالغزل، كما فعل دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله ، حيث يقول :

أرث جديد الحبل من أم معبد   بعاقبة أم أخلفت كل موعد

وكقول أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء صديق :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها   وإلا طلوع الشمس ثم غيارها
أبى الله إلا أم عمرو وأصبحت   تحرق نارى بالشكاة ونارها

٢ — ومن أمثلة الرثاء قول دريد بن الصمة فى قصيدته المذكورة يرثى أخاه :

دعانى أخى، والخيل بينى وبينه   فلما دعانى ، لم يجدنى بقعدد[١]
أخ أرضعتنى أمه من لبانها   بثدى صفاء بيننا لم يجدد[٢]
فجئت إليه ، والرماح تنوشه   كوقع الصياصى فى النسيج الممدد[٣]
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت   وحتى علانى حالك اللون أسودى[٤]
تنادوا، فقالوا: أردت الخيل فارسا   فقلت أعبد الله ذلكم الردى
فإن يك عبد الله خلى مكانه   فما كان وقافا ، ولا طائش اليد

---

(١) القعدد : الجبان اللئيم والخامل .   (٢) يجدد : يقطع .

(٣) الصياصى : جمع صيصاة ، شوكة يسوى بها الحائك نسجه .

(٤) تنهنهت : كفت . وأسودى : نسبة إلى الأسود أى الدم وخفف للضرورة وبعضهم يرفعه ويحذف الياء ويلزمه الإقواء .

ولا برما إما الرياح تناوحت　　برطب العضاه والضريع المعضد[1]

كميش الأزار، خارج نصف ساقه　　صبور على الضراء طلاع أنجد[2]

قليل تشكيه المصيبات ذاكر　　من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

تراه خميص البطن والزاد حاضر　　عتيد ويغدو فى القميص المقدد[3]

وإن مسه الإقواء والجهد زاده　　سماحا وإتلافا لما كان فى اليد[4]

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه　　فلما علاه قال للباطل : ابعد

وطيب نفسى أننى لم أقل له　　كذبت، ولم أبخل بما ملكت يدى

٣ ـ وقال أوس بن حجر يرثى فضالة بن كلدة، وقد قيل إنها لا نظير لها فى مطلعها . وأوس من فحول شعراء الجاهلية ، وكان شاعر مضر ، حتى ظهر زهير والنابغة فأخملاه ، وقيل إنه أشعر من زهير ولم يخمله إلا النابغة ، وكان غزلا ، مغرما بالنساء. وصافا للحمير ، وللسلاح ، وبخاصة القوس :

أيتها النفس أجملى جزعا　　إن الذى تحذرين قد وقعا

إن الذى جمع السماحة والنجـ　　ـدة والحزم والقوى جمعا

الألمعى الذى يظن بك الظـ　　ـن كأن قد رأى ، وقد سمعا

والمخلف المتلف المرزأ لم　　يمتع بضعف ، ولم يمت طبعا[5]

أودى فلا تنفع الإشاحة من　　أمر لمن قد يحاول البدعا[6]

ليبكك الشرب والمدامة والفتـ　　ـيان طرا ، وطامع طمعا[7]

---

(١) البرم : الذى لا يدخل الميسر مع القوم، وتناوح الرياح: هبوبها من كل جانب زمن الشتاء. والعضاه : الأشجار الشائكة أو ما لا شوك له . والضريع : نبات لا تقر به الدواب . والمعضد : المقطع .　　(٢) كميش الإزار : مشمر نشيط ، وطلاع أنجد : كناية عن اقتحام الصعاب.

(٣) عتيد : مهيأ . والمقدد : الممزق .　　(٤) الإقواء : الفقر .

(٥) المرزأ : السخى ، متع : كنصر بالشىء ذهب به ، والطبع بفتح الباء : الشين والعيب .

(٦) الإشاحة : الإعراض .　　(٧) الشرب : جمع شارب ، كركب : جمع راكب .

وذات هدم ، عار نواشرها   تصمت بالماء تولبا جدعا[1]

والحى إذ حاذروا الصباح ،وإذ   خافوا مغيرا ، وسائرا تلعا[2]

٤ — وروى القالى فى أماليه أنه كان لرجل من ضبة ، فى الجاهلية بنون سبعة فخرجوا يصطادون بكلابهم ، فآووا إلى غار ، فهوت عليهم صخرة ، فأتت عليهم جيماً ، فلما استراث أبوهم أخبارهم ، اقتفى آثارهم ، حتى انتهى إلى الغار ، فانقطع عنه الأثر ، فأيقن بالشر ، فرجع وأنشأ يقول :

أسبعة أطواد[3] ، أسبعة أبحر   أسبعة آساد ، أسبعة أنجم

رزئتهمو فى ساعة جرعتهمو   كئوس المنايا تحت صخر مرضم[4]

فمن تلك أيام الزمان حميدة   لديه ، فإنى قد تعرقن أعظمى[5]

بلغن نسيسى، وارتشفن بلالتى   وصلينني جمر الأسى المتضرم[6]

أحين رمانى بالثمانين منكب   من الدهر،منح فى فؤادى بأسهم

رزئت بأعضادى الذين بأيدهم   أنوء ، وأحمى حوزتى وأحتمى[7]

فإن لم تذب نفسى عليهم صبابة   فسوف أشوب دمعها بعد بالدم

ثم لم يلبث بعدهم إلا يسيراً ، حتى مات كمدا[8] .

الفخر :

١ — هو تمدح المرء بكرم الخلال ، وطيب الشمائل ، ومباهاته بنفسه أو قبيلته ، وهو من أخص صفات العرب ، ومن أوسع الأبواب فى أشعارهم ، وبعض قصائدهم الطوال قيل فى هذا الغرض كمعلقة عمرو بن كلثوم وجمهرة أمية بن أبى الصلت .

---

(١) الهدم بالكسر : الثوب الخلق ، والنواشر : عروق ظاهر الكف ، وتصمت : تسكت ، والتولب : ولد الأتان أى الجحش ، وجدع ككتف : سيء الغذاء .

(٢) تلع ككرم وفرح : طلع .   (٣) الطود : الجبل .

(٤) مرضم : منضد بعضه فوق بعض .   (٥) تعرقن أعظمى : أخذن ما عليها من اللحم .

(٦) نسيسى : غاية جهدى ، أو بقية الروح فى الجسد ، والبلالة : الرطوبة ، والارتشاف : المص ، والمتضرم : المشتعل .   (٧) الأيد : القوة ، وأنوء : أنهض ، وحوزتى : ناحيتى .

(٨) الأمالى ج ١ .

٢ — يقول طرفة بن العبد فى معلقته :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد[1]
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الشريف المصمد[2]

٣ — ويقول عنترة فى معلقته :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقوم[3]
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[4]

الغزل :

١ ـ أكثر أشعار العرب وأروع قصائدهم وأبرع آثارهم يتصل بالمرأة ، وبصف حسنها، ويشيد بجمالها ، ويعلن الفرح بقربها، والألم والحزن على بعدها، ويذكر تأثيرها على النفس ؛ وما تجود به من وصل ، أو توزعه على صرعاها من دلال وصد ، ومن ازورار وهجران .

وكانت المرأة العربية ذات تأثير ساحر على عقل الرجل وقلبه وعواطفه ومشاعره ، يقتحم الصعاب ، ويخوض الغمرات ، ويركب الأهوال من أجلها ، لذلك كان الشعراء لا يفتأون يرددون ذكرها فى كل مناسبة للقول ؛ يفتتحون بها أشعارهم ويبدأون قصائدهم ، ويقفون على أطلالها باكين ، ويلمون بمنازلها متشوقين .

ولقد كان من شعرائهم من يتحدث عن المرأة حديث الذى تتملكه الشهوة ،

(١) التلاع : ما ارتفع من الأرض ، والرفد : العطاء .
(٢) المصمد : المقصود ، والجميع : المجتمع . (٣) صدق : صلب . (٤) الأصم : الصلب .

وتستبد به الصبوة ، فيصور محاسن جسمها من أرداف وأعجاز ووجه وبطن وعيون تشبه عيون المها . ويعمد إلى كل ما يثير العاطفة والمشاعر ، فيلح عليه إلحاحا شديدا مثل مهلهل الذى لقب بأنه زير نساء ، ومثل امرىء القيس الذى أفحش فى غزله وابتذل فى دبيبه ، ولم يتورع عن ذكر أسماء المحبوبات فى وصف فاحش وغزل ماجن .

وكان كذلك النابغة الذبيانى الذى أسرف فى الفحش وبالغ فى تكشيف المرأة والنفاذ إلى أدق المواطن وأكثرها ستراً واستخفاء .

على أن هناك من شعراء العرب من غلب عليه الطبع العربى والأنفة البدوية فذكر المرأة ، وأضاف إليها ما يجب أن يتوفر لها من ستر وحصانة ، ومن عزة ومنعة كما قال علقمة بن عبدة فى قصيدته :

طحا بك قلب فى الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب[1]

يكلفنى ليلى وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب[2]

منعمة ما يستطاع كلامها ... على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى إياب البعل حين يؤوب

فالطباع العربية والصفات التى كانت تملك نفس البدوى وتملؤها عزة وأنفة هى التى تسيطر على أمثال هؤلاء المتغزلين أمثال علقمة . وإذا كان حق النسيب كما قال ابن رشيق[3] : أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعانى سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ويستخف الرصين . فقد بلغ شعراء العرب الغاية فى ذلك وأتوا بالعجب العجاب ، وإن المرء ليجد القصيدة مفتتحة بالنسيب وذكر الأطلال وبكاء الديار والشوق والحنين فتنشط نفسه ، ويتفتح لذلك حسه ، ويقبل على القصيدة بكل ما فيه من رغبة ونهم .

---

(١) طحا به : ذهب به . (٢) شط : بعد ، نأيها : قربها . (٣) ج ٢ ص ١١٠ .

وهذه هى قصائدهم الطوال المساة بالمعلقات نجدها كلها تبدأ بالغزل وذكر الديار والأطلال . ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا قصيدة عمرو بن كلثوم التى افتتحها بحديث الخمر :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينـا

على أنه لم يلبث أن استجاب للطبيعة المتحفزة فعاد إلى ذكر الفراق بقوله :

قفى قبـل التفرق ياظعينا نخـبرك اليقين وتخبرينا

٢ ـ والأدباء دائماً يطلقون ألفظ الغزل والنسيب والتشبيب على هذه الأشعار التى تحمل حب المرأة والحديث عن جمالها وما تثيره فى القلوب من هيام وصبوة ، والتى تنطق بكل ما يتعلق بها من حب ووصل وصد وتقريب وهجران . . قال ابن رشيق فى العمدة[1] :

« والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد » ، وبعضهم يفرق بين معانى هذه الألفاظ ، فقدامة يقول : «النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب على قوم موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه، والغزل إنما هو التصابى والاشتهار بمودات النساء » .

وبعض الأدباء يخص الغزل بالاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والعبث بذلك فى الكلام ، ويريد بالتشبيب ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال ، أما النسيب فهو أثر الحب الصادق والصبابة المبرحة ، فيا يبثه الشاعر من شكوى ، وما يصفه من حرمان .

ونحن نميل إلى أن هذه الألفاظ أصبحت كلها تحمل معنى واحداً ؛ هو الحديث عن المرأة وما يتصل بها .

(١) ج ٢ ص ١١١ .

والغزل الجاهلى كان مقصوراً على المرأة ووصف جمالها ؛ فلم يتجاوزها إلى الغلمان ، كما حدث فى العصر العباسى . وتتجلى فى النسيب الجاهلى البساطة والبعد عن التكلف ، والتشبيه بالمحسوس المرئى لديهم ، وعلى الرغم من إكثارهم فيه وشهرتهم به ، لم يقولوه مستقلا ؛ إنما مزجوه بكل غرض ، وألموا به فى كل موطن فما من قصيدة قيلت فى مدح أو هجاء أو فخر أو وصف إلا كان النسيب جزءاً منها . بل لقد غلب على بعضهم فى موطن الدمعة ، ومكان الحزن واللوعة ، كما تقدم فى الرثاء .

٣ ـ قال أعشى قيس :

ودع هريرة إن الركب مرتحل — وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارضها — تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل[1]
كأن مشيتها من بيت جارتها — مر السحابة لا ريث ولا عجل[2]
تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت — كما استعان بريح عشرق زجل[3]
ليست كمن يكره الجيران طلعتها — ولا تراها لسر الجار تختتل[4]
يكاد يصرعها لولا تشددها — إذا تقوم إلى جاراتها الكسل[5]
إذا تقوم يضوع المسك أصورة — والزنبق الورد من أردانها شمل[6]
ماروضة من رياض الحزن معشبة — خضراء جاد عليها مسبل هطل[7]

---

(١) غراء : بيضاء واسعة الجبين . والفرعاء : الطويلة الفرع أى الشعر والعوارض الرباعيات والأنياب من الأسنان . الوجى : الذى يشتكى حافره ولم يحف بعد فيكون متثاقلا ، فكيف إذا كان وحلا يمشى فى الوحل . (٢) الريث : البطء .

(٣) الوسواس : صوت الحلى . والعشرق : شجيرة مقدار ذراع لها أكمام فيها حب صغار إذا جفت فرت بها الريح تحرك الحب فسمع له خشخشة على الحصى . والزجل : رفع الصوت بالطرب والزجل بالكسر صفة منه . (٤) تختتل : تتسمعه استراقاً .

(٥) يصفها بالسمن والترف وذلك من صفات المدح عندهم إذ تكون مخدومة منعمة .

(٦) يضوع المسك : تنتشر رائحته ، وأصورة : جمع صوار بالضم وهو نافجة المسك أو حقه والزنبق عند العرب زيت الياسمين وأجوده ما كان يميل إلى الحمرة ولذلك وصفه بالورد . وشمل أى عام .

(٧) الحزن : الأرض الغليظة . والمراد هنا موضع من بلاد اليمامة فيه رياض وقيعان .

يضاحك الشمس منها كوكب شرق

مؤزر بعمـــيم النبت مكتهل[(١)]

يوماً بأطيب منها نشر رائحة   ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل[(٢)]

٤ — ويقول امرؤ القيس :

أفاطم مهلا بعض هـــذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى[(٣)]

أغرك منى أن حبـــك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل[(٤)]

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا   على حراصا لو يسرون مقتلى[(٥)]

فجئت وقـد نضت لنوم ثيابها   لدى الستر إلا لبسة المتفضل[(٦)]

مهفهفة بيضاء غـــير مفاضة   ترائبها مصقـولة كالسجنجل[(٧)]

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى   بناظرة من وحش وجرة مطفل[(٨)]

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش   إذا هى نصته ولا بمعطـــل[(٩)]

وفرع يزين المـتن أسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثـكل[(١٠)]

---

(١) والـكواكب هنا جماعة الزهر . ومؤزر أى يكتنفه نبات تام النمو ملتف عليه كالتفاف الإزار .   (٢) الأصل : جمع أصيل وهو من العصر إلى الظلام ، وخصه لأن الجو يبرد فيه فيهب النسيم حاملا رائحة الأزهار .   (٣) صرمى : قطيعتى .

(٤) ذرفت : دمعت ، والأعشار : القطع ، ومقتل : مذلل .

(٥) الأحراس : جمع حارس . والحراص : جمع حريص . ويسرون : يضمرون .

(٦) نضت : خلعت .   (٧) مهفهفة : ضامرة . ومفاضة : مسترخية البطن . والترائب : عظام الصدر أو ما بين الترقوتين . والسجنجل : المرآة .

(٨) تصد : تعرض . وتبدى : تظهر . عن أسيل : أى عن خد أسيل وهو ما فيه امتداد وطول. ووجرة : موضع . والمطفل : التى لها طفل .

(٩) الرئم : الظبي الخالص البياض ، ونصته : رفعته ، والفاحش : الذى تجاوز قدرا معلوما والمعطل : الخالى من الحلى .

(١٠) الفرع: الشعر التام، والمتن: الظهر، والأثيث الـكثير. والقنو العذق. والمتعثكل المتدلى.

غـدائره مستشزرات إلى العلى   تضـل العقاص فى مثنى ومرسل[١]
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل[٢]

الوصف :

١ — الوصف من أدق موضوعات الشعر التى لا ينهض بها إلا نافذ البصيرة ، صافى الذهن ، دقيق الإحساس ، وقد برز فيه العرب ، وكان لشعرائهم حظ وافر ونصيب كبير منه . وكان شعرهم تصويراً صادقا لـكل ما وقعت عليه أنظارهم من أرض وسماء ، وشجر وجبال ، وحيوان ورمال ، ورياح وأمطار ، وبرق وسحاب . وقد أجادوا فى وصف المـــرأة ومحاسنها وطباعها ، ونبغوا فى وصف الخيل والإبل والبقر الوحشى ، كما أبدعوا فى وصف الليل وأهواله ، والعراك وآلاته ، وكل ما مر بهم من ظواهر الطبيعة وأحداث الحياة .

٢ — قال الأعشى يصف فرساً :

وقد أغتدى إذا صقع الدي   ك بمهر مشـــذب جوال[٣]
مدمج سابغ الضلوع طويل الشـ   ـخص عبل الشوى ممر الأعالى[٤]
يملأ العين عادياً ومقوداً   وممرى وصافناً فى الجلال[٥]
مستخفا على القياد ذفيفا   تم حسناً فصـــار كالتمثال[٦]

٣ — وقال عنترة بن الأخرس يصف ثعبانا :

لعلك تمنى من أراقم أرضنا   بأرقم يسقى السم من كل منطف[٧]

---

(١) غدائره : ذوائبه ، مستشزرات : مرتفعات ، والعقاص جمع عقيصة وهى الضفيرة .

(٢) الفتيت والفتات : اسم لدقاق الشىء الحاصل بالفت ، لم تنتطق : لم تلبس النطاق ، عن تفضل أى بعد لبس الفضلة كما يقال فلان استغنى عن فقر أى بعد فقر والفضلة ثوب واحد يلبس للخفة فى العمل : يريد أنها مخدومة لا خادم .

(٣) صقع : صاح . مشذب : مهذب .

(٤) مدمج : محكم . سابغ : عظيم . الشوى : الأطراف . الممر : المفتول .

(٥) الصافن : الذى يثنى سنبكه .

(٦) الذفيف : النشيط الحاد .

(٧) الأرقم : أخبث الحيات . المنطف : من نطف أى سال أى موضع السم .

تراه بأجواز الهشيم كأنما ... على متنه أخلاق برد مفوف[١]

كأن بضاحى جلده وسراته ... ومجمع ليتيه تهاويل زخرف[٢]

٤ — وقال امرؤ القيس يصف الفرس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل[٣]

مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل[٤]

مسح إذا ما السابحات على الونى ... أثرن الغبار بالكديد المركل[٥]

يزل الغلام الخف عن صهواته ... ويلوى بأثواب العنيف المثقل[٦]

درير . كخذروف الوليد أمره ... تتابع كفيه بخيط موصل[٧]

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[٨]

ضليع ،إذا استدبرته، سد فرجه ... بضاف فويق الأرض ليس بأعزل[٩]

كأن على المتنين منه إذا انتحى ... مداك عروس، أو صلاية حنظل[١٠]

كأن دماء الهاديات بنحره ... عصارة حناء بشيب مرجل[١١]

---

(١) الأجواز جمع جوز وهو الوسط . الهشيم: اليابس المتكسر من النبات غيره. المتن: الظهر . المفوف: المنقوش . (٢) السراة : الظهر . الليتان : عرقان فى جانبي العنق . التهاويل : النقوش، الزخرف : الزينة .

(٣) الوكنات عشاش الطير ، المنجرد : الماضى فى السير ، الأوابد : الوحوش ، هيكل ضخم .

(٤) مكر مفر : مقبل مدبر ، الجلمود : الحجر الصلب .

(٥) مسح : كثير الجرى ، والسابحات : الخيل التى تمد يدها فى عدوها . الونى : الضعف ، الكديد : الصلب ، والمركل : الذى يركل مرة بعد أخرى .

(٦) يزل يزلق . والخف : الخفيف .والصهوات جمع صهوة مقعد الراكب على ظهر الفرس. ويلوى : يرى . والعنيف المثقل : الحاذق الماهر .

(٧) درير : دار ، والخذروف حصاة مثقوبة يجعل الصبى فيها خيطا فيديرها على رأسه ، وأمره أحكم فتله .

(٨) أيطلا ظبى : خصراه . وإرخاء سرحان : عدو للذئب يشبه الخبب . والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين فى العدو والتتفل : ولد الثعلب .

(٩) ضليع : عظيم الأضلاع ، وضاف : سابغ . وأعزل . يميل عظيم ذنبه إلى أحد الشقين.

(١٠) المتنان : ما على يمين القفا وشمالها ، وانتحى: اعتمد ، ومداك العروس : الحجر يسحق به الطيب ، والصلاية : مدق الطيب . (١١) الهاديات : المتقدمات من الوحوش .

الاعتذار :

١ — هذا الغرض قليل فى شعر الجاهليين ، وفارسه الذى اشتهر به هو النابغة الذبيانى ، فاعتذارياته إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون الشعر الجاهلى .

٢ — فمن قوله فى ذلك :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى — وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى — هراسا به يعلى فراشى ويقشب[1]
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة — وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد أبلغت عنى خيانة — لمبلغك الواشى أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأ لى جانب — من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم — أحكم فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطفيتهم . — فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنى بالوعيد كأننى — إلى الناس مطلى به القار أجرب
فإن أك مظلوما فعبد ظلمته — وإن تك ذا عتب فمثلك يعتب
ولست بمستبق أخا لا تلمه — على شعث .أى الرجال المهذب ؟

٣ — ومن قوله كذلك :

فلا لعمر الذى مسحت كعبته — وما هريق على الأنصاب من جسد[2]
ما قلت من شىء مما أتيت به — إذن فلا رفعت سوطى إلى يدى
إذن فعاقبنى ربى معاقبة — قرت بها عين من يأتيك بالفند[3]
نبئت أن أبا قابوس أوعدنى — ولا قرار على زأر من الأسد
مهلا فداء لك الأقوام كلهمو — وما أثمر من مال ومن ولد

(١) الهراس بالفتح : شجر شائك . يقشب : يخيط .
(٢) الجسد : الدم . (٣) الفند : الكذب .

خصائص الشعر الجاهلى

— ١ —

كثرت فى العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد فى الزراية بالشعر الجاهلى ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ، وعيبه حيناً بخلوه من الشعر التمثيلى والقصصى ، وحيناً بتفككه وعدم وجود وحدة فى آثاره الفنية الباقية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها. وحيناً آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث .

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربى أو الأدب الجاهلى وحده محدوداً ضئيلا ، وآخرون قرأوا الأدب الجاهلى فلم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ، وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعوبية الحديثة التى نرى مظهرها باديا فى تنقص كل ما هو عربى أو قديم والتعصب لكل ما هو غربى أو حديث .

ولا شك أن فى أكثر آرائهم جوراً فى الحكومة الأدبية وإسرافاً ومغالاة كثيرين ، فلكل شعر جيد ـ كما يقول الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى ـ ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفنى المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم، ولكن بشرط أن يعدّوا لفهمه وتذوقه، وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل فى قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه ، فازدراء الشعر الجاهلى غلو ليس أقل إمعاناً فى الخطل من ازدراء الشعر الأجنبى .

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلى وتذوقه صعوبات كثيرة أهمها : صعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد ، ولكن ذلك

لا يمكن أو لا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفنى الرائع الذى نجده فى الشعر الجاهلى ، فضلا عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلى أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث أنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث أنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ، لا يمكن لذلك ولغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه وراءنا ظهريًّا .

فى الشعر الجاهلى جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات . وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفنى الذى يمثله الشعر الجاهلى . وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أى حد يصح أن نجارى هؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلى القديم ، وإلى أى مدى يصح أن نسير فى الدفاع عنه . فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية فى البحث والمناقشة .

— ٢ —

١ ـ أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلى : البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق فى الأداء ، وهذا شىء يسلمه النقاد للشعر الجاهلى تسليما . ويجزمون به وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون فى ذلك مايدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة فى الشعر الجاهلى هى نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد فى الأدب العربى الحديث : بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والإخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسناً له ، كما يقول الدكتور ضيف[1] .

(١) ١٨٢ مقدمه لدراسة بلاغة العرب .

٢ ـ ويمتاز الشعر الجاهلى أيضا بالزهد فى المحسنات وألوان التزيين الفنى ؛ وهذه سمة غالبة عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب ، ولقد كان الشعر المصرى الحديث فى أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعى الذى ورثه عن العصر التركى والعثمانى وأواخر العصر العباسى إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برأ الشعر الحديث من عاهته وسار طليقاً إلى غاياته . وقد ظهر فى الآداب الأوربية أيضاً صبغة الزخرف الفنى فى العصور الوسطى ؛ كما حدث فى الأدب الإنجليزى بعد عصر اليصابات ، وفى فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلى يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؟ ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟ .

٣ ـ ومن خصائص الشعر الجاهلى : متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأسره وللبيئة البدوية أثر بعيد فى ذلك ؛ وقد سار المحدثون فى العصر العباسى على هذا النهج حيناً ، وحيناً آخر أغرقوا فى العذوبة والسلاسة والسهولة التى ورثوا بعضها عن العصر الأموى ومدرسة العذريين التى شاعت فيه. وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والرقة ، ووقف آخرون يحددون موقف هذه وموقف تلك كابن الأثير فى المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا فى الشاعر وميلا منه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصرى المشهور . . ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبى ، وأرهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا فى حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التى تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية فى هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز فى إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة فى نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلبا ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة فى مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شىء ؛

كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغراباً وتعقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكلفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة فى قصائدهم إنما يفعلون ذلك تقليداً فحسب ، وفى مطلع حياتهم الفنية التى يكثر فيها الناشئون من التقليد ، ونحن على أى حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلى لجزالته ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة فى الشعر الجاهلى .

٤ — ومن خصائص الشعر الجاهلى أيضاً القصد إلى المعنى فى إيجاز ويسر وقلة إطناب ولا شك أن العصور الأدبية التى تلت العصر الجاهلى وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشعر عن هذا الاتجاه ودفعته إلى الإطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالإطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للإطناب مواضع وللإيجاز مواضع : كقدامة فى نقد النثر وابن سنان فى سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر : آثر الإيجاز أو اعمد إلى الإطناب ، وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدى معانيك فى رفق ويسر وقلة فضول ، وفى الآداب الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد فى التصوير البيانى والاكتفاء بشرح الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

٥ — ولا شك أن أهم طابع للشعر الجاهلى بعد الذى ذكرناه سابقا هو هذا الطابع البدوى الواضح الذى يفجؤك فى شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر للبيئة والحياة الجاهلية ، ونحن ندعو كما يدعو كل منصف إلى ترك هذا الاتجاه فى الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة فى القرن العشرين كما أن إبراز هذا الطابع البدوى فى شعر الشاعر المعاصر يكون تقليداً سخيفاً لا مبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة فى شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع فى الشعر الجاهلى :

ا — شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج ، فلأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمل والظليم والدمن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من بيد تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلما
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه ترمى

وهذه دعوة جديرة بالعناية، خليقة بالإيثار؛ وقد دعا المجددون فى الأدب الحديث ، وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدامى فى أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربى الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون غير مقلد فى معناه أو فى لفظه . ويكون صاحب هبة فنية فى نفسه وعقله ، يتأثر ببيئته ويؤثر فيها . ويمثلها فى جدها ولهوها ، وفرحها وحزنها، وسلامها وحربها، وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب — ومن آثار هذا الطابع البدوى فى الشعر الجاهلى أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بذكر الراح، وكتأبط شراً فى قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطـــل

والتى يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن قتيبة فى أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حاراً ، فقد صور نهـج العرب فى وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونهـا به من ذكر الديار والآثار ، ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة إلى الممدوح تخلصا إلى مدحه واستجلابا لرضائه وسنى ألطافه ، وقال : والشاعر المجيد من سلك هـــذه

الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام[١]. وقد سار الكثير من المخضرمين والإسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ، كما أكثر الكثير منهم من بدئها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذى دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح قال :

وصف الطلول بلاغة القــدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحـومل
غـير الريح رسمـه بجنوب وشمـأل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه . أليس هو الذى يقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد ثكلتك أمك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ومن يمن ليس الأعاريب عند الله من أحـد

ولكن ابن المعتز كان ناقداً يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيـه وتمثيله لحياة الشاعر وآرائه فى الحياة . . وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين فى القصيدة، ورأى ـ مع من رأوا ـ أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار[٢] وأنه ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس فى عصره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان[٣] . وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الفنى فى القصيدة ، فليس منهم ـ والحمد لله ـ من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ؛ ولكن معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه فى شعره أبداً ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكنا نقول إن المعيب هو التزام بدء القصيدة بوصف الأطلال القديمة تقليداً للجاهليين ، وإذا التزم شاعر معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته

(١) ١٤ و١٥ من الشعر والشعراء . (٢) ١٩٩ : ١ العمدة . (٣) ١٧٩ : ٢ المرجع .

وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج لم نحاسبه عن ذلك ، إلا إذا قيد هـذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملـكاته الأدبية فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملـكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة والإحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

جـ — وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى الموروث، وهى كثرة الغريب والوحشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى وحدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم .

وما أروع ما يقول صفى الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٧٥٠ هـ :

إنما الحيزبون والدردبيس والطخـا والنقاخ والعطلبيس
لغـة تنفر المسامع منهـــا حـين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحـ شى منهـا ويترك المأنوس
أين قولى : هذا كثيب قـديم ومقالى ، عقنقل قـدموس
إنما هـذه القلوب حـــديد ولذيـــذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن ـ والحمد لله ـ أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو يرتاح قلبه حين سماعها ، فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

— ٣ —

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه . أنصوغ أسلوبنا على الصور القديمة التى يمثلها الشعر الجاهلى ؛ أم نستمد صوره من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك ؛ لا شك أن الجمل كان عماد الحياة فى العصر الجاهلى، وفى أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه . فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه، ووطئه بمنسمه وضرسه بأنيابه ، وألقى عليه جرانه ، وناء وأناخ عليه بكلكله ، وقالوا لا ناقة فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول النقاد والبلاغيون فى العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التى تتجدد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة فى أساليبنا لنرضى العرب القدامى . أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضى الجرجانى وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى فى الرأى الثانى ضيراً أو ضرراً ، وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التى يولدها صوراً جديدة يستمدها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التى نعيش فيها ، والاختراعات التى تجدّ دائماً بيننا والتى نبعد اللغة عنها ونحاول ألا نستمد منها صورنا الأدبية .

وبعـد ، فهذه سمات الشعر الجاهلى والصلة الفنية بين حياتنا الفنية الحاضرة وما يصح وما لا يصح أن نقلده فيه .

مدارس الشعر الجاهلى

١ — مدرسة شعراء المعلقات

— ١ —

كان فيما أثر من أشعار العرب ، ونقل إلينا من تراثهم الحافل ، بضع قصائد من أجود الشعر وأدقه معنى ، وأوسعه خيالا ، وأبرعه أسلوبا ، وأسمحه لفظا ، وأعمقه معنى ، وأمده قافية ، وأصدقه تصويرا للحياة التى كان يحياها العرب فى جاهليتهم ، وقد سميت هذه القصائد بالمعلقات .

وهذه القصائد هى على المشهور المتداول :

١ — قصيدة امرئ القيس وأولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ‏ ‏ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢ — قصيدة زهير أبى سلمى وأولها :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تـكلم ‏ ‏ بحومانـــة الدراج فالمتثـــلم

٣ — قصيدة طرفة بن العبد ومطلعها :

لخولة أطـــلال ببرقـــة ثهمد ‏ ‏ تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

٤ — طويلة عنترة وأولها :

هـل غادر الشعراء من متردم ‏ ‏ أم هل عرفت الدار بعـــد توهم

٥ — قصيدة عمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هـــبى بصحنك فاصبحينـــا ‏ ‏ ولا تبقى خمـــور الأنـــدرينـــا

٦ — قصيدة لبيد وأولها :

عفت الديار محلهـــا فمقامهـــا ‏ ‏ بمنى تأبـــد غولها فرجامهـــا

٧ — طويلة الحارث بن حلزة ومطلعها :

آذنتنـــا ببينهـــا أسمـاء ‏ ‏ ‏ ‏ رب ثاو يمـل منـة الثواء

وهؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ماعدا لبيدا فإنه من المخضرمين ، وبعض الأدباء يجعله جاهليا وبعضهم يسقط من هؤلاء عنترة والحارث ويثبت الأعشى وقصيدته :

ما بـــكاء الـكبير بالأطلال ‏ ‏ ‏ ‏ وسؤالى وما ترد سؤالى

والنابغة فى قصيدته :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ‏ ‏ ‏ ‏ ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟

ويجعل بعضهم منها طويلة الأعشى ، وهى مدحته للنبى (صلى الله عليه وسلم) .

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ‏ ‏ ‏ ‏ وبت كما بات السليم مسهدا

وطويلة النابغة :

يا دار ميـــة بالعلياء فالسند ‏ ‏ ‏ ‏ أقوت وطال عليها سالف الأمد

وبعضهم يجعل منها قصيدة عبيد :

أقفر من أهـــله ملحوب ‏ ‏ ‏ ‏ فالقطبيـــات فالذنوب

وبعض الرواة يرى أن المعلقات ثمان ويجعلها بعضهم عشرا ويعدّ منها قصيدة الأعشى « ودع هريرة » .

على أن المختار أنها سبع ، ولعل منشأ الزيادة أن بعض الرواة كان يرى فيما يضيفه من القصائد ملامح التقديم وسمات الترجيح على بعض ما اعتبر ، فيضيفها من نفسه . وليس أدل على ذلك من اختيار قصيدة (ألم تغتمض عيناك) وادعاء أنها من المعلقات وهى إسلامية أنشدت للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهى مما لا يتعلق عليها خبر التعليق بحال فلم يعرف أنها علقت على الـكعبة ، أو قال ملك : علقوا لنا هذه .

— ٢ —

لم سميت هذه القصائد معلقات ؟

(١) يرى بعض المتقدمين من أدباء العرب أن هـذه القصائد التى جمعها حـماد

الرواية سميت المعلقات لأنها علقت على الكعبة تعظيما لأمرها وتنبيها على خطرها ودلالة على مكانها من الفضل ومنزلتها من الرفعة وجلالة الشأن ونفاسة القيمة .

ومن هؤلاء أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد فإنه قال : « الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة فمنه يقال : مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات » .

ومن قوله هذا نرى أن الاسم الأجدر بها عنده هو المذهبات لأنها تكتب بماء الذهب فى القباطى ، وأن تسميتها انتزعت من تعليقها على الكعبة ، وابن رشيق فى كتابه العمدة يحتج بتعليقها على الكعبة وإن كان يحكى الرأى الآخر القائل إنها لم تعلق على الكعبة .

يقول ابن رشيق : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر قال : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته » .

ويقول ابن خلدون(١) : « إن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس والنابغة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع ؛ فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مضر على ما قيل فى سبب تسميتها بالمعلقات » .

فابن خلدون يرى أنها سميت كذلك لتعليقها بأركان البيت الحرام وإن كان يبدو من عبارته أن الذى علق أكثر من هذه السبعة ، ولعله يرى أن هذه السبعة أنفس

(١) المقدمة ص ص ٨١ .

وأروع ما علق .. بيد أنا نختلف مع ابن خلدون فى أن الذى يتوصل إلى التعليق من له قدرة على ذلك بقوته وعصبيته ومكانه فى مضر، فإن الذى يبدو فيما أثر من الشعر الذى علق يعتمد لذلك على قوته الذاتية ومكانته الأدبية لا على حمية وعصبية .

ويرى البغدادى صاحب خزانة الأدب أنها سميت معلقات لتعليقها على الكعبة . . يقول : كان العرب فى جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتى مكة فى موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب ، قال أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤ هـ): وكانت العرب تجتمع فى كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش .

(ب) وأنكر بعض الأدباء تعليقها على الكعبة وحجتهم فى ذلك :

١ ــ أن خبر التعليق وصل إلينا مبهما غامضاً لم يبين كيفية التعليق ولا زمانه ولم يكشف عن الذين كتبوها أو الملوك الذين أمروا بتعليقها أو الحكام الذين حكموا لها بالتفوق والتقدم .

٢ ــ وأن الكعبة قد هدمت وجدد بناؤها على عهد رسول الله ﷺ ولم يذكر شيء عن هذه المعلقات ولا عما أصابها .

٣ ــ وأن العرب ما كان لهم أن يدنسوا الكعبة بما كان يشيع فى هذه القصائد من فسوق وهجر وفحش وهم الذين يعظمونها ويحجون إليها .

٤ ــ وأن الأشعار الجيدة التى أثرت للعرب كثيرة فلماذا لم يؤثر خبر التعليق إلا لهذه القصائد ؟

وزعيم هؤلاء أبو جعفر النحاس أحد شراح المعلقات فهو يقول : إن خبر تعليقها على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة وإن حماداً حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع، وقال : هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ويرى أن تسميتها بالمعلقات يرجع إلى أن الملك كان إذا استحسن قصيدة

قال: علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى . فابن النحاس يرى أنها كتبت وعلقت وإن كان ينكر تعليقها على الكعبة ثم لا يذكر من هو الملك الذى كان يستحسن القصيدة ويأمر بتعليقها فى خزانته .

ويرى المستشرق الألمانى الأستاذ نولدكى أنها لم تعلق على الكعبة كما يقال وأن الملقات معناها المنتخبات وإنما سماها جماعة بهذا الاسم تشبيها لها بالقلائد التى تعلق فى النحور واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط ومن معانى السموط القلائد .

ويرى هذا الرأى كذلك الأستاذ الفرنسى كليمان هيار مؤلف كتاب الأدب العربى .

ويرى الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندرى أن السبب فى تسميتها بالملقات أن العرب لم تكن تكتب فى دفاف وأنها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدونا وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من القرض أو نحو ذلك من دواب الأرض تأويل قوله تعالى : (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذى كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى طى الكتاب وتعليقه. ولو صح هذا لما اقتصر أمر التعليق على هذه القصائد فقط بل كان كل شاعر يحرص على أدبه ويحتفظ بشعره يلجأ إلى مثل هذا الصنيع .

ويحمل الأستاذ المرحوم مصطفى الرافعى حملة قوية عنيفة على خبر تعليقها على الكعبة ويقول ص ١٨٨ ج ٣ : ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ولا سمى تلك القصائد بهذا الاسم كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب الأغانى مع أن جميعهم أوردوا فى كتبهم نتفاً وأبياتاً منها وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغانى المتوفى سنه ٣٥٦ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ وقام بها فى موسم مكة . فلو كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة .

ومن العجيب أن يدعى المرحوم الرافعى أنه لم ير أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق مع أن ابن رشيق يقول إن خبر تعليقها على الكعبة ذكره غير واحد من العلماء .

(ج) هذا وقد رأينا فيما نقلنا من أقوال المعارضين لخبر التعليق حملة قوية عنيفة عليه . . والأمر فيما أرى أهون من أن نحمى له الحمية ونحتشد فى سبيل دفعه هذا الاحتشاد .

فالعرب كان من عادتهم إذا أرادوا أن يوثقوا أمراً أو يؤكدوا عهداً كتبوا به كتاباً وعلقوه فى جوف الكعبة تعظيما لشأنه ، أليسوا قد تعاهدوا أو اتفقوا على مقاطعة بنى هاشم فلا ينكحونهم ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم وكتبوا بذلك وثيقة ثم علقوها فى جوف الكعبة توكيداً لهذا الأمر على أنفسهم ، وما الذى كان يمنعهم من تعليق هذه القصائد وهم يرونها كتابهم الخالد وأسفارهم التى تنطق بمجدهم وتعلن عن مناقبهم وتشيع بين الأنام مفاخرهم ؛ ولقد كان ابن عباس يجلس فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع إلى شعر عمر بن أبى ربيعة مع ما فيه من غزل لا يقل عن غزل امرىء القيس ؛ وهذا عمر بن الخطاب ينكر على حسان إنشاده الشعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له : دعنى فلقد كنت أنشد فيه من هو خير منك فلا يغير علىّ شيئاً .

ولو كان يؤخر هذه الطوال عن تعليقها عندهم ما يبدو فيها من فحش وما يشيع من فجور ، لأخرها ذلك عن الشهرة وعاقها عن الانتشار وخاصة عند أشرافهم وعقلائهم والمتوقرين منهم ، وليس بمعقول أن يدعى حماد الراوية أنها علقت ليلفت الناس إليها ويدلهم على مكانها من البيان ومنزلتها فى البلاغة بمثل هذه الدعوى فإن ماتتسم به من إشراق وإبداع وسمو كفيل بجعل القلوب تتعلق بها والأنظار تلتفت إليها .

— ٣ —

ولقد أنكر بعض الأدباء صحة نسبة هذه القصائد لقائليها وادعى أنها منحولة وضعها أمثال حماد وخلف الأحمر . وهو شك لا يقوم عليه دليل ولا يسنده برهان

من عقل أو تاريخ أو تفكير سليم . فقد يستسيغ العقل أن تنحل أبيات فى قصيدة أو قصيدتين لشاعر ، أما أن تنحل مثل هذه القصائد كلها وتنسب إلى هؤلاء الشعراء فأمر يحيله العقل ويأباه المنطق الصحيح .

والذى نستطيع أن نخلص إليه من كل هذه المعارك أن هناك قصائد سبعاً أجمع الرواة على فحولتها وقوتها وارتفاعها عن جميع ما أثر للعرب من شعر وما جمع لهم من قصيد وأنهم سموا هذه القصائد الطوال أو المعلقات أو المذهبات أو السموط .

— ٤ —

ولقد شرح هذه القصائد أبو بكر البطليوسى المتوفى سنة ١٩٤ وأبو جعفر ابن النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وأبو على الثعالبى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وأبو زكريا بن الخطيب التبريزى سنة ٥٠٢ هـ والدميرى صاحب حياة الحيـــوان والزوزنى المتوفى سنة ٤٨١ هـ . وهى مشروحة فى كتاب الجمهرة .

— ٥ —

والناظر فى هذه القصائد يروعه ما تمتاز به من قوة السبك وتلاحم النسج وجودة الصوغ وحسن العبارة ولطف المعنى وسمو الأسلوب وتصويرها الرائع لحياة العرب وما كان يخامرها من أحداث ، ويتخللها من وقائع .

كما تمتاز بطولها الذى لم يعهد فى قصائد الجاهليين وتعدد أغراضها وتنوع مناحيها واشتمالها على كثير من المعانى التى قل أن تحتشد فى غيرها من القصائد فنزلتها من الشعر الجاهلى عامة فى أعلى مكان وأسمى منزلة وأرفع ذروة .

عرض عام للمعلقات

معلقة امرئ القيس

— ١ —

امرؤ القيس بن حجر الكندى إمام الشعراء الجاهليين . وأطولهم قصيداً ، وأبرعهم افتناناً ، وأوسعهم ميداناً . نشأ نشأة مترفة ، إذ كان أبوه ملكا على بنى أسد فتهيأ له من أسباب اللهو ماجعله يجنح إلى المجون ، ويألف الخلاعة ، ويدمن الخمر ، ويعكف على منازلة النساء ، وقد ضاق أبوه بذلك فطرده ، وظل سادراً فى لهوه حتى قتل أبوه ، فأفاق من عبث الشباب ، وظل يطالب بثأر أبيه فى رشد وعقل إلى أن مات .

وقد فتح فى الشعر أبواباً جديدة فى الغزل ووصف الخيل والصيد والنساء . واشتهر بكثرة التشبيهات المخترعة ، كتشبيه النساء بالظباء والبيض ، والفرس بالعقاب . وهو أول من قيد الأوابد ، ووقف واستوقف ، وبكى واستبكى .

أما معلقته فقد قالها فى زمن لهوه وعبثه ومجونه قبل مقتل أبيه ، فهى صورة لحياته الأولى ، تفيض باللهو والمجون ، وتنضح بالتشبيهات الرائعة ، والمعانى المبتكرة ، والموضوعات المنوعة .

ويقول الزوزنى إن سبب إنشاد هذه القصيدة : هو قصة غدير دارة جلجل حيث كان امرؤ القيس يحب ابنة عمه عنيزة ، فتركها تستحم فى هـذا الغدير مع أتراب لها وجمع ملابسهن ، ثم لم يعطها لهن إلا بعد مرورهن أمامه عاريات ، ثم ذبح لهن ناقته ، وقسم متاعه عليهن يحملنه ، وركب مع عنيزة فى هودجها .

— ٢ —

وقد بدأ امرؤ القيس معلقته ببكاء الديار : « قفا نبك الخ » ثم يستمر فى وصف الديار وآثارها حتى يقول :

وقوفا بهـــا صحبي على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وإن شفائى عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معول[١]

ثم يصف ذكريات لهوه وعبثه فيقول فيما يقول :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى ... فيا عجبا من كورها المتحمل[٢]

فظل العذارى يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل[٣]

ويوم دخلت الخـــدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلى[٤]

تقول[٥] وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

فقلت[٦] لها سيرى وأرخى زمامه ... ولا تبعدينى من جناك المعلل

فمثلك[٧] حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائم محول

ثم يستمر فى غزله :

أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى[٨]

فإن تك قد ساءتك منى خليقة ... فسلى ثيابى من ثيابك تنسل[٩]

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل[١٠]

إلى أن يقول :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل

---

(١) مهراقة : مراقة مسكوبة . المعول : المستعان به .

(٢) المطية هنا : الناقة . العذارى : الأبكار . الكور : الرحل . المتحمل : المحمول .

(٣) هداب الدمقس : أطراف الحرير . المفتل : المفتول .

(٤) الخدر : الهودج وهو فى الأصل الستر. عنيزة : اسم محبوبته . مرجلى : فاضحى بين رجالى.

(٥) الغبيط . الرحل : عقرت بعيرى : أدميت ظهره لثقله .

(٦) الجنى : الثمر . المعلل : الذى جنى مرة بعد مرة .

(٧) محول : مضى عليه حول .

(٨) أزمع الأمر : ثبت عزمه على إمضائه . الصرم : الهجر . الإجمال : الرفق .

(٩) الخليقة السجية . الثياب هنا : القلب . تنسل : تسقط .

(١٠) ذرف دمعه : سال . السهمان هنا هما العينان ، الأعشار : أجزاء الجزور الذى ينحر فى الميسر يأخذ منه السهم المعلى سبعة والرقيب ثلاثة . مقتل : أهلكه العشق .

تسلت عمايات الرجال عن الصبا ... وليس فؤادى عن هواك بمنسل [1]

أغرك منى أن حبك قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ثم يصف الليل وطوله فيقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى [2]

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل [3]

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل [4]

ثم يصف فرسه فيقول :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل [5]

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل [6]

ثم يذكر الصيد وطهى الطهاة له وسط الصحراء :

فظل طهاة اللحم ما بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجل [7]

ثم يصف البرق والمطر فى عذوبة وسحر وجمال وقد تقدم فى النماذج .

معلقة زهير

— ١ —

زهير بن أبى سلمى المزنى المضرى . نشأ فى بيت شعر ، إذ كان أبوه شاعراً وأخته سلمى شاعرة . وتخرج على خاله بشامة بن الغدير الشاعر وعلى أوس بن حجر . فكان

---

(١) تسلت : تكشفت وانزاحت . عمايات : ضلالات وغوايات . منسل : سال .

(٢) السدول . الستور . يبتلى : يختبر .

(٣) الصلب ، الظهر . الأعجاز : المآخير . الكلكل : الصدر . ناء : نهض .

(٤) مغار : محكم شديد . يذبل : اسم جبل . يصف نجوم الليل بالثبات .

(٥) وكنات : جمع وكنة وهى العش . منجرد : قصير الشعر دقيقه . الأوابد : الوحوش النافرة . (٦) مكر مفر : سريع الكر والفر ، عل : فوق .

(٧) الطهاة جمع طاه وهو الطباخ . لحم صفيف : صف على النار ليشوى أو فى الشمس ليقدد . قدير : مطبوخ فى القدر .

من فحول الشعراء الجاهليين ، وأعفهم قولا وأكثرهم تهذيبا لشعره . واختص بمدح هرم بن سنان ، وامتاز شعره بكثرة الحكم والأمثال، وبالإيجاز والتجويد والتنقيح، وقد عرف بالمدح والحكمة . وقد فضّله عمر لأنه كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتتبع الحوشى ، ولا يقول إلا الصدق .

أما معلقته فموضوعها الدعوة إلى السلم والتنفير من الحرب ومدح هرم بن سنان والحارث بن عوف لسعيهما فى الصلح وتحملهما الديات فى حرب داحس والغبراء . وهى من روائع المعلقات ، وأنبلها غرضا ، وأعفها قولا ، وأكثرها حكمة .

— ٢ —

بدأ زهير معلقته بذكر الديار وزيارته لهـا ووقوفه بها بعد عشرين عاما طوالا يتذكر عهود صباه ، قال :

أمن أم أوفى دمنـة لم تـكلم ... بحـومانة الدراج فالمتثلم(١)

وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأياً عرفت الديار بعـد توهم(٢)

فلما عرفت الدار قلت لربعها : ... ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم

ثم أخذ يصف النساء اللاتى ارتحلن عنها ، فيتبعهن ببصره كئيبا حزينا، ويصف الطريق التى سلكنها ، والهوادج التى كن فيها ، والمياه التى نزلنها فى عذوبة وسهولة وجمال . . إلى أن يقول :

فلما وردن المـاء زرقا جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم(٣)

تذكرنى الأحلام ليلى ومن تطف ... عليه خيالات الأحبة يحلم

---

(١) أم أوفى : محبوبة الشاعر. الدمنة : آثار الديار. تـكلم: تتكلم. حومانة الدراج والمتثلم: موضعان .

(٢) الحجة : السنة . لأيا : أى بعد لأى ومشقة . توهم : ظن .

(٣) جمام الماء : ما اجتمع منه . والجمام الزرق : المياه الصافية . وضع العصى كناية عن الإقامة . الحاضر : النازل على الماء . المتخيم : المقيم .

ثم انتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بمنقبتهما الكريمة فى إنقاذ السلام ، وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان ، وتحملهما ديات القتلى من مالهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير . قال :

سعى[١] ساعيا «غيظ بن مرة» بعدما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم

فأقسمت[٢] بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجُرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم[٣]

تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[٤]

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم[٥]

فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم[٦]

ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ، ودعا إلى السلم وأكده وأوجبه على المتحاربين ، قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم[٧]

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم[٨]

وينصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ويندد بالحصين بن ضمضم وبآثار عمله فى تهييج الشر وإعادة نار الحرب ، وكان الحصين حين اجتمع القوم للصلح قد حمل على رجل له عنده ثأر فى الحرب فقتله ، ويعيد التنويه بالرجلين اللذين احتملا ديات القتلى واحداً واحداً على غير جريرة كانت منهما .

ثم انتقل من هذا المجال، مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام إلى مجال الحكمة

---

(١) غيظ بن مرة من غطفان اسم جد القبيلة . تبزل : تفجر . الساعيان: هما هرم والحارث.

(٢) البيت : الكعبة . (٣) السحيل : ضد المبرم . والمبرم ، المفتول ، والسحيل كناية عن الرخاء والمبرم عن الشدة .

(٤) منشم : امرأة من خزاعة كانت تبيع عطراً فإذا حاربوا اشتروا منها كافورا لموتاهم .

(٥) واسعا ممكنا أو خالصا . (٦) العقوق : قطيعة الرحم . المأثم : الإثم والعدوان .

(٧) المرجم: المظنون . (٨) ضريته فضرى أى هجته فهاج . تضرم: تشعل .

الإنسانية العامة ، حكمة الرجل المجرب للحياة الذى ذاقها وخبرها وعاش فى خضمها ثم امتد به العمر فزهدها وانصرف عنها قال :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم[1]
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم[2]
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ويختمها بتأكيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن يكثر التسآل يوما سيحرم

معلقة طرفة

— ١ —

طرفة بن العبد البكرى أحد فحول شعراء الجاهلية، مات أبوه وهو صغير، وربّاه أعمامه ، فنشأ ميالا إلى البطالة واللهو والخمر ، يقول الشعر ويهجو الناس والملوك ، وقد اتصل بعمرو بن هند ، فأكرمه، ثم تغيّر عليه فقتله. وهو من أوصف الناس للناقة، ولذات الشباب . وكان يميل إلى الغريب من اللفظ . وقد اشتهر بالوصف والحكمة .

أما معلقته فهى أطول المعلقات ، إذ بلغت أبياتها خمسة ومائة بيت ؛ وتمتاز بالابتكار فى المعانى والسهولة فى الألفاظ ، ما عدا وصف الناقة؛ وهى على العموم تصور حياة الترف واللذة وعدم المبالاة .

---

(١) المصانعة : المداراة . يضرس : يمضغ بالأضراس . المنسم : الحافر .
(٢) يفره : أى يصونه ويبقيه .

وتمتاز المعلقة بوفرة معانيها وتنوع أغراضها وجمعها بين السهولة والغرابة فى اللفظ ، وبين الرقة والمتانة فى الأسلوب ، وبين الحكمة واللهو والجد والهزل فى النهج والحياة ؛ وتصور الشاعر وحياته وأمانيه ومطامحه ولذاته ولهوه وبيئته والحياة فيها تصويراً جيلا رائعاً بالغاً حد الدقة والإحكام والجمال .

— ٢ —

بدأها الشاعر بالغزل فذكر أطلال خولة محبوبته ووقف عليها وبكاها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقوفا بها صحبى على مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ثم يذكر قباب خولة وهى ظاعنة ويشبهها بالسفينة تشبيها جيلا قويًّا :

كأن حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طوراً ويهتدى

يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايل باليد[1]

ثم يصف جمال محبوبته وينعتها نعتاً جيلا قويًّا مؤثراً عذباً يدل على امتلاء نفسه بالحب وعلى خضوعه لأسر الجمال :

وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن   مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد[2]

---

(١) الحدوج : القباب المالكية هى خولة . الخلايا : جمع خلية وهى السفينة الكبيرة . النواصف : مجارى الماء إلى البحر . دد : أرض معروفة . وعدولية : أى قديمة ، وهى الكبيرة من السفن ، وتنسب إلى موضع يقال له عدولى ، وابن يامن : ملاح قديم من أهل البحرين . تجور : يضل ، يهتدى : أى يعرف طريق السير .

حباب الماء : طرائقه وما ارتفع منه ، الحيزوم : الصدر ، المفايل : الذى يجمع تراباً ويخبء فيه شيئاً مثل الحلقة ويقسم الترب نصفين ويطلبه فى إحداها فإن أصاب ظفر وإن أخطأ خسر .

(٢) أحوى : فى لونه حوة وهى السواد ، والمراد : شجر الأراك . الشادن : ولد الظبية إذا قوى ، سمطى: خيطى . مظاهر: يضع واحدا على آخر. اللؤلؤ والزبرجد: جوهران معروفان.

وتبسم عن ألمى كأن منوراً   تخلل حر الرمل دعص له ندى[١]

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها   عليه ، نقى اللون لم يتخدد[٢]

ثم يأخذ الشاعر فى وصف ناقته فيجىء به فى لفظ غامض ، فيقول :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره   بهوجاء مرقال تروح وتغتدى[٣]

أمون كألواح الأران نسأتها   على لاحب كأنه ظهر برجد[٤]

إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت   مخافة ملوى من القد محصد[٥]

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى   ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى[٦]

وجاشت إليه النفس خوفا وخاله   مصابا ولو أمسى على غير مرصد[٧]

ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويفرغ لها ويصف فتوته وكرمه ولذاته ومجونه ولهوه بشرب الراح وأثر ذلك كله فى مكانته فى قبيلته ، كل ذلك فى وضوح وسهولة فيقول :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أننى   عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد[٨]

---

(١) تبسم : يفتر ثغرها . اللمى : سواد فى الشفة . المنور : الأقحوان . تخلله : توسطه ودخل فيه . حر الرمل : النقى منه . الدعص : الكثيب الصغير من الرمل . الندى : من صفة الأقحوان يصفه بالنداوة .

(٢) حلت : ألقت . رداءها : بهاءها . يتخدد : يضطرب حتى تصير فيه شقوق .

(٣) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد ، ويروى بعوجاء وهى المهزولة . مرقال صفة للناقة ، أى كثيرة الإرقال ، وهو شدة السير .

(٤) الأمون : المأمونة العثار . الأران : التابوت الذى تحمل فيه الموتى . نسأتها : زجرتها . اللاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء من أكسية العرب . شبه استقامة الطريق بخط أبيض يكون فى الكساء من قطن .

(٥) الأرقال : ضرب من السير . القد : السوط . المحصد : المحكم الفتل .

(٦) الضمير فى « منها » للمفازة والبرية .

(٧) جاشت : علت . خاله : ظن نفسه ، ولو أمسى الخ . أى ولو أمسى لا يرصد ولا يخاف .

(٨) أتبلد : أتحير . الكسل : العجز .

ولست بحـــلال التلاع مخافة ولـكن متى يسترفد القوم أرفد[١]
وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاق طريفي ومتلدي[٢]
إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد[٣]
رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد[٤]
ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملـكت يدي

ويعتد بلذاته اعتداداً كبيراً ويذكرها :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالمـاء تزبد[٥]
وكري إذا نادى المضاف مجنبا كسيد الغضا ـ نبهته ـ المتورد[٦]
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمد[٧]

أي شرب الراح ، وركوب الخيل ، واللهو مع امرأة جميلة .

ثم ينتقل إلى عتاب ابن عمه مالك :

فمالي أراني وابن عمي مالـكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد
وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه على رمس ملحد

---

(١) التلاع : الأرض المرتفعة والمنخفضة ،والمراد هنا المعنى الثاني لأن البخيل يحل في الأماكن المنخفضة ؛ لئلا يراه أحد ، وأرى أنه يجوز أن يحل في الأماكن المرتفعة حتى لا يصل إليه أحد .

(٢) الطريف : المـكتسب . التليد أو المتلد : الموروث .

(٣) تحامتني : اجتنبتني . العشيرة : بنو العم . أفردت : أبعدت . المعبـــد : المذلل المطلي بالقطران .

(٤) بنو غبراء : اللصوص . الطراف : بيت من جلد . يريد أنه لا ينكره صعلوك ولا غني .

(٥) كميت : خمرة تضرب إلى السواد ، تعل : أي يصب المـاء عليها .

(٦) كري : عطفي ، المضاف : الذي أضافته الهموم . المجنب : الفرس المعوجـة الساقين ، السيد : الذئب . الغضا : شجر .

(٧) الدجن : المطر الخفيف ، معجب:أي يعجب من رآه،البهكنة :التامة الخلق أو الحسناء .

فلو كان مولاى امرأ هو غيره لفرج كربى أو لأنظرنى غدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

ثم يعود إلى التحدث عن نفسه ووصفها بالذكاء والشجاعة، ويتنبأ بموته ويطلب من ابنة أخيه معبد أن تبكيه إذا مات :

إذا مت فانعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرئ ليس همه كهمى ولايغنى غنائى ومشهدى

وهو فى هذا البيت يعرض بابن عمه .

وينتقل إلى الحكمة . فيأتى منها بحكم رائعة وأمثال بليغة رويت على مر الزمان :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
لعمرك ما أدرى وإنى لواجل أفى اليوم إقدام المنية أو غـد
إذا أنت لم تنفع بودك أهله ولم تنك[1] بالبؤسى عدوك فابعد

معلقة عنترة

— ١ —

هو عنترة بن شداد العبسى، أمه حبشية ؛ وكان أبوه يعده فى صفوف العبيد ، إلى أن أبلى فى حرب عبس مع طيء ، وكان سبباً فى نصرة قومه، فألحقه أبوه به ثم تزوج بابنة عمه عبلة ، بعد أن انتصر فى داحس والغبراء . فهو إذن فارس الشعراء وشاعر الفرسان ، وقد اشتهر بالحماسة والفخر والغزل .

ومعلقته من أشهر شعره وأروعه ، فهى تصوير لنفسيته وحبه وشجاعته .

(١) نكى عدوه : ألحق به العطب والضرر .

— ٢ —

بدأها عنترة بالغزال فى ابنة عمه عبلة ومخاطبة دارها ذات الذكريات الجميلة، فقال :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم[١]
يادار عبلة بالجواء تكلمى   وعمى صباحا دار عبلة واسلمى[٢]
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا   بالحزن فالضمان فالمتثلم

واستطرد إلى وصف الروضة .

أو روضة أنفاً تضمن نبتها   غيث قليل الدمن ليس بمعلم[٣]
جادت عليه كل بكر حرة   فتركن كل قرارة كالدرهم[٤]
وخلا الذباب بها فليس ببارح   غردا كفعل الشارب المترنم[٥]
هزجاً يحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم[٦]

ثم يصف ناقته فى أبيات كأبيات طرفة تمتاز بالغرابة :

هل تبلغنى دارها شدنية   لعنت بمحروم الشراب مصرم[٧]

ثم يفتخر بنفسه وشجاعته :

أثنى علىّ بما علمت فإننى   سهل مخالطتى إذا لم أظلم

---

(١) غادر : ترك . متردم : شىء يصلح لم يكونوا أصلحوه ، التوهم : الوهم .

(٢) الجواء : بلد فى نجد من أماكن عبس . عمى : أى أنعمى .

(٣) الأنف : التام فى كل شىء . الدمن : المطر الخفيف . الغيث : المطر المعلم: ذو العلامة.

(٤) جادت من الجود وهو المطر الكثير . البكر : السحابة فى أول الربيع . والحرة : البيضاء القرارة : القاع . وكالدرهم ، يعنى فى البياض والاستدارة .

(٥) خلا : انفرد ، بارح . تارك : غردا : مترنما .

(٦) الهزج : السريع الصوت . قدح المكب : أى الذى أكب على الزناد يقدحه، الأجذم: مقطوع اليد .

(٧) تبلغنى: توصلنى . دارها: منزلها . شدنية: ناقة . لعنت: جف ضرعها. محروم الشراب: أى ضرع لا لبن فيه . مصرم : جاف .

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل ... مر مــذاقته كطعم العلقم

وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

ويستمر فى التنويه بشجاعته إلى أن يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم[1]

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم[2]

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

ويختتمها بتهديد ابنى ضمضم وكانا قد نذرا دمه وتربصا له لأنه قتل أباهما فى الحرب ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لم ألقهما دمى

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم[3]

---

(١) أشطان : حبال . لبان : صدر . الأدهم : الفرس الأسود .

(٢) الثغرة : الهزمة التى فى الحلق . اللبان : الصدر . تسربل : لبس السربال .

(٣) جزر السباع : أى طعمة لها . القشعم : الكبير من النسور .

معلقة لبيد

— ١ —

هو لبيد بن ربيعة العامرى المضرى، أدرك الإسلام، ولم يؤثر عنه فيه شعر إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجـــلى   حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وكان شاعراً مجيداً ؛ شهد له النابغة حين سمع معلقته بأنه أشعر هوازن ، وقد أجاد فى الفخر والرثاء ، وهو من المعمرين ، توفى سنة ٤١ هـ .

— ٢ —

بدأ ملعقته ببكاء الأطلال ووصفها فقال :

عفت الديار محلها فمقامهـا   بمنى تأبد غولهـــا فرجامها[١]

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجـــد متونهـــا أقلامها[٢]

فوقفت أسألها ، وكيف سؤالنا   صما خوالد ما يبين كلامها[٣]

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من « نوار » وقد نأت   وتقطعت أسبابها ورمامها[٤]

مرية ، حلت بفيد ، وجاورت   أهل الحجاز فأين منك مرامها[٥]

ويرى أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ما دامت نوار قد تغير وصلها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلة صرامها[٦]

---

(١) عفت : درست . المحل والمقام : موضع الحلول والإقامـة . منى : موضع قريب من طخفة . تأبد : توحش . الغول : ماء معروف للضباب بجوف طخفة به نخل . الرجام : جبـال بقارعة الحمى حمى ضرية .

(٢) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تجدد ظهورها . والزبر : جمع زبور وهو الكتاب .

(٣) صم : جمع صماء . خوالد : بواق جمع خالدة . والصم البواقى هى الأثافى . يبين : يظهر .

(٤) نوار : اسم حبيبته . الرمام : جمع رمة وهى القطعة من الحبل البالى . يريد أن الوصل تقطعت به الأسباب .

(٥) مرية : تنسب إلى مرة بن عوف . فيد : موضع فى طريق مكة . مرامها : منالها .

(٦) اللبانة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة بضم الخاء : الصداقة .

ثم يأخذ فى وصف ناقته فى لفظ غريب وتعبير بدوى متين ؛ يطيل فى هذا الوصف ، ويشبهها بالأتان الوحشية وبالظبية الرؤوم المفجوعة إلى أن يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى   واجتاب أردية السراب أكامها [١]

أقضى اللبانة لا أفرط ريبة   أو أن يلوم بحاجة لوامها [٢]

أو لم تكن تدرى نوار بأننى   وصال عقد حبائل جذامها [٣]

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

ثم يتحدث عن نفسه وعزتها ، ولذات الراح التى شارك فيها ، وشجاعته وبطولته فى مواقف النزال والنضال ، وكرمه وسخائه ونواله للجار الفقير والضيف النازل والجار الغريب وللبائسين والمساكين :

وجزور أيسار دعوت لحتفها   بمغالق متشابه أعلامها [٤]

فالضيف والجار الغريب كأنما   هبطا تبالة مخصبا أهضامها [٥]

تأوى إلى الأطناب كل رزية   مثل البلية قالص أهدامها [٦]

ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وإمامها

---

(١) رقص : ارتفع . اللوامع بالضحى : يعنى الآل . اجتاب : لبس . أردية جمع رداء . السراب : ما يتراءى للسائر فى الصحراء من شبه الماء مما يكون لازقا بالقيعان . أكامها : جمع أكمة .

(٢) اللبانة : الحاجة ، لا أفرط : أى لا أترك . الريبة ، الشك والمخافة . أن يلوم : أى أن لا يلوم .

(٣) أى أصل وأقطع . وهذا مذهب لا يرتضيه المتيمون فى الحب .

(٤) الأيسار : الذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح . المغالق : جمع مغلاق وهو السابع من سهام الميسر . متشابه أى يشبه بعضه بعضا .

(٥) تبالة : قرية فى نجد مشهورة بالخصب . أهضام : جمع هضيم وهى بطون الأرض المطمئنة .

(٦) الرزية : المرأة التى قد أرزها أهلها أى أهزلها . البلية : ناقة الرجل تعقل عند قبره حتى تموت . الأطناب : حبال الفساطيط . الأهدام : الخلقان . قالص : قصير مرتفع .

فبنوا لنا بيتا رفيعا سمكه ... فسما إليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما ... قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر ... أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت ... وهمو فوارسها وهم حكامها[1]
وهمو ربيع للمجاور فيهم ... والمرملات إذا تطاول عامها

معلقة الحارث بن حلزة

— ١ —

الحارث بن حلزة أحد فحول الشعراء المقلين ، وأقدرهم على الارتجال ، وأبلغهم فى الفخر .

ومعلقته هى ومعلقة عمرو بن كلثوم قيلتا فى يوم واحد، بل فى مجلس واحد ، على ما يقول بعض الرواة ، وإحداهما رد على الأخرى فى المفاخرة فقد أنشدتا فى مجلس عمرو ابن هند ملك الحيرة .

— ٢ —

بدأ الحارث معلقته بالغزل فقال :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء[2]
بعد عهد لنا ببرقة شما ... ء فأدنى ديارها الخلصاء[3]

ثم انتقل إلى وصف الناقة فقال :

غير أنى قد أستعين على الهم ... إذا خف بالثوى النجاء
بزفوف كأنها هقلة أم ... رئال دوية سقفاء[4]

---

(١) الساعى : المصلح . أفظعت : ابتليت .

(٢) الإيذان : الإعلام . الثواء : الإقامة . (٣) مواضع .

(٤) الزفوف : السريعة . الهقلة : النعامة . الرئال : جمع رأل ولد النعامة . الدوية : نسبة إلى الدو : أى المفازة . سقفاء : طويلة فى انحناء .

ثم ينتقل إلى الموضوع فيقول :

إن إخواننا الأراقم يغـــلو ن علينا ، فى قيلهم إحفاء[١]
يخلطون البرىء منا بذى الذنـ ـب ولا ينفع الخلى الخــلاء[٢]
أجمعوا أمرهم عشاء ، فلمـــا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب، ومن تصـ ـهال خيـل خـلال ذاك رغاء

ويرد على عمرو فيقول :

أيها الناطق المرقش عنـــا عند «عمرو» وهل لذاك بقاء ؟[٣]
فبقينا على غراتـــك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعـداء[٤]
فبقينا على الشنـــاءة تنميـ ـنا حصون وعزة قعساء[٥]

ثم يمدح الملك عمرو بن هند حيناً ويستمر فى عتاب إخوانه من تغلب حيناً آخر :

ملك مقسط ، وأفضل من يمشـ ـى ، ومن دون ما لديه الثناء[٦]
أيما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشى بها الأملاء[٧]

ويسير على هذا النهج من المدح والعتاب .

ثم يفتخر بقومه ومجدهم وأيامهم فى صدق وجمال وقوة عاطفة :

هل علمتم أيام ينتهب النـا س غواراً لكل حى عواء[٨]

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التى يصح لنا أن نعدها ملحمة شعرية مصغرة تنطق بمجد بكر ومفاخرها فى الحرب والسلم فى الجاهلية .

---

(١) الأراقم : بطون من تغلب . القيل : القول . إحفاء : إلحاح .
(٢) الخلى : البرىء الخالى من الذنب .
(٣) الناطق المرقش : أى الواشى المنمق أكاذيبه ووشاياته وأباطيله .
(٤) الغراة : اسم بمعنى الإغراء . (٥) الشناءة : البغضاء . تنمينا : ترفعنا .
(٦) مقسط : عادل .
(٧) الخطة الأمر العظيم الذى يحتاج إلى المخلص منه . أدوها أى فوضوها . الأملاء : الجماعات من الأشراف .
(٨) الغوار للمغاورة . العواء صوت الذئب وهو مستعار للضجيج والصياح .

معلقة عمرو بن كلثوم

— ١ —

عمرو بن كلثوم سيد تغلب وفارسها ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم المشهرين بقصيدة واحدة ، والمجيدين للفخر ، ويمتاز فى شعره بالبديهة والارتجال ، وبأسلوبه السهل الواضح العذب .

ومعلقته مشهورة بالرقة والسلاسة والسهولة ، وهى فى الفخر ، ولـكنه بالغ فيه فى أبيات كثيرة منها . ويقول ابن قتيبة : إنها من جيد شعر العرب .

— ٢ —

بدأها عمرو بوصف الخمر ، ولم تبدأ قصيدة بوصف الخمر فى الجاهلية إلا هـــذه القصيدة فقال :

الا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا(١)
مشعشعة كأن الحص فيهـا   إذا ما المـاء خالطها سخينا(٢)
صددت الـكأس عنا أم عمرو   وكان الـكأس مجراها اليمينا(٣)
وما شـــر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذى لا تصبحينا(٤)
وكأس قد شربت ببعلبك   وأخرى فى دمشق وقاصرينا(٥)
إذا صمدت حمياها أريبـــا   من الفتيان خلت به جنونا(٦)

ثم يأخذ فى الغزل ووصف محبوبته وجمالها :

قفى قبـــل التفرق يا ظعينا   نخبرك اليقـــين وتخبرينا

---

(١) هبي : استيقظى . الصحن : القدح العريض . أصبحينا : اسقينا الصبوح وهو الشرب فى الغداة . الأندرينا : جمع الأندر وهى قرية بالشام جمعها بماحواليها .

(٢) مشعشعة : ممزوجة . الحص : الورس . سخينا : جدنا وتـكرمنا من السخاء .

(٣) صددت أى صرفت . أم عمرو هى والدته .

(٤) أى لست أنا شر الثلاثة فتعدلى عنى الـكأس .

(٥) بلاد معروفة .   (٦) صمدت قصدت . الحميا سورة الراح . الأريب العاقل .

قفى نسألك هل أحدثت صرماً   لو شك البين أم خنت الأمينا[١]
أفى ليـــلى يعاتبنى أبوها   وإخوتها وهم لى ظالمونا

ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ومجدهم وعزتهم ، ويهدد الملك عمرو بن هند وينذره ويتوعده فى أسلوب قوى جزل مع عذوبة وجمال ، والظاهر أن ذلك كان أيام التحاكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر :

أبا هنـد فـلا تعجل علينـا   وأنظرنا نخـبرك اليقينا
بأنا نـورد الرايات بيضا   ونصدرهن حمراً قـد روينـا
وأيام لنـا غر طـوال   عصينا الملك فيها أن نـدينا
ورثنا المجـد قـد علمت معـد   نطاعن دونه حتى يبينا

والجزء التالى من المعلقة يبدو أنه نظم بعد قتل عمرو بن هند ، وهو :

بأى مشيئة عمرو بن هنـد   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهـددنا وتوعـدنا رويـداً   متى كنا لأمـك مقتوينا[٢]
وأن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعـداء قبلك أن تلينا

ثم ينتقل إلى ذكر وقائع قومه مفتخراً بها على بكر ، ومنها يوم خزازى ، ثم يختمها بفخره القوى ، ومنه :

وأنـا الحاكمون بمـا أردنا   وأنا النـازلون بحيث شينا
وأنـا النازلون بكل ثغر   يخـاف النازلون به المنونـا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحـد علينـا   فنجهل فوق جهـل الجاهلينا

---

(١) الصرم : الهجر . الوشك : السرعة . البين : الفراق . الأمين : الوفى بعهده .
(٢) أى خدما جمع مقتو وهو الخادم .

٢ — مدرسة الشعراء الصعاليك[1]

شعر الصعاليك ، هو نوع من الفنون الأدبية الصادرة عن تلك الطائفة الخاصة من الشعراء الذين تميزوا بالشجاعة والحمية فى قلوبهم ، والقوة والفتوة فى أجسامهم ، ولكنهم كانوا فقراء ضاقوا بالحرمان ، وتبرموا بالفقر وحقدوا على الأغنياء وثاروا على الأنظمة المالية المستبدة ، فراحوا يغنمون — عن طريق القوة والبطش — بما حرموا منه ، ووجدوا السعادة كل السعادة فى أن يثأروا لأنفسهم وللفقراء من أمثالهم من ذوى الغنى واليسار ، وقد وحد بينهم الحرمان وألف بينهم المبدأ . فعطف بعضهم على بعض وتقاسموا فيما بينهم ما كانوا يغنمون ، وقد آوى بعضهم الصعاليك العاجزين عما قدروا عليه من السلب والنهب كعروة بن الورد الذى يقول فيه عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد .

وقد عرف هؤلاء بالشعراء الصعاليك أو اللصوص أو العدائين ، لما كانوا يمتازون به من سرعة الحركة والخفة ، وشدة العدو والخبرة بدروب الصحراء ، ومن أشهرهم فى العصر الجاهلى : عروة بن الورد ، وكان يلقب بعروة الصعاليك، لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى ، ومنهم تأبط شراً[2] والشنفرى ، وسليك بن السلكة .

وكانوا يفخرون بالصعلكة لأنها — فى نظرهم — شيمة الشجعان والأقوياء ويتغنون بالأنفة والكرم والمحبة وشدة البأس وقوة الشكيمة وعدم الخوف من

---

(١) فى القاموس . صعلكه : أفقره ، والصعلوك الفقير ، وتصعلك: افتقر ، وذؤبان العرب: لصوصهم وصعاليكهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح بصعاليك المهاجرين : أى يستنصر بفقرائهم ، فالصعلوك : هو الفقير الذى لا مال له ، وقد تطور مدلول الكلمة فيما بعد ، والمعروف أن هؤلاء الشعراء الصعاليك لم يكونوا فقراء فحسب ، بل كانوا كذلك أقوياء شجعانا ، وكانوا يضيقون بالفروق بين الأغنياء والفقراء . (٢) يقال إنه تأبط سكيناً ذات يوم وخرج، فسئلت عنه أمه فقالت لا أدرى إنه تأبط شراً وخرج ، فسمى بذلك .

التهديد والوعيد ، كما كانوا يباهون بغامراتهم وبصبرهم على الشدة ، واحتمالهم الجوع وإيثارهم له على أن يكون لأحد نعمة عليهم ، والظاهر أنهم كانوا لا يهجمون إلا على البخلاء فقط من الأغنياء .

ولقد كان أدبهم أو أكثره مقطوعات لا قصائد ، ولعل مردّ ذلك إلى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس ، لم يألفوا التمهل والتروى ، فجاء شعرهم صورة من حياتهم . كما يتميز أدبهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه غزل ولا بكاء أطلال أو نحو ذلك .

وشعرهم على العموم يصوّر ضرباً من ضروب الحياة العربية ، ويسجل أعمالهم ونفسياتهم ، فهو صدى للواقع ، وصورة للحقيقة ، ولهذا لا نجد فيه الشعر الغزل ، وكيف يتغزّل من يقضى نهاره يترقب ، وليله يترصد ، ولا يستقر فى مقام ؟[١]

ولذا يعد شعر الصعاليك مرآة صافية تنعكس عليها حياة البادية . وهذه أمثلة لأشعارهم تعطى صورة عما كان يضطرم فى مشاعرهم وإحساساتهم .

١ — من شعر تأبط شراً[٢] :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جَده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر[٣]

ولـكن أخو الحزم الذى ليس نازلا ... به الخطب إلا وهو للقصد مبصر[٤]

---

(١) راجع الأغانى ج ٣ ص ٧٣ ، محاضرات فى الأدب العربى للدكتور عبد الحميد المسلوت.

(٢) هو ثابت بن جابر الفهمى ، وفهم : إحدى قبائل قيس غيلان المضرية ، وقد نسجت حوله الأساطير ، والمعروف عنه أنه عداء ولص من أدهى اللصوص وأشدهم فتكا ، وقد قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار . أما مناسبة النص فقد روى أن بنى لحيان أخذوا عليه طريق جبل وجدوه فيه يجنى عسلا ، ولم يكن له طريق غيره ، فأقبلوا عليه وقالوا : استأسر أو نقتلك ، فـكره أن يستأسر وصب ما معه من العسل على الصخر ووضع نفسه عليه حتى انتهى إلى الأرض من غير طريقهم ، فصار بينه وبينهم ثلاثة أيام ونجا منهم .

(٣) الحيلة : الحذق فى تدبر الأمور ، والجد : الحظ أى أصاب حظا . والمراد : إذا نزل بالإنسان ما يكره ولم يحتل فى خلاصه منه أضاع أمره وقاسى الأمرين فى إدباره .

(٤) الخطب : الـكرب . والقصد: الرشد، أى إن الحازم هو الذى يستعد للأمر قبل نزوله.

فذاك قريع الدهر ما عاش حول ... إذا سد منه منخرٌ جاش منخر [١]

أقول للحيان وقد صفرت لهم ... وطابى ويومى ضيق الجحر معور [٢]

هما خطتا إمّا إسارٌ ومنة ... وإما دم والقتل بالحر أجـــدر [٣]

وأخرى أصادى النفس عنها وإنها ... لمورد حزم إن فعلت ومصدر [٤]

فرشت لها صدرى فزل عن الصفا ... به جؤجؤٌ عبلٌ ومتنٌ مخصر [٥]

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا ... به كدحه والموت خزيان ينظر [٦]

فأبت [٧] إلى فهم وما كدت آئباً ... وكم مثلها فارقتها وهى تصفر [٨]

ويصف تأبط شرًّا نفسه فيقول :

قليل غرار النوم أكبر همه ... دم الثأر أو يلقى كميًّا مسفعا [٩]

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ... ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا [١٠]

رأين فتى لا صيد وحش يهمه ... فلو صافحت إنسا لصافحته معا [١١]

---

(١) قريع الدهر : المجرب للأمور ، الحول : البصير بتحويل الأحوال ويقصد بقوله (إذا سد منه منخر) الخ : أنه سريع التخلص من الشدائد وهو مثل يطلق لذلك .

(٢) لحيان : بطن من هذيل ، صفرت : خلت . الوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن ، وضيق الجحر : مثل لضيق المنفذ ، المعور : المنكشف العورة ، أى أقول لهم وأنا فى هذه الحالة .

(٣) خطتا : مثنى خطة وحذف النون للضرورة ، يريد إما أسر وذلة وإما قتل وهو الجدير بالحر . (٤) أصادى النفس : أى أدير الرأى وأتدبر أمرى : أى وخطة أخرى وهى الموضع الذى يرده الحزم ويصدر عنه (وهى فى البيت التالى) .

(٥) فرشت : بسطت ، والجؤجؤ: العبل الصدر الضخم أى أنه فرش لأجل هذه الخطة صدره على الصفا (الحجر) وذلك حين صب والوطاب .

(٦) لم يكدح الصفا : لم يؤثر فيه . وينظر : يتحير .

(٧) فأبت إلى فهم : رجعت إلى قبيلتى (فهم) . (٨) وكم مثلها : وكم مثل هذه الرجعات تركت هذيلا وهى تتأسف على أنها لم تنل منى شيئاً .

(٩) الغرار : القليل ، والكمى : الشجاع ، المسفع: المتغير لون الوجه .

(١٠) يريد أنه طالت ملازمته للوحوش حتى ألفته ، فلا يمنعها من الرعى فهى لا تخاف منه لأن همته مصروفة إلى غيرها . (١١) رأت حسن فتى لا يخطر صيده لها على بال ، فلو كان فى الإمكان أن تصافح إنساناً لصافحته كلها من طول ما ألفته .

خصائص شعر (تأبط شرًا) :

المتصفح شعر تأبط شرا يجد خشونة فى معانيه ومبانيه ، وتصويرا حسيًا صادقاً ، وتدفقاً طبيعيًا على غير نظام ، اللهم إلا نظام الطبيعة الفطرية . أما الأوزان والقوافى فهى مستقيمة وإن كانت شديدة تتصاعد من خلالها موسيقى الصحراء ، فأدبه عامة فيه سذاجة فطرية حلوة ، وجو صحراوى يضطرب فيه حيوان الصحراء ونباتها وغيثها وبرقها . وهو ـ أدب فى جملته ـ اعترافى فيه روح القصة والملحمة[١] .

٢ — من شعر الشنفرى[٢] :

للشنفرى شعر فى الفخر والحماسة وأشهره ما يسمونه « لامية العرب » وهى قصيدة من ثمانية وستين بيتاً ، وهى وإن لم تكن ثابتة النسب إليه فى جملتها ، إلا أنها تنطق بلسان البادية الأولى وحياة التشرد والصعلكة . ومناسبة هذا النص أنه كان قد دخل الغيظ نفس الشنفرى فى أحد الأيام فأضرمها فغادر الأهل والأصحاب وراح يضرب فى الفيافى ، ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدته يعتب على قومه ويفضل وحوش الصحراء عليهم ثم يفخر بنفسه ثم يسترسل فيصف الوحوش والليل والنهار وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة ، وفيها يقول :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل[٣]

فقد حمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وأرحل[٤]

---

(١) راجع الموجز فى الأدب العربى وتاريخه جـ١ ص ٧١ ، وضع لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية ط دار المعارف ، وراجع تاريخ الأدب العربى . كارل بروكلمان ترجمة د . عبد الحليم النجار جـ ١ ص ١٠٤ .

(٢) هو ثابت بن أوس الأزدى، من أهل اليمن ، وهو معدود من العدائين الذين لا تلحقهم الخيل. ولقب بالشنفرى لعظم شفتيه . وعاش صعلوكا ولصاً مرهوب الجانب ومأواه الجبال ، روى أنه حلف ليقتلن مائة رجل من بنى سلامان، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم ثم قتله فمر به رجل آخر منهم فرفس جمجمته ، فدخلت شظية منها برجله فمات ، فتمت القتلى مائة.

(٣) أقيموا : أعدوا ، مطيكم : جمع مطية وهى الدابة .

(٤) حم الأمر : قضى ؛ الطيات : جمع طية وهى النية ، الأرحل : جمع رحل وهو مركب للبعير ، ويريد بقوله والليل مقمر : أنهم لا عذر لهم ولا سبب يمنعهم من أن يجدوا فى أمورهم .

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل[١]
لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل[٢]
ولى دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[٣]
هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجانى بما جر يخذل[٤]
وكل أبى باسل غير أننى ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسل[٥]
وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل[٦]
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل ... عليهم وكان الأفضل المتفضل[٧]
وإنى كفانى فقد من ليس جازيا ... بحسنى ولا فى قربه متعلل[٨]
ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت وصفراء عيطل[٩]
هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومحمل[١٠]
إذا زل عنها السهم حنت كأنها ... مرزأة ثكلى ترن وتعول[١١]

---

(١) المنأى : الموضع البعيد ، القلى : البغض وشدة الكراهية ، المتعزل : المتنحى .

(٢) لعمرك : كلمة تستخدم فى القسم ، سرى : مشى ليلا ، يريد : إن الأرض لا تضيق بالعاقل الذى يستعمل عقله فى كل أموره رغبة فيها أو رهبة منها .

(٣) السيد : الأسد أو الذئب ، عملس : قوى سريع على السير ، الأرقط : النمر الأغبر ، أو مافيه سواد يشوبه نقط بيضاء ، الزهلول : الأملس،العرفاء:أنثى الضبع، والجيأل علم على الضبع.

(٤) يقول : هؤلاء هم الأهل الذين يحفظون السر ولا يهملون الجانى إذا أذنب .

(٥) الأبى : من يأبى الذل والهوان ، الباسل : الشجاع ، والطرائد : جمع طريدة وهى ما يصطاد ؛ يريد أنه أشد بسالة من الفرسان .   (٦) الأجشع : الأشد طمعاً .

(٧) بسطة الكف : الكرم .   (٨) المتعلل : المتسلى بالشىء .

(٩) « ثلاثة أصحاب » : فاعل كفانى فى البيت السابق ، مشيع : شجاع؛الأبيض الإصليت: السيف المصقول أو المجرد من غمده ؛ وصفراء عيطل : القوس الطويلة .

(١٠) هتوف: صفة للقوس إذا أحدث صوتاً ، الملس المتون:أى متونها وهى جوانبها ملساء، رصائع : ما يرصع به من جوهر وغيره ، نيطت إليها : علقت بها ، المحمل : علاقة السيف .

(١١) زل عنها السهم : خرج منها بسرعة ، المرزأة : المصابة بالرزايا، الثكلى : التى فقدت ولدها ، حنت : صوتت ، وتعول : رفعت صوتها بالبكاء ؛ شبه رنين القوس إذا خرج عنها السهم ببكاء المرأة المصابة بفقد ولدها .

نظرة حول النص وصاحبه :

نرى فى هذا الجزء من القصيدة مثالا للشاعر الفطرى القديم الذى ألف النابات وعاشر الضوارى ، فجاء شعره صورة لحياته ، وهو على خشونته صادق التعبير ، دقيق فى التصوير ، وهو شاعر واقعى ، يمثل البداوة التى لم تصقلها المدينة ، وقد تجلى ذلك فى تصويره لأحوال معيشته وإغارته .

ولا يختلف أدب الشنفرى عن أدب تأبط شرا مادة ونفساً ولونا محليا، وخشونة ألفاظ فى رقة عاطفة ، كما لا يختلف عنه تدفقاً فطريا والتصاقاً بالمادة ، وإنه لمن الغريب أن نرى فى مثل هذا الصعلوك ذلك الانطلاق النفسانى وتلك الحكمة الطبيعية وذلك التطرف فى الاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس. ولكنها النفس العربية فى تعبيرها الشديد الوطأة وفى نبضاتها واختلاجاتها الكريمة الآخذة على ما هنالك من قسوة وخشونة(١) .

٣ ــ من شعر عروة بن الورد :

مناسبة النص :

روى أن قبيلة (عبس) تتابعت عليها سنوات قحط وجوع ، وكانت (غطفان) أحسن حالا منها . وكان عروة بن الورد غائباً فى بعض تلك السنين وقد أهلك هو الآخر إبله وخيله ، فرجع ليجد قومه فى تلك الحال وقد تجمعوا فى حظيرة لما أعوزتهم المكاسب وقالوا: نموت فيها جوعا خير من أن تأكلنا الذئاب ، فأتاهم عروة ونزع عنهم كنيفهم (الحظيرة من الشجر) وقال لهم : اخرجوا وهذه قلوصى فقددوا لحمها واحملوا أسلحتكم على هذه القلوص حتى أصيب لكم ما تعيشون به أو أموت، فخرج يقصد أرض قضاعة ، فمر بمالك بن حمار وقد نفد ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بفتيانك هؤلاء؟ ارجع بهم تهلكهم ضيعة، فقال: إن الضيعة ما تأمرنى به ، دعنى ألتمس معاشا لى ولقوى

(١) راجع تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ص ١٠٥ ، والموجز فى الأدب العربى وتاريخه ص ٧٥ .

أو أموت فالموت خير من الهزال ، فقال له مالك : إن أطعتنى رجعت إلى الحرسين (جبلان فى أرض بنى فزارة) فقال عروة: كيف أصنع بمن كنت عودته إذا جاءنى ؟ فقال : يعذرك إذا لم يكن عندك شىء . فقال : ولـكنى لا أعذر نفسى بترك الطلب ، وقال هذه الأبيات :

فقلت لقوم فى الـكنيف تروحوا ... عشية بتنا عند ماوان رزح[(١)]

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم ... إلى مستراح من حمام مبرح[(٢)]

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً ... من المال يطرح نفسه كل مطرح[(٣)]

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح[(٤)]

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى ... أفيد غنى فيه لذى الحق محمل[(٥)]

أليس عظيما أن تلم ملمة ... وليس علينا فى الحقوق معول[(٦)]

فإن نحن لم نملك دفاعا بحادث ... تلم به الأيام فالموت أجمل[(٧)]

إنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد[(٨)]

---

(١) تروحوا : سيروا وقت الرواح ، ماوان اسم ماء ، الرزح : المهازيل يريد : قلت لقوم مهازيل عشية بتنا عند ماوان فى الـكنيف : تروحوا .

(٢) المستراح : الاستراحة ، الحمام المبرح : الموت المؤلم ، أى إن تسيروا تنالوا ما تريدون وتنجوا من موت محقق أليم .

(٣) المقتر : الفقير ، يطرح نفسه : يرمى بها فى كل بلاء ومشقة .

(٤) يصيب رغيبة : ينال مالا ، يريد : أنه إما أن ينال عذراً أو حظاً من المال ومن أبلغ نفساً عذرها تخلصاً من الـكسل والجبن فهو كمن أنجح فى سعيه .

(٥) يخاطب زوجته قائلا : اتركينى أكثر الأسفار لأحقق غنى يكفى ذوى الحقوق وأحل به عنهم أثقال الديون والديات .

(٦) أليس من العار أن تنزل النوازل ولا يعول علينا فى دفعها ؟

(٧) فإذا بلغ الحال بنا إلى تلك الدرجة فبطن الأرض خير لنا من ظهرها .

(٨) العافى : طالب المعروف ، وشركة : أراد خلقاً كثيراً ، كنى بذلك عن الـكرم ، كما كنى بقوله : وأنت امرؤ الخ عن البخل . والمعنى : إني امرؤ كريم يشركنى فى إنائى عدة للأكل معى وأنت بخيل وطالب إنائك واحد .

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ‏ ‏ بوجهي شحوب الحق والحق جاهد[١]
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ‏ ‏ وأحسو قراح الماء والماء بارد[٢]

عروة بن الورد وشاعريته :

من خلال الأبيات السابقة يتجلى لنا عروة بن الورد كصعلوك ولكن من أشرف الصعاليك . إنه يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويبذل كل شيء في سبيل الغير ، أما « صعلكته » فمن حاجة وفقر ، وعن رغبة في إغاثة ذوي الحاجة ، وهو يعمل ما استطاع العمل ، ويسعى بنشاط في سبيل أهدافه « ليبلغ عذراً أو يصيب رغيبة » وهو لا يرهب الموت في سعيه ، بل يراه أجمل من أن يعجز عن دفع النوازل وإبعادها عن الناس . أما عن مميزات أدبه ، فإن عروة يبدو إنسانياً في عاطفته وغاياته ، يروق بعاطفته ولا سيما في نزعته الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوي البؤس . . أما لغته فأقلّ خشونة لما في عاطفته من نعومة ، وأما حكمته فطبيعية مستحبة ، وإن لم تخل في عمومها من شراسة فيما تدعو إليه من أساليب التحصيل[٣] .

(١) يريد : أتسخر مني لأجل سمنتك ونحول جسمي وتغير وجهي ولا تعلم أن سببه كوني مجهوداً في أداء الحقوق ؟

(٢) أقسم جسمي : أي قوت جسمي ؛ والقراح : الماء الذي لم يخالطه غيره ، والماء بارد كناية عن زمن الشتاء الذي يشتد فيه الجدب — والمعنى : إني أجود بقوتي على غيري وأجتزىء بحسو الماء البارد عن القوت ، يشير إلى كرمه وإيثار الغير على نفسه .

(٣) راجع تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ترجمة د .عبد الحليم النجار ج ١ ص١٠٩ ، والموجز في الأدب العربي وتاريخه ص ٧٥ — ٧٩ .

٣ — عبيد الشعر

عرف العرب فى الجاهلية للشعر منزلته وعظيم خطره لأنه هو الذى ينطق بمجد القبيلة ويشيد بمآثرها ومفاخرها ، ولما كان للشعر هذه المكانة ، فقد كان الشعراء يأنفون أن يمدحوا إنساناً إلا لأغراض شريفة ومقاصد نبيلة . ومن ثم كان الشعر العربى ينبع دائماً من طبع الشاعر ويتفجر من إحساسه ، ولا تتحكم فيه صنعة ولا تستبد به كلفة ، ولا يعمد صاحبه إلى تنقيح أو تجويد ليتكسب من ورائه أو ليتقرب به إلى الناس زلفى .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الكبراء والقادة لما شعروا بأن مظاهر سيادتهم ودلائل عظمتهم تستدعى أن يكون هناك شاعر يعلى من شأنهم ويرفع من أقدارهم ويذيع مفاخرهم ، أخذوا يقربون الشعراء ويندقون عليهم ، ومن ثم بدأ الشعراء يتساقون فى هذا السبيل دون ما تحرج ، وظهرت طبقة من الشعراء قصدت بشعرها الملوك والأمراء ، وانتجعت الرؤساء والأشراف وأزرت بالشعر ومكانته والشاعر ومنزلته إزراء شديداً حتى قال صاحب العمدة : « كان الشاعر فى مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب ، لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر وشدة العارضة وحماية العشيرة وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتناولوا به الأعراض صارت الخطابة فوقه »[1] .

ولذا لم يكن من الغريب أن يأخذ شعر التكسب هذا السمت الجديد الذى جعل الشاعر يشحذ همته ويصقل ذهنه ويهذب بيانه ويراجع فكره ليكتسب رضا الممدوح بعد أن كان من قبل ينطق بالشعر عفو الخاطر ويستوحى إحساسه ووجدانه .

(١) العمدة ج١ ص ٦٦ وراجع الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلوت ص ٢٤٣ — ٢٤٧ .

ولقد بلغت محاولات تجويد هذا اللون من الشعر حداً كبيراً إلى درجة أنه مما قيل عن زهير إنه كانت له قصائد تسمى الحوليات، لأنه كان ينشئها ثم يراجعها، ثم يعرضها فى حول كامل حتى ترضى بها نفسه ويسكن إليها خاطره ويرضى عنه ممدوحه ، ومن ثم قيل عن زهير وأمثاله من المجودين المتكسبين بشعرهم: عبيد الشعر .

وفى الحقيقة أن هذا اللون من الشعر وإن كان قد حط من مكانة الشاعر حيث جعله الشعراء سلما إلى الأغراض المادية وذريعة إلى المنافع الشخصية، فإن هذا التكسب نفسه قد عاد على شعر المديح بالجودة والتنقيح ، وتميز بمعاودة النظر فيه حتى يبرأ من العيب ، ليس معنى هذا أن الشعراء فى غير هـذا الفن لم يجودوه أو لم يحفلوا بهذه المراجعة من أجـل تهذيبه وتحسينه . . وإنما بولغ فى تجويد شعر التـكسب حتى طفحت عليه الصنعة واصطبغ بالتكلف ، وكان من الطبيعى أن يعتبر شعراء التـكسب ذلك من مزايا شعرهم حتى قال الحطيئة « خير الشعر الحولى المحكك » أما عن مكانة هؤلاء الشعراء فى نظر العلماء والنقاد فيعبر عنها الأصمعى بقوله :

« زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر » . . وكذلك كل من يجود فى جميع شعره ويقف عند كل بيت قاله ويعيد النظر فيه حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة[1] .

ومن أشهر الشعراء الذين تـكسبوا بشعرهم : الأعشى وزهـير والنابغة الذبيانى وطرفة بن العبد والحطيئة ، على أن من هؤلاء الشعراء من كان يتـكسب بمدحه فى ترفع كزهير أو تنزل كالأعشى والحطيئة أو بين بين كالنابغة . . وتلك نماذج لما كان يتكسب به شعراء المديح ، أو من عرفوا فيما بعد بعبيد الشعر .

١ ــ من صور المديح فى شعر النابغة الذبيانى « ويبدو فيها اعتذاره واستعطافه للنعمان » :

أتانى أبيت اللعن أنـك لمتنى ‏ ‏ ‏ ‏ وتلك التى أهتم منها وأنصب[2]

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص١١ . (٢) وتلك : أى تلك الملامة ، أنصب: أتعب .

فبت كأن العائدات فرشن لى ... هراساً به يعلى فراشى ويقشب[١]

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب[٢]

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب

ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب[٣]

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكم فى أموالهم وأقرب[٤]

كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا[٥]

فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلى به القار أجرب[٦]

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب[٧]

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[٨]

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب[٩]

فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[١٠]

---

(١) العائدات : اللاتى يزرن المريض ؛ هراس : نبت كثير الشوك ؛ يقشب : يخلط .

(٢) الريبة : الشك ، والمراد ليس بعد الحلف بالله يمين فلا داعى للشك .

(٣) لى جانب : أى متسع ، فيه مستراد : أى إقبال وإدبار .

(٤) ملوك وإخوان : أراد الغسانيين الذى أكرموه حين نزل بهم .

(٥) اصطنعتهم : اصطفيتهم واخترتهم من الناس ، والمعنى : اجعلنى كأقوام صاروا إليك وكانوا مع غيرك فاصطنعتهم فأحسنت إليهم ولم ترهم مذنبين إذا فارقوا من كانوا معه .

(٦) الوعيد : التهديد ؛ إلى الناس : فى الناس ؛ القار : القطران ، يقول : لا تتركنى كالجمل الأجرب المطلى بالقطران المعزول عن باقى الجمال . (٧) سورة : منزلة وفضيلة ، يتذبذب : يضطرب . (٨) أى أنت تسمو على سائر الملوك كما تسمو الشمس على سائر الكواكب .

(٩) تلمه : تجمعه وتصلحه ، الشعث : التفرق والفساد ، والمعنى : من لم تصلحه من الناس وتقوم اعوجاجه فلست بمستبقيه صديقاً لك ، فإنا لا نجد رجلا كامل الأخلاق لا عيب فيه .

(١٠) العتبى : الرضا والصفح ، يعتب: يعفو ويرضى ، والمعنى : إن أكن مظلوماً فأنا العبد الذى يحتمل سيده ، وإن شئت أن تغفر لى فإنك جدير بالعفو والحلم .

٢ ـ ومن شعر الحطيئة ، والذى يبدو فيه أثر التكسب، ومدى استمداد الشاعر لأن يهجو ممدوحا إلى آخر طمعا فى المزيد ، بل مدى استمداده لأن يهجو الأول أملا فى استرضاء الثانى .

يقول الحطيئة[١] :

والله ما معشر لاموا امرأً جنبا	فى آل لأى بن شماس بأكياس[٢]
لقد مريتكم لو أن درتكم	يوما يجىء بها مسحى وإبساسى[٣]
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم	كيما يكون لكم متحى وإمراسى[٤]
وقد نظرتكم إيناء صادرة	للخمس طال بها حوذى وتنساسى[٥]
لما بدا لى منكم غيب أنفسكم	ولم يكن لجراحى منكم آسى[٦]
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم	ولن ترى طارداً للحر كالياس[٧]
ما كان ذنب بغيض أن أرى رجلا	ذا فاقة حل فى مستوعر شاسى[٨]
جاراً لقوم أطالوا هون منزله	وغادروه مقيما بين أرماس[٩]

---

(١) يهجو الزبرقان بن بدر ، وكان الحطيئة قد جاوره فلم يحمد جواره ، فتحول عنه إلى بغيض فأكرم جواره. (٢) الجنب : الغريب ، فى آل لأى : أى فى مديحهم ، الأكياس : جمع كيس وهو الفطن الذكى .

(٣) مرى الناقة : مسح ضرعها لتدر اللبن ، الدرة : اللبن ، الإبساس : ملاطفة الناقة عند الحلب ، يعنى : أنهم لم يمنحوه برهم مع مداراته لهم وحسن معاملته .

(٤) المتح : نزع الدلو وجذبها من البئر ، الإمراس : وضع حبل البئر فى البكرة بعد أن انزلق منها ، يعنى : إنى قصدت مدحكم لأرشدكم إلى ما غاب عنكم من أسباب المجد فيكون لكم الفضل فى إنقاذى بجودكم من الهوة التى أنا فيها .

(٥) الإيناء : الإتعاب . الصادرة : الراجعة من الماء ، الخمس: من أظماء الإبل ، بان ترعى ثلاثة أيام وترد الماء فى الرابع ، والحوذ من حاذ الدابة أى ساقها سريعاً ، والتنساس : من نس الناقة إذا زجرها وساقها ، يقول : لقد انتظرت عطاءكم متعبا كناقة أجهدها السير الطويل .

(٦) غيب أنفسكم : أى ما تضمره لى أنفسكم من البغضاء ، الآسى : الطبيب المداوى .

(٧) النوال : العطاء . (٨) حل فى مستوعر شاسى : نزل فى مكان صعب المراس

(٩) الهون : الذل ، الأرماس : القبور .

ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس(١)

لاذنب لى اليوم إن كانت نفوسكم ... كفارك كرهت ثوبى وإلباسى(٢)

من يفعل الخير لايعدم جوازيه ... لايذهب العرف بين الله والناس(٣)

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى(٤)

٣ ـ الأعشى شاعر التكسب : من قصيدة له يمدح قيس بن معدى كرب الكندى :

إلى المرء قيس أطيل السرى ... وآخذ من كل حى عصم(٥)

وما مزبد من خليج الفرا ... ت جون غواربه تلتطم(٦)

يكب الخلية ذات القلاع ... قد كان جؤجؤها ينحطم(٧)

تكأكأ ملاحها وسطها ... من الخوف كوثلها يلتزم(٨)

بأجود منه بما عنده ... إذا ما سماؤهم لم تغم(٩)

هو الواهب المائة المصطفاة ... كالنخل طاف بها المجترم(١٠)

فإن معاوية الأكرمين عظام ... القباب طوال الأمم(١١)

متى تدعهم للقاء الحرو ... ب تأتك خيل لهم غير حم(١٢)

إذا ما هم جلسوا بالعشى ... فأحلام عاد وأيد هضم(١٣)

---

(١) القرى : الضيافة ، هرته كلابهم: نبحت عليه ، يعنى : إن آل الزبرقان كرهوا جواره وعاملوه أسوأ المعاملة . (٢) الفارك : المرأة المبغضة لزوجها . (٣) العرف : المعروف .

(٤) الطاعم : الآكل ، الكاسى : اللابس ، يقول : دع المكارم ، فحسبك من نبل وعمل عظيم أن تكون آكلا مكسواً .

(٥) العصم : جمع عصام ، وهو الحبل تشد به القربة أو الدلو ، ولعل الشاعر يريد العهود .

(٦) الجون : الأسود ، غواربه : أعاليه . (٧) الخلية : السفينة الكبيرة . القلاع : الشراع ، الجؤجؤ : الصدر . (٨) تكأكأ : تمايل ، كوثل السفينة : مؤخرها أو سكانها.

(٩) لم تغم : أى لم يكن فيها غيم . (١٠) المجترم : الذى يصرم النخل .

(١١) معاوية الأكرمين : قوم الممدوح ، الأمم جمع أمة والمقصود بها هنا القامة .

(١٢) غير حم : أى لا رماح لهم . (١٣) أحلام عاد : أى عقول قديمة الرصانة والتعقل. أيد هضم : أى : أيد كريمة تجود بما لديها .

٤ — ومن شعر زهير فى هرم بن سنان المرى وبيته، مدائح سارت بها الامثال، ومن ذلك قوله :

إذا السنة الحمراء بالناس أجحفت　　ونال كرام المال فى الجحرة الأكل[١]
رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم　　قطينا لهم حتى إذا نبت البقل[٢]
هناك إن يستخبلوا المال يخبلوا　　وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا[٣]
وفيهم مقامات حسان وجوهها　　وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم　　مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد　　رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعتريهم　　وعند المقلين السماحة والبذل[٤]
فما كان من خير أتوه فإنما　　توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه　　وتغرس إلا فى منابتها النخل[٥]

وبعد . . فهذه أمثلة لبعض المتكسبين بشعرهم ممن أطلق عليهم عبيد الشعر وإن كانوا يتفاوتون ــ على ما أوضحته الأمثلة السابقة ــ فى أمر هذا التكسب فقد بدا لنا النابغة محبا للنعمان ، مخلصا له المودة ، وإن كانت تلك المودة مبنية على أساس مكين من العطاء والتكريم ، وإن كان ذلك التعلق ناتجا عن أريحية فى النعمان واسعة ، وعن حياة طيبة بصحبة الملك وأتباعه ، وتعلقه هذا بالنعمان جعله لايأنف ــ وهو الكبير النفس العزيز الجانب ــ من أن يتذلل وأن يجعل من نفسه عبدا ويقول للنعمان :

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته　　وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

---

(١) الجحرة : السنة الشديدة المجدبة .

(٢) القطين : جمع قاطن وهو المقيم ، وحتى إذا نبت البقل : كناية عن أنهم يبقون مقيمين ولو جاء الخصب . (٣) إن يستقرضوه : أى يقرضوه ، وإن ييسروا : يلعبوا الميسر .

(٤) على مكثريهم : على الأغنياء منهم ، حق من يعتريهم : حق من يقصدهم ويطلب نوالهم .

(٥) الخطى : الشجر الذى تصنع منه الرماح ، ووشيجه : أصله ، يعنى أن كل شىء يدل عليه أصله ، وكل إناء بما فيه ينضح .

ولذا نحس من شعر النابغة وخاصة فى المدح أنه شعر التكسب الذى يسعى وراء المنفعة للشاعر وقومه ، وهو من ثم شعر الفن والصنعة أكثر مما هو شعر الطبيعة ، وهو من ثم أيضاً ــ يسير فى جلال الملوك ، يمتد امتداد ملكهم وسطوتهم ، فى نفس عال ولغة منتقاة ، تشتد فى مواقف الشدة والقتال ، وتلين فى مواقف الترف ونضارة العيش .

أما الحطيئة ، فإن من استقرأ كذلك مدائحه ، فلن يخرج عن الأسلوب المعهود عند سائر شعراء المدح والاستجداء وفى سائر الشعر الجاهلى على وجه الخصوص ، ويحس القارئ لشعره ، أن الحطيئة فى نهمه واندفاعه وراء المال يحاول أن يهدهد شعور المدوح بموسيقى شعرية تتصاعد من الأوزان والقوافى والألفاظ ويخلق جواً يبعث على العطاء وهو يرسل خلال تلك الموسيقى أقوال الزلف، لينة حيناً، نافخة ببوق التبجيل والتعظيم حيناً آخر ، ويذكر من صفات المدوح ما يفهمه أن الشاعر بحاجة إليه ، ويصرح له أحياناً بأن الشاعر فقير معدم ، ثم يلف الطلب بصفات أخرى للمدوح مشتقة من معانى الشجاعة والبأس والكرم وما إلى ذلك ، من مثل ما مدح به آل شماس من قصيدة يقول فيها عن المدوح وقومه :

فليجزه الله خيرا من أخى ثقة ... وليهده بهدى الخيرات هاديها
والمخلف الألف بعد الألف يتلفها ... والواهب المائة المعكى وراعيها[1]
قوم نموا فى بنى سعد وذروتها ... يوما إذا عد من سعد مساعيها
لله درهم قوما ذوى حسب ... يوما إذا جلبة حلت مراسيها[2]
أهل الحفاظ إذا ما أزمة أزمت ... بالناس حاضرهم منها وباديها

وكذلك الأعشى فى تكسبه ، فإن من يطالع مقطوعته يلاحظ أنه يحاول أن يجرى على أساوب النابغة إلا أن استطراده مقتضب ومدحه فى العموم يتبع الأساوب

(١) المعكى : الناقة السمينة .
(٢) الجلبة : السنة الشديدة ، حلت مراسيها : أى استقرت .

القديم من فاتحة غزلية ووصف للخمر ومجالس اللهو ، ووصف للناقة والسفر . ثم ذكر الممدوح وما له من صفات الجود والقوة وما إلى ذلك، والأعشى فى مدحه صريح فى التكسب وهو أول من « سأل بشعره » وشعره المدحى يمتاز بما يمتاز به سائر شعره من رونق وسهولة ومتانة وموسيقى عذبة .

أما زهير فى مدحه ، فلعل من أبرز المؤثرات فيه هو اتصال زهير بأوس بن حجر زوج أمه وشاعر تميم فى الجاهلية وزعيم جماعة عبيد الشعر ، فلقد كان زهير راويته ووارث مدرسته ، ومن ثم كان المدح يشغل قسماً كبيراً من ديوانه . وكان مدح هرم ابن سنان والحارث بن عوف خاصة يشغل القسم الأعظم من المدح فى ديوان زهير ، ولا عجب فى ذلك ، فهو شاعر تهزه الأعمال الكريمة ، وهل هناك من هو أكرم عملا من هذين السيدين اللذين سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان حتى وضعا حدا لما دار بين القبيلتين من حرب ضروس ؟ . . .

أما خصائص مدح زهير فأهم ما يبرز منها أنه كان يصدر فى مدائحه عن إعجاب بما قدم ممدوحه وتقدير لما صنع ، فهو كما قال عنه عمر بن الخطاب : « لم يمدح الرجل إلا بما فيه » لذلك لم يكن يلجأ إلى المغالاة فى خلع الصفات الكاذبة على ممدوحه ، فإذا عمد إلى شيء من المبالغة علقه على أمر ممتنع وذلك كما فى قوله :

لو نال حى من الدنيا بمنزلة ... وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وزهير لم يكن فى مدائحه من أولئك المتكسبين الذين يريقون ماء وجوههم على أقدام ممدوحيهم ، ولا من الذين يظهرون أمام من يرومون عطاءهم بمظهر الذل والفاقة ، فإذا عمد إلى التكسب ، كان لبقا بعيداً عن التهالك على السؤال . وهذا يبدو فى مدحه لحصن بن حذيفة حيث يقول :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وزهير لا يخرج فى معانى مديحه عن الإطار الجاهلى ، فهو يخلع على ممدوحه

كل الخلال الحسنة التي يعجب بها البدوى ، ويراها مثلا أعلى فى الصفات التي يجب أن يتحلى بها العربى ، وذلك كالكرم والشجاعة ورجاحة العقل والنجدة وكرم المحتد وبهاء الطلعة وما إلى ذلك .

وخلاصة القول فى مدح زهير أنه مديح صادق العاطفة بعيد عن الغلو ، لا يخرج فى معانيه عن الصفات التي يكبرها المجتمع الجاهلى ، وهو لا يخلو من توجيه وتعليم، أضف إلى ذلك أنه مديح خلد الذين تناولهم ، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقى أحد أولاد هرم بن سنان فقال له والله إن زهيراً كان ليحسن فيكم القول ، فقال له : وإننا كنا نحسن له العطاء ، فقال عمر : لقد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

الشعر فى إمارتى المناذرة والغساسنة وأسباب ازدهاره

من يدرس الشعر الجاهلى يلاحظ أن شعر المدح الذى أنشده أصحابه للتكسب قد كثر منذ منتصف القرن السادس الميلادى ، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة كان من أبرزها : ازدهار الحياة فى الإمارتين الشماليتين ؛ فى الحيرة وغسان فى ذلك الوقت ، وازدياد ثرائهما وسلطانهما ، فاتجه الشعراء إلى هذين المنبعين فى رحلات مستمرة ومنتظمة للارتواء منهما ، ومن الشعراء من استقر فيهما استقراراً دائماً نديما لملوكهما ومغرداً فى رياضهما كالنابغة الذبيانى وحسان بن ثابت بن المنذر .

وكان البلاط فى هاتين الإمارتين يعج بالشعراء من كل نواحى الجزيرة العربية وكأنه صورة مصغرة لما سوف يحدث فيما بعد فى بلاط الأمويين والعباسيين .

وكما أن النابغة الذبيانى كان قد اتصل بملوك الحيرة وبخاصة عمرو بن هند، والنعمان أبو قابوس بن المنذر الرابع . . فإن حسان بن ثابت كان قد راد الغساسنة ومدحهم ، وكان اتصاله بهم اتصالا بذوى قرباه ، فقد مهد له نسبه فيهم أن ينزل فى بلاطهم وأن يجيزوه فى كل مرة ينزل فيها عليهم .

وإذا كان النابغة لم يستقر به المقام أول الأمر فى بلاد الحيرة، حيث اضطره الوشاة إلى الهرب من وجه النعمان حتى ذهب إلى قومه ثم إلى غسان حيث لقى هناك حفاوة وإكراما قابلهما بالرائع من المديح . . . فإن زيارة حسان للمناذرة قد اختلف فيها وإن كان هناك من النصوص ما يؤيدها ويشير إلى حدوثها[١] .

---

(١) راجع : حسان بن ثابت، الدكتور سيد حنفى حسنين ص ٦٨ .

أما عن النابغة[١] :

فقد كان له من اللباقة وحسن النظر والمهارة ما استغل معه المنافسة القائمة بين الحيرة وغسان فى تحقيق بعض المطامح السياسية والمالية ، فكان اتصاله الأول بملوك الحيرة واتخذه النعمان بن المنذر وأغدق عليه من المال والمطايا ما جعل الحساد يكثرون من حوله وأخذوا يدسون له الدسائس ويوغرون صدر النعمان عليه حتى قامت جفوة بينه وبين النعمان وعزم النعمان على قتله ، فلم يلبث أن فر النابغة إلى غسان ، وما زال وهو فى بلاطه الجديد يحن إلى النعمان ويعتذر إليه حتى عفا عنه وأعاده إلى البلاط فى الحيرة من جديد . . وظل فيه حتى قتل النعمان فالتحق النابغة بقومه حتى وافته بدوره منيته .

وأما عن حسان[٢] :

فلم يكن اتصاله بالغساسنة ونيل عطائهم فى أول الأمر سهلا ، فالمنافسون أيضاً فى بلاطهم شعراء متفننون قد احتلوا من قلوب الملوك والأمراء المكانة الأولى ، وكان على حسان أن يبحث عن موضع خال وسط هـــذا الزحام ليثبت وجوده ويفصح عن جدارته فى ميدان الشعر والشعراء .

ولقد كان هناك من شعراء البلاط فى الحـيرة غـير النابغة من المبرزين المنخل اليشكرى ، وعدى بن زيد ، وكل منهما شاعر مجيد ، ومن هنا تجمع لدينا عديد من شعراء البلاط ، كان لـكل منهم خصائصه ومزاياه .

١ — النابغة فى الاعتذاريات :

تعرض النابغة فى بلاط النعمان بن المنذر لـكثير من حسد الحاسدين ووشاية الواشين ، وقد بلغه مرة أن النعمان حانق عليه موعد له لما حمله الوشاة من تبعات أعمال

---

(١) النابغة : هو أبو أمامة زياد بن معاوية الذبيانى توفى سنة ٦٠٤ م .

(٢) اتفق الرواة على أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما واختلف فى سنة وفاته فقيل إنها سنة أربعين وقيل خمسين وقيل سنة ثمانين من الهجرة .

يقول إنه براء منها ، وبلغه أن بنى قريع — وهم بعض الوشاة — متحاملون عليه شديد التحامل ، وأنهم كثيرا ما يوغرون صدر الملك عليه ، فكان مما قاله النابغة يدلى بعذره إلى النعمان ، ويصف حاله بعد وشاية الواشين ووعيد النعمان :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع[(١)]

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع[(٢)]

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع[(٣)]

مقالة أن قد قلت «سوف أناله» ... وذلك من تلقاء مثلك رائـــع[(٤)]

لعمرى — وما عمرى علىّ بهين ... لقـــد نطقت بطلا على الأقارع[(٥)]

أقارع عوف لا أحاول غيرها ... وجـوه قرود تبتغى من تجادع[(٦)]

أتاك امرؤ مستبطن لى بغضة ... له من عـــدو مثل ذلك شافع[(٧)]

أتاك بقول هلهل النسج كاذب ... ولم يأت بالحق الذى هو ناصع[(٨)]

أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كبلت فى ساعدى الجوامع[(٩)]

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع[(١٠)]

لـكلفتنى ذنب امرئ وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع[(١١)]

---

(١) فى غير كنهه : فى غير موضعه وغير حقيقته ، راكس : واد ، الضواجع : الهضاب .

(٢) ساورتنى : واثبتنى . الضئيلة : الحية الدقيقة اللحم ، الرقش : جمع رقشاء وهى الحية فيها نقط سود وبيض ، الناقع : الذى يقتل لساعته . (٣) وتلك : أى الملامة ، تستك تصم .

(٤) الرائع : المخيف . (٥) الأقارع : أراد بنى قريع الذين وشوا بـه إلى النعمان ، لعمرى : العمر والعمر واحد إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا مفتوح العين .

(٦) لا أحاول غيرها : لا أقصد إلى هجاء غيرها ، تجادع : تشاتم وتخاصم ، والمراد أن الأقارع قد هانت عليهم أحسابهم وأعراضهم فهم يعرضونها للمقارعة والمشاتمة .

(٧) مستبطن : مضمر ، شافع : معين . (٨) هلهل النسج : رقيق ضعيف .

(٩) الجوامع : جمع : جامعة وهى الغل أو القيد الذى تجمع به اليدان إلى العنق .

(١٠) الريبة : الشك ، الأمة : الدين ، أى : وهل يحلف بالزور من كان ذا دين واستقامة مثلى ؟ . (١١) كلفتنى : حملتنى ، العر : قروح تخرج بالإبل يسيل منها مثل الماء الأصفر من الجرب.

فإن كنت لاذو الضغن عنى مكذب ... ولا حالفى على البراءة نافع[١]
ولا أنا مأمون بشىء أقوله ... وأنت بأمر ـ لا محالة ـ واقع[٢]
فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[٣]
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة ... ويترك عبد ظالم وهو ظالع[٤]
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه ... وسيف أعيرته المنية قاطع[٥]
أبى الله إلا عدله ووفاءه ... فلا النكر معروف ولا العرف ضائع[٦]

هذه واحدة من اعتذاريات النابغة ، وقد سبق أن أشرنا من قبل إلى صورة أخرى من اعتذارياته تجلى فيها استعطافه للنعمان وهى التى يقول فيها :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب

والنابغة يبدو فى سائر اعتذارياته على براعته وقوة حجته كأنه المحامى الذى يفتن فى عرض قضيته وتعزيزها بالأدلة والبراهين لتبرئة ساحته من تقولات الواشين ومزاعم الحاسدين . وهو دائماً يمزج الاعتذار بهجاء المفترين ، ويهيب بالنعمان أن يربأ بسمعه عن مثل هذه الأقاويل ولقد بدا فى جميع اعتذاريات النابغة للنعمان الحرص الشديد على صحبة النعمان[٧] والسعى فى استرضائه بشدة وعنف ، ولئن لم يستطع النكران بأنه ذهب إلى غسان ومدحهم ، فقد برهن أن ذلك كان منه شكراً على فضل ، وشاكر الفضل لا يستحق اللوم ، وهو يشتد عنفاً إذا ذكر الوشاة ، فيبرر ساحته ، ويقسم

---

(١) أى إن لم يمكن تكذيب ذى الضغن الذى وشى بى ولا ينفعنى حلفى .
(٢) ولا تأمنى على ما أقول من الصدق وأنت مصدق ولا محالة ما قيل لك عنى .
(٣) المنتأى : المكان البعيد أى فإننى لا يمكننى عمل شىء لأنك تدركنى بقدرتك . لأنك كالليل الذى يبسط ظلمته على كل شىء . (٤) الظالع : الحائد عن الحق البعيد عن الصواب .
(٥) السيب : العطاء ، وأنت ربيع : بمنزلة الربيع الذى يجىء بالخير .
(٦) النكر : المنكر . والعرف : المعروف ، أى ليس المنكر مثل المعروف فى الحكم وليس المعروف بضائع .
(٧) الموجز فى الأدب العربى وتاريخه ص ١٤٩ .

ويغالى فى القسم ليبعد الريبة ، ويكذب الوشاة ، وهم قـوم كالقرود لا يستحقون التصديق ولا الإصغاء إلى أقوالهم ، وهنا نشعر أن النابغة فى اضطرام واحتدام فيشتد شعره ، وإذا هنالك ثورة عاطفية فيها احتقار للخصوم وفيها تدافع كلام وفيها ترديد لبعض الألفاظ : أتاك امرؤ . . . أتاك بقول . . . أتاك بقول . . .

ثم يحاول النابغة أن يلين قلب النعمان فيمدحه ، وإذا النعمان بحر من الجود وينبوع من الحلم والعدل ، وملك واسع السلطان ذو مقدرة لا تحد . . إن أراد تشبيهه شبهه بالفرات ، وإن أراد تصوير غضبه شبهه بالليل الذى لا يستطيع أحد الهرب منه ، والنابغة تجاه هذا الغضب قلق البال لا يقر له قرار ولا يغمض له جفن ، وكأن لياليه ليس لها نهاية ، وكأنه يرقد على قتاد وإذا الليلة النابغية مضرب الأمثال وإذا هى طول وهموم وأفكار تذهب به وتجىء . . وهو فى كل ذلك عاطفة جياشة تهز الصدور القاسية ، وحجة قوية تبطل المزاعم الواهية ، ودهاء محام لبق يجمع قوة البرهان إلى نبل الكلام والثورة إلى دواعى الاستمالة ، ويخاطب العقل والقلب ببلاغة ومرونة ، وسياسة قامت على خبرة واسعة بأخلاق الملوك ، وبما فى بلاطهم من دسائس وأحقاد . . .

٢ ـ حسان بن ثابت فى المديح . .

لعل من أهم القصائد الجاهلية التى بقيت لحسان فى مدح الغسانيين هى التى مطلعها :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل   بين الجوابى فالبضيع فحومل

وقد مدح بها الملك الغسانى عمرو بن الحارث . . واستطاع حسان أن يبلغ فيها القمة الفنية بمدحه للغسانيين ووصف مجالسهم ومنتدياتهم فهم أعزة أمجاد لا يجرؤ ملك أن يحتك بهم أو أن ينقل عنهم صفة أو مكرمة ، لأنهم أبناء ملك عظيم وهو الحارث الأعرج بن أبى شمر الغسانى ، وهم يسقون الخمر لأضيافهم ويمدون الموائد لكل مقبل عليهم ، لا يبالون بمن نزل بهم ، ولا يروعهم جمعهم قل أو كثر ، فهم ملوك كرماء

يعيشون فى سعة ، ويسقيهم ولدانهم الحسان الرحيق الشهى ، فهم ليسوا صعاليك فقراء يرسلون ولدانهم لنقف الحنظل كما تفعل العرب[1] يقول :

دار لقوم قـــد أراهم مرة	فـــوق الأعزة عزهم لم ينقل
لله در عصابة نادمتهم	يوما ما بجلق فى الزمان الأول[2]
أولاد جفنة عند قـــبر أبيهم	قبر ابن مارية الـكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسل[3]
يسقون درياق المدام ولم تـكن	تغدو ولائـدهم لنقف الحنظل[4]
يغشون حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شم الأنوف من الطراز الأول

ولا ينسى الشاعر أن يصف شجاعتهم وجسارتهم فى الحروب وكيف يسيرون إلى الحرب فى حللهم ودروعهم ، يقول :

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها	مشى الجمال إلى الجمـال البزل[5]
الضاربون الـكبش يبرق بيضه	ضربا يطيح له بنان المفصل[6]

وينتقل حسان إلى صورة تغاير ما قال فى مدحه، تلك الصورة التى يبعث فيها عبث الرجل المجرب لا الفتى النضر ، فهو يقبل على الخمر وعلى مجالسها بقلب ولهان ، ينادم أمراء جفنة فى قصورهم ، ويسعى بها إليه الحسان يسقونه مرة بعد مرة فلا يرتوى . . إلى آخر ما قاله فى هذا السبيل .

وتتـكرر المقطوعات التى يمدح فيها حسان الغساسنة ، ورغم أنها قليلة جـداً ، فإنها تعبر عن الشعر الـكثير الذى قيل فيهم وضاع مع الزمن . .

---

(١) حسان بن ثابت ص ٧٤ ـ ٩٧ د . سيد حنفى حسنين .

(٢) جلق : موضع فى دمشق أو قريب منها .

(٣) البريص : نهر فى دمشق وكذلك بردى . (٤) نقف الحنظل : شقه وتكسيره .

(٥) البعير البازل : هو الذى استكمل السنة الثامنة من عمره .

(٦) الـكبش : السيد أو القائد .

وحينما يمدح حسان الغساسنة ، فإنه لا يسلك سلوك الشعراء الغرباء عنهم يمدحونهم ليأخذوا عطاءهم فحسب ، ولكنه يمدحهم ليفتخر بهم لأنهم أخواله الذين استطاعوا أن يبنوا لهم مجداً ، فمجدهم مجده وذكر محامدهم فخر له . . وفى ذلك يقول :

منهم أصلى فمن يفخر به   يعرف الناس لفخر المفتخر
نحن أهل العز والمجد معا   غير أنكاس ولا ميل عسر[1]
فسلوا عنا وعن أفعالنا   كل قوم عندهم علم الخبر

وكان لحسان فى الجاهلية صديق غسانى هو الأمير جبلة بن الأيهم ، ومن المقطوعات التى بقيت لحسان فى مدحه ـ وفيها يصف عيد الفصح عند المسيحيين . . يقول حسان :

قد دنا الفصح فالولائد ينظر   ن قعوداً أكلة المرجان[2]
يجتنين الجادى فى نقب الريـ   ـط عليها مجاسد الكتان[3]
لم يعللن بالمغافر والصمـ   ـغ ولا نقف حنظل الشريان[4]
ذاك مغنى من آل جفنة فى الدهـ   ـر وحق تعاقب الأزمان
قد أرانى هناك حق مكين   عند ذى التاج مقعدى ومكانى

فالمعانى التى مدح بها حسان ـ إذاً ـ ملوك الشام وأمراءهم هى المعانى التى كان يمدح بها الملوك فى الجاهلية ، فهم كرام أثرياء دورهم تستقبل كل وافد ، ويلبسون أجمل الملابس ، ويفترشون أفخر الرياش ، وهى أشياء لا يجدها البدوى فى صحرائه ،

---

(١) الأنكاس : جمع نكس وهو الرجل المقصر عن النجدة والكرم . والأميل : الجبان ، العسر : جمع أعسر وهو الذى يعمل بشماله .

(٢) الفصح : عيد قيامة المسيح ، الأكلة : جمع إكليل وهو التاج .

(٣) الجادى : الزعفران ، النقب : جمع نقبة وهو إزار يشد كالسراويل ، الريط : الثياب اللينة الرقيقة البيضاء ، المجاسد : القمصان .

(٤) المغافر : نوع من الصمغ ، الحنظل : نوع معروف من الثمار مر المذاق .

وحينما يصف موائدهم وأعيادهم فإنما هى وسيلة لمدحهم والتقرب إليهم ولا شك أن مثل هذه الزيارات أثرت فى فنه ، فهو لم يكن يستطيع أن يرسم صورة عيد الفصح كما رسمها فى الأبيات السابقة دون أن يرى الفتيات وهن ينظمن الأكاليل المزينة بالجواهر، أو يعطرن أجسادهن وملابسهن بالزعفران ، ثم يقارن بين أولئك الفتيات وفتيات البدو فيقول إنهن لسن ممن يجتنين صمغ المغافر وينقضن الحنظل لاستخراج ما فيه .

وبعد ؛ فمن خلال اعتذاريات النابغة للنعمان بن المنذر، ومدائح حسان فى الغساسنة يمكننا القول بأنه قد أتاحت الزيارات التى قام بها كل منهما للشمال أن يطلعا على مظاهر أكبر حضارتين موجودتين فى ذلك العهد : الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية . . فانتقلت فى أشعارهما بعض مظاهر هاتين الحضارتين متمثلتين فى الإمارتين الخاضعتين لهما: إمارة المناذرة ، وإمارة الغساسنة . . فاكتسب شعرهما ألواناً جديدة لم تكن تتهيأ لهما أو لغيرهما لو لم يقفا على مظاهر هاتين الحضارتين .

فالنابغة يبدو فى ذلك الشعر العامر باللفظ المختار والكلام البعيد عن الركاكة والموسيقى اللفظية الرائعة ليظهر لنا من خلال ذلك وغيره تلك الاعتذاريات التى تنم عن شاعر عاش فى قفص من ذهب وهو يذيب قريحته الفياضة أشعة من نور على أبواب السلاطين وفى زوايا البلاط .

وكذلك كان حسان فى مديحه للغسانيين حيث انعكست على شعره مظاهر الترف والنعيم من ناحية ومظاهر الحضارة التى شاهدها وعاشها من ناحية أخرى . . يضاف إلى ذلك ـ كما سبق القول ـ أن مدحه للغسانيين كان يعتبر فخراً لنفسه ، فإذا رفع من شأنهم فهو تمجيد لقبيلته ، فامتزج مدحه بالفخر ؛ ومن هنا اختلف حسان فى مدائحه وبخاصة للغسانيين ـ عن غيره من الجاهليين، حيث كان مديحه تسوده النزعة الخطابية على خلاف طبيعة هذا الفن ، فالنزعة الخطابية من شأن الفخر وليس المدح ، ولكن امتزاج الموضوعين عند الشاعر أشاع هذه اللهجة فيهما معاً .

شعراء القرى العربية

كانت بيئة الشعر فى الجاهلية متنقلة غـــير مستقرة ، ومن ثم كان الشعر حظاً مقسوماً بين أجزاء الجزيرة المختلفة ، وكان الشعراء ينتقلون من مكان إلى آخر تبعا لأحوالهم المعيشية ، ومن هنا ظهرت أشعارهم معبرة عن حياة التنقل التى يحيونها ، وعن مشاكل القبيلة التى ينتمون إليها ، وكان كل ذلك ممزوجا بهموم الشاعر نفسه وما يعانيه . .

وإذا كان الشعر العربى فى كثير من الأحوال ينبىء عن الطابع الفردى ، المعبر عن إحساس الشاعر وانفعاله الخاص نحو حدث من الأحداث فإننا لا نلبس أن نلمح وميضا يتألق حينا ويختفى حينا فنرى به آثارا باقية ولمحات فكرية عميقة تـكاد تؤلف فى مجموعها ما يشبه المذاهب المتصلة وما ينبىء عن تلاحق الأجيال وتواردها على الخواطر ، وتلقف الجيل ما ترك الجيل ، فنجد فى الشعر مدارس يقفو بعضها بعضا ويتابع فيها التلميذ أستاذه ، ومن هنا كان لـكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشده ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه فى القريض ، وقد عرفنا من قبل أن امرأ القيس كان رواية أبى دؤاد الإيادى ، وزهيراً كان راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب كما كان الحطيئة راوية زهير . .

وكانت تيارات الفـكر المتلاقية والمتعارضة ينبىء عنها تسرب المسيحية واليهودية إلى الصميم من الجزيرة العربية بعد أن أخذتها من أطرافها ، كما ينبىء عنها انبعاث مذاهب جديدة هى عبـــارة عن صياغة جديدة للخلاصة الصالحة من المسيحية واليهودية ، مضافاً إليهما ذلك النتاج الخاص للنفس العربية فى بيئتها الأصيل ومهد تـكوينها ، فنجد دين الصابئة ، ومذهب عباد الطبيعة ، ونجد ذلك الحس الغامض والاستشراف إلى تعرف الغيب والوقوف على المستقبل .

وتأخذ الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها موجة من الحياة والقوة ، فرحلات الشتاء والصيف إلى الشام واليمن ، وازدهار التجارة ، وازدياد ثروة المدن الواقعة على طريق القوافل وما يتبع ذلك من سريان الحياة ، هذه العوامل وغيرها جعلت المدن مصدراً للحياة الفكرية والنفسية التى كانت تمتلج بها قلوب الأفراد والجماعات[1] .

ولقد كان موقع الحجاز بعيداً عن أطراف الجزيرة بُعداً جعله بمأمن من أن يناله الاضطراب الذى كانت تتعرض له الأطراف المجاورة للإمبراطوريتين القديمتين : الفرس والروم كلما ثارت بنفوس القادة شهوة الفتح ، إلا بذلك القدر الذى يكون به التهديد حافزاً على اليقظة ، والتوجس باعثاً على التماسك ، فاحتفظ لذلك باستقلال عتيد ، انقلب به إلى بقعة تأوى إليها أقدس مظاهر الحياة فى هذه الأمة، وتتلخص فيها أعز مقومات هذا الشعب المبعثر فى أرجاء هذه الجزيرة المترامية الأطراف .

وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة من الحجاز منزلا لكل مضطهد يلجأ إليه فنزله اليهود بعد أن كان يعصف بهم جبروت الدولة الرومانية ، ولجأت إليه أجناس أخرى كانت تهاجر إليه أفرادا وجماعات ، فكان فى الحجاز الفارسى والرومى والحبشى ، وغير أولئك من هذه الأجناس التى كانت تنزل فارة من ظلم أو طالبة لغنم ، أو حاجة إلى بيته المقدس ، وهذا النزوح من الحجاز وإليه ، وهذه التيارات التى تلتقى فيه وتصدر عنه ، وهذا الشعور الذى كان ينبث فى قلوب أبناء الأمة العربية . . كل هذا جعل من الحجاز بيئة شعرية جديدة وخاصة المدينة ومكة والطائف[2] .

وإذا كان المقام يضيق بذكر جميع الشعراء فى هذه القرى العربية ، فلا أقل من التعرف على شاعر يمثل قرية من هذه القرى .

١ ــ قيس بن الخطيم :

هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو بن سود بن ظفر ، من شعراء المدينة ،

(١) راجع تاريخ الشعر العربى: محمد نجيب البهبيتى ص١١٩ط دار الكتب القاهرة ١٩٥٠.
(٢) المرجع السابق .

ويكنى أبا زيد ، وكان أبوه قتل وهو صغير غيلة ؛ وكذلك عدى أبو الخطيم قتله قبل ذلك رجل من عبد القيس ، فلما بلغ قيس بن الخطيم وعرف أخبار قومه وموضع ثأره لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجدّه فى المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله ، وظفر بقاتل جدّه بذى المجاز[1] ، فلما أصابه وجده فى ركب عظيم من قومه ولم يكن مع قيس إلا رهط من الأوس ، فخرج حتى أتى حذيفة الفزارى فاستنجده فلم ينجده ، فأتى خداش بن زهير فنهض معه ببنى عامر حتى أتوا قاتل عدى فإذا هو واقف على راحلة فى السوق فطعنه قيس بحربة فقتله ، فأراده رهط الرجل ، فحالت دونه عامر ، فقال فى ذلك قيس بن الخطيم :

ثأرت عديا والخطيم فلم أضع ... ولاية أشياخ جعلت إزاءها[2]

ضربت بذى الزرين ربقة مالك ... فأبت بنفس قد أصبت شفاءها[3]

وساعدنى فيها ابن عمرو بن عامر ... خداش فأدى نعمة وأفاءها[4]

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نفذ لولا الشعاع أضاءها[5]

ملكت بها كفى وأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها[6]

وقد قال قيس هذه الأبيات من قصيدة طويلة منها :

تذكر ليلى حسنها وصفاءها ... وبانت فما إن يستطيع لقاءها

ومثلك قد أصبيت ليست بكنة ... ولا جارة أفضت إلى خباءها[7]

إذا ما اصطبحت أربعا خط مئزرى ... وأتبعت دلوى فى السماح رشاءها[8]

---

(١) موضع بعرفة كانت تقام فيه سوق من أسواق العرب فى الجاهلية. (٢) أى جعلت القيم عليها.

(٣) بذى الزرين : السيف ، والزر : حده ، والربقة : العروة : يريد موضعها وهو العنق.

(٤) ساعدنى : وافقنى . (٥) النفذ : الثقب ، والشعاع : حمرة الدم ، والشعاع بفتح الشين : انتشار الدم . (٦) ملكت : شددت وضبطت ، أنهرت : أوسعت .

(٧) الكنة : امرأة الابن أو الأخ ، أفضت إلى خباءها : أى ليس بينها وبينه ستر .

(٨) خط مئزرى : أى أنه احتال حتى جر ثوبه من الخيلاء ، وأتبعت دلوى الخ أى أنه بلغ فى السماح منتهاه .

ومن خلال هذه الأبيات نستطيع أن نتلمس شاعرية قيس بن الخطيم، فهو شاعر مطبوع يبتعد فى شعره عن التكلف ولم يحاول أن يميل بشعره نحو الصنعة أو الحلية اللفظية إلا ما جاء عفو الخاطر. كما أنه صادق الإحساس والتعبير، فلم يجنح إلى الخيال ليعبر به عن مشاعره، ولذا فإن أسلوبه واضح وتعبيره رائق وألفاظه جزلة رصينة لا يتسرب إليها الوهن أو الفتور. أما موسيقى شعره فعذبة منساقة مع طبيعة الموضوع الذى يعبر عنه، فإذا ما بدأ شعره بالغزل وجدنا اختياره لألفاظه تشع منها الموسيقى الداخلية الرقيقة التى تنم عن حس مرهف وعاطفة هادئة رزينة، أما إذا تناول فى شعره مواقف الثأر والانتقام إذا بالموسيقى الصاخبة والألفاظ الجزلة القوية تعبر بنفسها عن مواطن هذا الثأر والانتقام.

ومع ذلك فهو شاعر تقليدى، يميل إلى أن يبدأ شعره بالغزل ثم ينتقل إلى الغرض الذى يريد التحدث فيه كما هى طبيعة الشعراء التقليديين.

ولقد بلغ من صدق شاعريته أن أعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره بعد أن سمعه فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى ثم أنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم فأنشده بعضهم إياها — وكان مطلعها:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب[1]

إلى أن بلغ قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدى بالسيف مخراق لاعب[2]

فالتفت إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس وقال: والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا سابع

---

(١) المذاهب: جمع مذهب وهو جلد تجعل فيه خطوط مذهبة بعضها فى إثر بعض، واطرادها: تتابعها.

(٢) الحديقة: قرية من أعراض المدينة فى طريق مكة، والمخراق: خرقة مفتولة يلعب بها الصبيان، وهى ما تسمى فى مصر «الطرة».

عرسه ، عليه غلالة وملحفة مورسة (مصبوغة بالورس . وهو نبت أصفر تصبغ به الثياب) لجالدنا كما ذكر[1] .

وقيل : قدم النابغة الذبيانى المدينة ، فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه ، وذلك بعد أن أنشد النابغة قصيدة له ، وقال النابغة : ألا رجل ينشد ؟ . . ثم أنشد قيس قصيدته :

* أتعرف رسماً كاطراد المذاهب *

حتى فرغ منها ، فقال : أنت أشعر الناس يا ابن أخى[2] .

٢ ـ أبو طالب بن عبد المطلب :

من أكرم رجال مكة وأقوامهم عزيمة وأنفذهم مضاء ، وأشدهم ذكاء أبو طالب ابن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ورث عن أبيه عبدالمطلب بن هاشم عزة النفس وسداد الرأى وقوة المهابة ، وكان كأبيه شاعراً بالفطرة ، ولكنه لا يكاد يقول الشعر إلا عندما تهزه الأحداث .

ويذكرنا التاريخ بعام الفيل ، لما قدم أبرهة الحبشى بجيشه وفيلته لهدم الكعبة وتخوف الناس وملكهم الوجل والهلع ، ظل عبد المطلب ساكن النفس رابط الجأش ، يتمثل صدق إيمانه وقد أمسك بباب الكعبة وأنشد يقول :

لا هم إن المرء يمـ ـنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
جروا جموع عيالهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمـــر ما بدا لك

ومن ثم نشأ أبو طالب وقد ورث عن أبيه كراهية الظلم ومقت العدوان وأوتى مهابة الرؤساء ، ولذا كان أحد الذين سادوا فى الجاهلية مع الإقلال .

(١) الأغانى ج ٦ ص ٣١١ ـ كتاب التحرير .　　(٢) المرجع السابق ٣١٢ .

اشتغل بالتجارة فى الجاهلية ، فكان مثال الصدق وحسن المعاملة وشدة القناعة — ولعل انشغال أهل مكة بالناحية الاقتصادية وقيامهم برحلتى الشتاء والصيف — كان من أسباب قلة الشعر عند شعرائهم مع أنهم كانوا أساطين الفصاحة وأمراء البيان[1] .

شهد أبو طالب ميلاد الدين الجديد ودافع عن نبى الإسلام دفاعا مجيداً ومع ذلك لم يقدر له أن يدخل فى هذا الدين . وقد أثر عنه أنه كان يقول :

ولقــد علمت بأن دين محمد ... من خـــير أديان البرية دينا

ولقد أرادت قريش أن توغر صدر أبى طالب وتثير حفيظته ضد الرسول والمسلمين ولكن أبا طالب — وهو الرجل الحصيف — أدرك ذلك فلم يتأثر ، بل قام يتألف إليه القلوب حتى يصد قريشا عن وجهتهم .

وانقلب الموقف وأثارت مواقف أبى طالب حفائظ قريش فاجتمعت رؤوسهم وتعاهدوا على أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب . وعلقوا الصحيفة فى بيت الكعبة توكيدا على أنفسهم فلما تم لهم ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعبه ، وفى ذلك يقول أبو طالب :

ألا أبلغا عنى — على ذات بينها ... لؤيًّا وخصا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجــدنا محمداً ... نبيًّا كموسى خط فى أول الكتب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الزبى ... ويصبح من لم يجن ذنبا كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حربا عوانا وربما ... أمر على من ذاقه حلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب

ولقد كان لأبى طالب أشعار سائرة وقصائد مذكورة فى مدح الرسول وتأييده والدفاع عنه . وتلك من أسرار النبوة ونفحاتها . . ولذا كان يبدو على هذا اللون من

(١) يضاف إلى ذلك : أن مكة كانت حرما آمنا ولم يكن أهلها يغيرون أو يغار عليهم مما يثير فيهم ثائرة الشعر .

شعر أبى طالب ، طابع الصدق وهو يأخذ شكلا ديلياحينا يتكلم عن الأديان السابقة التى بشرت من قبل أن يأتى رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم . . هـذا بجانب مايتميز به ذلك الشعر أيضاً من القوة والوضوح مع البساطة وعدم التكلف أو الانسياق مع التعبير فى آفاق الخيال .

كذلك يبدو فى هذا الشعر ـ المكى ـ طابع التعظيم للمقدسات العربية وأبرزها بيت الله الحرام ، واحترام المعتقدات والتقاليد العربية النابعة من صميم البيئة من الوفاء بالعهد وإجارة المستجير وما إلى ذلك .

ولقد روى أن عتبة بن ربيعة لما قطع رجل أبى عبيدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر هجم عليه علىّ وحمزة فاستنقذاه منه وضربا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه ، واحتملا صاحبهما من المعركة حتى ألقياه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله ، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنه قد صدق فى قوله :

كذبتم وبيت الله نخلى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل

وننصره حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من قتلى بدر وأمر بطرحهم فى القليب ، جعل يقول : ياعتبة بن ربيعة ، ياشيبة بن ربيعة ، يا أبا جهل بن هشام ، يا فلان ، يا فلان : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا ، ثم أخذ يتذكر من شعر أبى طالب بيتا فلا يحضره ، فقال له أبو بكر : لعله يا رسول الله قوله .

وإنا لعمر الله إن جـد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالأماثـــل

فسر رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال :

إى لعمر الله لقد التبست

ولقد جاء إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم أعرابى فى عام جـدب ، فقال :

يارسول الله : أتيناك ولم يبق لنا صبي يرتضع ولا شارف يجتر[1] ، ثم أنشده أبياتا ختمها بقوله :

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ودعا دعاء السقيا ، فما رد يده إلى نحره حتى تزينت السماء بالغمام وجادت بالمطر ، فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : لله در أبي طالب ، لو كان حيا لقرت عينه ، من ينشدنا قوله ؟ فقام على فقال : يا رسول الله ، لعلك أردت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل

قال : أجل[2] .

٣ ـ أمية بن أبي الصلت :

هو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي ، شاعر ثقيف ، وأحد الملتمسين للدين في الجاهلية .

نشأ بالطائف وكان أبوه شاعراً مشهوراً ، وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى ، بعد أن اطلع على كتب الأقدمين وقرأ التوراة والإنجيل وكان مفطوراً على التدين ، التقى في تجارة له إلى الشام بعض أهل الدين ، فزهد في الدنيا ولبس المسوح وتعبد ، وذكر في شعره إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ، ووصف الجنة والنار ، وحرم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة ، وكان يخبر أن نبيا يبعث ، ويؤمل أن يكون ذلك النبي فلما بلغه ظهور النبي ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ أسقط في يده وقال ، إنما

(١) كناية عن القحط الشديد الذي أصاب الناس في ذلك الوقت .

(٢) من مقال للدكتور عبد الحميد المسلوت بمجلة الأزهر ص ٨٢ ، ٢٦٤ ـ المجلد العشرون لعام ١٣٦٨ هـ .

كنت أرجو أن أكونه ، وحمله الحسد إلى أن يناصب الدين ورسوله العداء ، وأخذ يحرّض قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرثى قتلاهم فى وقعة بدر ، فنهى النبي عليه الصلاة والسلام عن رواية شعره فى ذلك ، وكان يقول ـ إذا سمع شعره فى التوحيد والإيمان والثناء على الله : « آمن لسانه وكفر قلبه » .

شعره :

يعدّ أمية من أكبر شعراء القرى ـ على قلة الشعر فيهم ، غير أن الذى غض من شأنه ، فى نظر بعضهم ـ كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية فى شعره ، وكان أمية يسمى السماء : (صافورة وحاقورة) ويزعم أن للقمر غلافا يدخل فيه إذا خسف ويسميه (الساهور) ، ويسمى الله فى شعره : السلطيط والتغرور ونحو ذلك.

ويمتاز شعره ببعض السهولة فى لفظه ، يذكر بعض العجائب من القصص الخيالية والأساطير الخرافية ، وخلق العالم وفنائه ، وأحوال الآخرة ، وصفات الخالق والخشوع له ، وهو يذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء قبله ، ويتخلل ذلك شىء من الحكم والأمثال .

ولذا تعد قيمة شعر أمية بن أبى الصلت فيما أدخله على أدب العرب من معان وأساليب جديدة ، لا فى رونق كتابته ولا فى جمال تصويره ولا فى متانة سبكه ، وليس من شك فى أن ما تأثر به أمية من كتب الأقدمين وما اطلع عليه فى كل من التوراة والإنجيل كان له دور كبير فى اتخاذه فى شعره تلك الوجهة الدينية ، وإن كان له شعر آخر فى غير الدين يكاد ينحصر فى الفخر والوصف والمديح والرثاء .

ومن نماذج شعره الدينى قوله :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا   بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها   مملوءة طبق الآفاق سلطانا
ألا نبى لنا منا فيخبرنا   ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو ان العلم ينفعنا   أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

وقال فى حادثة الفيل ، وأن الدين الحق هو الحنيفية ـ ملة إبراهيم حنيفا ـ بعد ذكر شىء من آيات الله فى الكون والحياة :

إن آيات ربنـــا باقيات ... ما يمـــارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابـه مقـــدور
ثم يجلو النهار رب كريم ... بمهـــاة شعاعها منشور[1]
حبس الفيـل بالمغمس حتى ... ظـــل يحبو كأنـه معقور[2]
حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث فى الحروب صقور[3]
خلفوه ثم ابـذعروا جميعاً ... كلهم عظم ساقـــه مكسور[4]
كل دين يوم القيامة عنـــد الله إلا دين الحنيفة زور

ومن خير توسلات أمية قوله :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا ... وقولا رضيا لاينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إله ولا رب يكون مدانيا
حنانك إن الجن كنت رجاءهم ... وأنت إلهى ربنـا ورجائيـا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى ... أدين إلها غـيرك الله ثانيا
وإنى ولو سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيبا ورحمة ... علىّ وبارك فى بنىّ وماليـا

طبقة أمية بن أبى الصلت ومنزلته :

قال أبو عبيدة: « اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس (يريد أهل البحرين) ، ثم ثقيف (يريد أهل الطائف) وإن أشعر ثقيف أمية بن أبى الصلت »[5] .

وقال ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التى تكون من الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج،أو قوم يغيرون ويغار عليهم »

---

(١) المهاة : الشمس . (٢) المغمس : مكان .
(٣) الملاويث : جمع ملوث وهو السيد الشريف . (٤) ابذعروا : تفرقوا .
(٥) تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٣٠٤ للسباعى بيومى .

والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلل شعر عمان وأهل الطائف . ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت بن أبى ربيعة وابنه أمية بن أبى الصلت وهو أشعرهم »[1] ثم يقول : « كان كثير العجائب ، يذكر فى شعره خلق السمٰوات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب » .

ولعل الذى يقصده ابن سلام من قوله: « ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء » : ما أضافه أمية بن أبى الصلت إلى الأدب الجاهلى من الأساطير التى استنفدت جانباً كبيراً من شعره .

أما ابن قتيبة ، فلم يذكر عن منزلته الشعرية شيئا ، وكل ما ذكره عنه قوله : « إنه كان يأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب كقوله : « قمر وساهور يسل ويغمد » . . . وكذا ذكره شيئا من ذلك فى المعانى أيضا . كقوله فى الشمس :

ليست بطالعة لهم فى رسلهـــا   إلا معذبة وإلا تجلد

وكقوله عن خيانة الغراب للديك ـ فى شعره الأسطورى :

بآية قام ينطق كل شىء   وخان أمانة الديك الغراب

وقد بالغ صاحب شعراء النصرانية ، فجعله من شعراء الطبقة الثانية ثم أغرق فى المبالغة فقال : « وقيل من الطبقة الأولى » .

والرأى الصواب فى شعر أمية بن أبى الصلت ، أن غير الدينى منه يتجاوز المرتبة الوسطى من شعراء القرى بمقدار ، حيث يفضل أمية معظمهم ولكن لا يبعد فى الفضل كثيرا ، وقليلهم يعلوه كحسان علوًّا كبيراً ، وله فى هذا الضرب من شعره سهولة ألفاظ فى غير ابتذال ، ورقة معان من غير تعقيد . ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى الشكوى من عقوق ابنه ووصف حاله معه حيث قال :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا   تعل بمـا أحنى عليك وتنهل

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٥ ، الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى، للأستاذ محمد هاشم عطية ص ٢١٠ .

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعيناى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المفنـد رأيه ... وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجـار المجاور يفعل

أما شعره الدينى فقد جاء فيه من حيث المعانى طبقة وحده ، وجاء فيه من حيث اللفظ هابط المنزلة ضعيف الأداء، وبخاصة إذا وضع القرآن أمامه فى قصصه أو توحيده يستقى منه ويباريه ، فإن ضعفه حينئذ يكون أبدى للعيان ، شبه ملموس لمن يحاول لمسه بالبنان ، ولذا فإن من سقط القول وعبث المحاولات ، إن تعقد الموازنات بين شعر أمية هذا وبين القرآن، كما فعل بعض المستشرقين البعيدين عن تذوق روح الأدب وإدراك كنه البيان .

المستشرقون وشعر أمية بن أبى الصلت :

يعود الفضل فى إحياء تاريخ أمية بن أبى الصلت وجمع أكثر المنسوب إليه من الشعر فى ديوانه : إلى أحد المتعربة من علماء الألمان وهو : « فريدرك شولتهس » ، وقد عنى بطبعه سنة ١٩١١م ، واستعان فى تصحيحه وضبطه بمراجع كثيرة بين عربية وأجنبية وبذل فى ذلك عناية وجهدا شديدين وإن كان لم يعصمه تعصبه من خطأ البحث وفساد النظر عند ما حاول أن يضع قاعدة عامة من خلالها ـ على حد قوله ـ يمكن « إخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد » ، ويقصد من ذلك محاولة موازنة شعر أمية والقرآن الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم . ولعل هـذا الموضوع يجرنا إلى تلك المسألة التى عنى بها الباحثون عن تاريخ القرآن من الفرنج وبخاصة من المستشرقين ، وهى ـ على ما يزعمون ـ تأثير المصادر العربية الخالصة فى القرآن . فقد كان هـؤلاء البـاحثون يرون أن القرآن تأثر باليهودية والنصرانية ومذاهب أخرى بينما كانت

شائعة فى البلاد العربية وما جاورها ، ولـكنهم رأوا أن يضيفوا إلى هذه المصادر مصدراً عربيًّا خالصاً ، والتمسوا هذا المصدر من شعر العرب الجاهليين ولا سيا الذين كانوا يتحنفون منهم[١] ؛ وزعم « كليان هوار » أنه استـكشف مصدراً جديداً من مصادر القرآن هو شعر أمية بن أبى الصلت وأخذ يقارن بين شعره وبين آيات من القرآن ليؤكد حقيقة ما توصل إليه .

ثم يأتى دور « فردريك شولتهس » ليعترض على « كليان هوار » وإن كان يدور فى فلـكه . . فيقول : « إن إخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد تتوقف على إيجاد ديوان عربى قديم يكون جامعاً لمقدار وافر من الأشعار العربية الصحيحة ، وبفرض العجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن ستمائة بيت لأمية لا يعقل أن تـكون كلها منحولة أو غير صحيحة » . وينكر فريدرك رأى كليان هوار فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ـ استعان بشعر أمية بن أبى الصلت ، ولـكنه يرى أنهما جميعاً اشتركا فى ثقافة واحدة ونقلا عن مصدر واحد . . كما يرفض عقيدة المسلمين فى أميّة محمد وعدم اتصال القرآن على هذا بأساطير أدبية قديمة ، ويزعم أن نشأة القرآن من طريق الوحى كما يعتقد المسلمون من الأساطير التى تعد من الغرابة بمكان[٢] .

وعلى هذا النمط يأتى المستشرقون ليرد بعضهم على البعض وهم يتخذون من مسألة شعر أمية بن أبى الصلت وانتحاله أو عدم انتحاله ذريعة لهم إلى أن يجدوها فرصة ليتطرقوا منها ويتسللوا إلى القرآن ، وهو عين ما يقصدون ـ ليرموه هو الآخر بالزيف والادعاء ، حتى يصل بعضهم إلى القول بأن محمداً وأمية معاً يستقيان ثقافتهما من منبع واحد . . . من أساطير الأولين . . .

ولعل أبرز الأدلة التى يسوقها أمثال هؤلاء المستشرقين ليثبتوا أوجه الشبه بين ما يأتى به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشعر أمية . . هو ورود قصص الأولين فى كل . . . وشتان بين الحقيقة وما يزعمون . . . إذ من المعلوم أن القصص فى القرآن

---

(١) راجع فى الأدب الجاهلى د . طه حسين ص ١٤٢ .

(٢) راجع الأدب العربى وتاريخه للأستاذ محمد هاشم عطية ص ٢٠٦ .

الـكريم وإن وجد منه شيء فى الشعر عند السابقين وخاصة فى شعر أمية بن أبى الصلت ، وإن كان متفقاً كذلك مع ما وردت به شرائع المتقدمين ، فإن القصص القرآنى يجىء دائماً على نمط يخالف مذاهب المؤرخين فى توخيهم لسرد الحوادث كما هى من غير محاولة لزيادة أو نقص ، فهو ـ أى القصص فى القرآن ـ إنما يرمى إلى اتخاذ الماضى وسيلة إلى العبرة وطريقاً إلى تقرير قواعد النظام والتنبيه إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع . . والأمثلة كثيرة فى القصص القرآنى[1] وكلها تؤكد أن هذا القصص لم يهدف إلى تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتب الأساطير ، وإنما الغرض هو إثارة العقول إلى النظر فى حقائق الأديان وتوجيه الفـكر إلى نشأة العقيدة والتأمل فى كيفية تطورها فى الأحيان الماضية ، والإشارة إلى تأليه الإنسان قديماً لـكثير من الظواهر الـكونية بسبب ما كانت تثيره فى نفسه من القلق والرعب ، حتى تبين له من تغيرها وطروء الفساد عليها عدم استحقاقها للعبادة ، وهو مسلك المنطق السليم فى بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة . وكانت الظاهرة فى القصص القرآنى أيضاً والتى أثارت الانتباه، هى كثرة تـكراره ، ليتكرر معه ما يتصل به من العظة ، وليحكى من جديد ناحية أخرى من الحـكمة مع الترقى إلى الإحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه الإعجاز « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

على أن الأمر لم يقف بالمستشرقـين عند هذا الحد ، بل لقد حذا حذوهم من الشرقيين فريقان : فريق مسيحى شايعهم مشايعة دفع إليها الاشتراك فى التدين والتعصب للاعتقاد ، وآخر مسلم أغرم بمحاكاة المستشرقين والهيام وراءهم فى كل واد ، والأول قد ضل ضلالا بعيداً. والثانى شاركه فى هذا الضلال وزاد . . ويكفى فى الرد على هؤلاء وهؤلاء أن ما جاء فى القرآن من القصص إنما هو فى سموه وإعجازه لا تدانيه أية فصاحة أو أى بيان صدرا عن الناس . . ويـكفى أن يتدبره المتدبرون ويعقله القارئون والسامعون ، ليجدوه كما قال منزله: « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[2] :

(١) راجع : الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآنى قديماً وحديثاً ص ٤٥٨ ـ ٤٨٠ رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية د . صلاح الدين محمد عبدالتواب. (٢) سورة هود ، الآية ١ .

القسم الثاني

الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه دراسات للحياة الأدبية فى عصر من أزهى عصور الأدب وأنضرها ، وهو عصر صدر الإسلام .

وكان العصر الأول ـ العصر الجاهلى ـ هو العصر الذى وضع أصول الأدب العربى ومقوماته ورسومه الفنية سواء فى القصيدة أم فى الخطبة أم فى فنون الأدب الأخرى من وصايا ومحاورات ومفاخرات ومنافرات وسجع كهان .

ومن هذه الأصول نستمد مختلف مقومات القصيدة والخطبة والوصية ، ونسير عليها ونحتذيها منذ كان الأدب حتى اليوم .

أما هـذا العصر الثانى ـ عصر صدر الإسلام ـ فقد جاء بأعظم الآثار البلاغية التى عرفتها العربية على الإطلاق ممثلة فى هذا القرآن الكريم ـ رسالة السماء إلى الأرض ـ ثم الحديث النبوى الشريف ؛ فكان أن أحدث هذا العصر كل مقومات حياتنا الروحية والأدبية والعقلية ، حيث جاء بأعظم رسالة نزلت على أكرم وأشرف رسول ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وهـذه الدراسات تناولت بدورها ظواهر الأدب وسماته وعناصره وأصوله بالدراسة والتحليل ، وعرضت لأشهر خصائص ومميزات هذا العصر العظيم .

الفصل الأول

عصر صدر الإسلام

— ١ —

لغة كل أمة لابد أن تتعاور عليها ظواهر الحياة ، وتخضع لنواميس الوجود ، وتمر بها ألوان شتى . من ضعف إلى قوة، ومن جمود إلى حركة وتوثب، ومن انتكاس إلى تقدم وانتعاش .

فقد يطوف بها من الأحداث الجاهدة ، والعواصف القاتلة ، مايبعث فيها الموت ويسلط عليها الفناء وقد تواتيها أسباب الحياة يقظة ، وعناصر القوة والنماء مشبوبة .

ذلك أن اللغة ترجمان القلوب وحديث النفوس ، والأداة المعبرة عما تنطوى عليها الضمائر من فكرة أو خاطرة .

ولقد تأثرت لغة العرب أعمق التأثر بالإسلام الذى بدل كل شيء ، وغير السمات والخلائق لكل مظهر ، وقلب الحياة العربية من حال إلى حال ، وحملها هى أعباء جديدة وناط بها رسالة مجيدة ،فانطلقت تؤديها فى صبر واستجابة ومضت تنهض بها فى سماحة ويسر ، متشحة بما تستلزمه هذه الرسالة من دروع واقية وحلل براقة ، وأسلحة جديدة وسنتناول الأدب العربى وتاريخه فى هذا العصر بالبحث والدراسة .

— ٢ —

يفتتح العصر الثانى من عصور الأدب العربى وهو عصر صدر الإسلام ببعثة محمد صلوات الله عليه ، ودعوته وهو بمكة قريشا والعرب والناس كافة إلى الإسلام عام ٦١٠ م ، وينتظم ما بعد ذلك مما امتد من عهد الرسول بمكة والمدينة وعهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن بن على وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين وقيام دولة بنى أمية على يد معاوية بن أبى سفيان عام ٤١هـ . . . ومدته ثلاثة وخمسون عاما هجريا.

وهو من أعظم العصور فى التاريخ الإسلامى أثراً ، وأكثرها فى حياة العرب والمسلمين والعالم والإنسانية خطراً ، ففيه بدأت ونمت وازدهرت وانتشرت دعوة الإسلام دين البشرية الخالد ، ومنقذها الكريم من ضلال الجهل والسفه والاستعباد والطغيان والرق الفكرى والبشرى والاجتماعى ، وهاديها الأمين إلى شاطىء الأمن والسلام والنور والحرية والمساواة ، وقائدها البر إلى حياة المدنية والعلم والثقافة وحرية الإنسان من العبودية والخوف والفقر والجور .

وناهيك به بعد ذلك عصراً ازدهرت فيه اللغة ، ونبه فيه شأن الأدب ، وصار فيه للسان العربى والشعب العربى السيادة والفوز والغلبة فى شتى الأرجاء والأمصار .

وكيف لا وقد افتتح بأروع جهاد عرفته الإنسانية ، وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء ، وبثورة لم يعرف التاريخ قط لها نظيراً ، ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان وعبودية الطوائف والشعوب للأكثرين عدداً وعُدداً ، ثورة فتحت صفحة جديدة فى حياة العالم وأحالت ظلام الحياة ضياء ونوراً ، وظلمها عدلا وأمنا وسلاما وحرية ، مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين ودعاة الإصلاح .

ومن أولى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأن يرفع فى العالم منارة السلام، وراية المدنية ، وأن يصل الأرض بالسماء ويسمى بالإنسان ليبلغ ما ينتظره من حضارة باهرة وحرية نادرة ، وحياة زاهرة ، فيها الأمن والأمل والرجاء ؟ .

صلى الله عليه ، ورفعه إلى أعلى عليين ، وأكرمه فى أمته كما أكرم أمته به .

— ٣ —

هذا وعصر صدر الإسلام مستقل عن العصر الأموى ، لاختلاف المؤثرات التى أثرت فى الأدب العربى فى هذا العصر عنهـا عصر بنى أمية ، وعلى ذلك سار كثير من الباحثين ومؤرخى الأدب ، وهو ما سرنا نحن عليه فى هذا الكتاب .

وإن كان بعض الباحثين يجعل العصرين عصراً واحداً يبتدىء بانبثاق فجر الدعوة النبوية ، وينتهى بانتهاء عهد الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ .

— ٤ —

والذين شهدوا هذا العصر العظيم من الشعراء يسمون المخضرمين[١] يقول ابن رشيق : « طبقات الشعراء أربعة : جاهلى ، ومخضرم وهو الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، وإسلامى ، ومحدث . ثم صار المحدثون طبقات : أولى وثانية على التدريج وهكذا فى الهبوط إلى وقتنا الحاضر »[٢] .

أما الجاهليون فأمرهم مشهور ذائع، وهم الذين نشأوا فى جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والخطباء والبلغاء وأرباب الفصاحة واللسن والبيان ، وهذه الكلمة جمع لكلمة جاهلى من الجاهلية المأخوذة من الجهل ضد العلم ، لما كان عليه العرب قبل الإسلام من أمية ظاهرة ، أو من الجهل ضد الحلم بمعنى السفه والطيش وسرعة الغضب ، لما كانوا عليه من الإسراع إلى الانتقام والأخذ بالثأر وشن الحرب لأتفه الأسباب .

وأما المخضرمون[٣] فإذا تركنا حديث الاشتقاق اللغوى فان الغالب على من عاش فى هذا العصر أن يكون مخضرما ، إذ يغلب أن يكون قد أدرك الجاهلية والإسلام .

---

(١) وقل أن يطلق ذلك الاسم على البلغاء والأدباء والخطباء مع أن مثل هذه الفنون الأدبية أخت الشعر وشبيهة به فى كثير من خصائص الأدب .

(٢) ٧٢ / ١ العمدة لابن رشيق طبع عام ١٩٢٥

(٣) من الخضرمة يقال أذن مخضرمة أى مقطوعة فكأن الشاعر انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام : وقيل أسلم قوم فى الجاهلية على إبل قطعوا آذانها فسمى كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرما ، وزعم هذا القائل أنه لايكون مخضرما حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبى وقد أدركه كبيراً ولم يسلم ، قال ابن رشيق: وهذا عندى خطأ لأن النابغة الجعدى ولبيداً قد وقع عليهما هذا الاسم (٧٢ / ١ العمدة ط ١٩٢٥) .

وقال أبو الحسن الأخفش : هو من قولهم ماء خضرم إذا تناهى فى الكثرة والسعة فنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والإسلام مخضرما كأنه استوفى الأمرين (٣٠٤ / ٢ المزهر، ١٧٢ / ١ العمدة)

وحكى : شاعر محضرم بالحاء مأخوذ من الحضرمة وهى الخلطة لأنه خلط الجاهلية والإسلام (٣٠٥ / ٢ المزهر ، ١٧٣ / ١ العمدة) .

أما الذين نشأوا فى الإسلام وتأدبوا بآدابه، وقالوا الشعر متأثرين بالعوامل الجديدة التى نشأت مع الحياة الإسلامية فهؤلاء إسلاميون يغلب عليهم أن يكونوا قد عاشوا فى دولة بنى أمية واستظلوا بظلها ، إذ من الثابت أن كثيراً من الشعراء الذين تأثروا بالإسلام ومبادئه قد بهرتهم بلاغة القرآن وفصاحته ، فانقطعوا عن قول الشعر وعقمت ألسنتهم وبلاغتهم عن إنشاده، ولم يستمر على صلة بينابيعه الثرة ، إلا هؤلاء الذين بعدوا عن روح الإسلام ولم يتأثروا به وعاشوا فى عزلتهم فى البادية ، فلما سكتت عنهم هذه الروعة قليلا بإلفهم لهذه البلاغة المعجزة وبخضوعهم لآثار بيئتهم وحياتهم الجديدة ، بدأوا فى نظم الشعر ، ولم يعودوا إليه إلا وقد انتهى هذا العصر وبدأ عصر جديد هو العصر الأموى الحافل .

أثر الإسلام فى حياة العرب الاجتماعية

يرى الباحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام مبلغ ما كان يسودهم من تنافر وتناحر وشقاق وخصام وحروب مدمرة مهلكة تأكل الأخضر واليابس ، وأحقاد وأضغان تستبيح كل إثم وتستهين بكل جرم ، لأتفه الأسباب وأوهى الحوادث يهيج الشر وتعصف العداوة وتلتهب نار الخصومة . لا يرعون لأحد حرمة ولا يرقبون فى إنسان إلًّا ولا ذمة، يتفاخرون بالأحساب ويتكاثرون بالأنساب، ينقضون الميثاق إذا واثقوا، ويغدرون بالعهود إذا عاهدوا ، يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ويستقسمون بالأزلام ، ويقامرون بكل ماتمتلكه أيمانهم ويتعصبون للباطل عصبية هوجاء حامية ، تقوم معاملاتهم فى غالب أمرها على البغى والظلم ، فهم : « إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

فلما جاء الإسلام هذب الطبائع ، وغير العادات ، ومحا ما كان فيهم من السوء ، دعا إلى الإخاء والصفاء وعلمهم كيف يحترمون العهود ويحافظون على المواثيق (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعــد توكيدها) (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) . . . وحرم عليهم الربا وجعله لا يربو عند الله ، « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله — لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة — يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وحذرهم من الخمر لأنها تغتال العقول ، وتستلب من المرء أقدس مظاهر البشرية « إنمــا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

كذلك جعل الإسلام الأخوة فى الدين أسمى وأقدس من إخاء النسب، حتى يستل ما فى النفوس من سخائم العصبية وطبائع الجاهلية ، ويعمر صدورهم بالحب والسماحة « إنما المؤمنون إخوة » وجعل الكرامة والعزة بما يعمر القلوب من التقوى ويغمر النفوس من صدق الإيمان « إن أكرمكم عنــد الله أتقاكم » « ومن أبطأ به عمله

لم يسرع به نسبه » . والناس عنده سواء ، وهم سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، والمؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

بدلهم الإسلام بحياتهم المضمحلة وعيشتهم الفككة وأخلاقهم المنحلة وأنسابهم المغمورة، حياة شريفة سمحة لايستبد بها طيش ولا يسودها حقد ولا تفسدها ضغائن، أبدلهم بالجفاء والغلظة وخشونة القول وسوء المعاملة أدباً كريماً وقولا ليناً وخلقاً عظيما وطباعاً تفيض بالجلال والبهاء ، إذ تعتمد على طهارة النفوس وسلامة الصدور وصفاء القلوب ، وتلك من أكبر النعم وأقدس الآلاء (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .

ولقد حارب الإسلام الأديان الفاسدة ، والعقائد الباطلة ، والأوهام الضارة ودعا إلى التوحيد الخالص ، وإلى التفكير المستقل ، وبث فى الناس حب المعرفة . . هذا إلى أثره البعيد فى حياتهم السياسية ، وجمعه لهذه القبائل العربية المتنافرة ، فى ظل دولة موحدة ، مما كان له أثره القوى فى الحياة الاجتماعية .

أثر الإسلام فى الأدب

وقد أثر الإسلام فى الحياة الأدبية تأثيراً كبيراً، سواء فى ألفاظ اللغة أم فى أساليبها أم فى فنون الأدب المختلفة : من شعر ونثر وخطابة وكتابة ، أم فى أغراض كل فن منها ، مما سنبحثه باستقصاء فى الفصول الآتية .

والتصوير ، يجرى الشعر على ألسنة العرب شعوراً وطبعاً وملكة، وتحتفل نواديهم الأدبية بالبليغ المأثور من جيد النثر: خطابة ومحاورة ووصايا ونصائح وسواها. والعرب يهزهم البيان ، وتملكهم بلاغة القول ، ولا يرون عبقرية إلا فى شعر يروى أو كلام بليغ يؤثر .

ومع ذلك فقد غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية تغييراً كبيراً واسعاً .

وليس يرجع ذلك إلى ما اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن . ولا إلى آثار مدنية وحضارة ، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة ، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة ونضال خصوم الإسلام، وإنما يرجع ذلك كله إلى المصدر الأول لثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية ، وهو القرآن الكريم الكتاب المعجز ، الذى أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة وقوة وبدل حوشية الألسنة سهولة ووضوحاً وبلاغة، أورث العرب وضوحاً فى التفكير ودقة فى التعبير والتصوير وروعة فى الحجة ، ودقة فى الأساليب، وشرفاً فى الغرض ، ونبلا فى المقصد .

أثر الإسلام فى اللغة

وحدة اللغة وذيوعها :

أثر الإسلام فى اللغة جد خطير، لا يمكن تفصيل القول فيه تفصيلا، وإنما نكتفى بهذا الإجمال :

١ ـ جاء الإسلام وللعرب لهجات مختلفة، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج، ولنفوذ قريش الروحى والاقتصادى بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة ، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة. وكان من قريش ومن السلالات المضرية أبناء عمومتهم رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمراؤها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها ، فكان لذلك أثر كبير فى انتحال العرب لغة قريش بعد قليل ، أما ما تووِرث من لغة حمير ، فلم يكن متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً سواء فى التصريف أم الإعراب أم الأسلوب بل كان أكثره ظاهرا فى اختلاف بعض الألفاظ عن بعض فى الدلالة على المعانى المتحدة فالكتع فى اللغة الحميرية هو الذئب فى لغة قريش ، وأنطى فى لهجة حمير بمعنى أعطى عند قريش ، والشناتر فى كلام الحميريين هى الأصابع فى لسان قريش ، وسامدون لغة حميرية وهى فى لهجة قريش الغناء ، وهكذا[1] إلى غير ذلك مما له نظير فى لهجات المضريين أنفسهم كالسدفة فهى الظلمة عند تميم والضوء عند قيس .

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها فى لغة قريش التى أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات .

٢ ـ وهذه الفتوحات الإسلامية الباهرة أدت إلى انتشار العرب فى شتى البلاد المفتوحة وإلى ذيوع اللغة العربية فى أكثر هذه الأقطار، وصارت هى اللغة الرسمية فيها،

(١) فالأرائك لغة حمير ، وكذلك : المعاذير، والوزر، والحور، واللهو (وهو عندهم المرأة)، إلى غير ذلك مما تجد بعضه فى الإتقان (ص ٢٢٨ وما بعدها جـ ١ ط ١٩٤١).

وأصبح يلهج بها بعد قليل سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقيا الشمالية ، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة فى هذه البلاد وسواها .

أغراض اللغة :

وزادت أغراض اللغة بتأثير الدين الجديد، وما نشأ عنه من نظام ومدنية وعمران وثقافة .

فقد استعملت فى شرح العقيدة الإسلامية والدعوة إليها وحجاج خصومها وتبيين مراميها واستنباط أحكامها ، كما استعملت فى حفظ نظام الملك ونشر الأمن والعدل بين الناس ، وفيما استدعته حياة الحضر الجديدة وشئون الثقافة والمرفة ، وفى إرشاد الناس إلى أحكام دينهم ، وتذكيرهم بأوامره ونواهيه .

إلى ما سوى ذلك من شتى الأغراض الجديدة التى تناولتها اللغة فى هذا العصر زيادة عما كانت عليه فى عصر ما قبل الإسلام ، وبعد أن كانت اللغة فى الجاهلية تعبر عن عقول محدودة صارت تنطق عن عقول استضاءت بهدى القرآن وتأدبت بأدب الإسلام .

معانيها وأسلوبها :

وظهر فى معانى اللغة الدقة والتفكير والفهم والعمق ، بما أفاده المسلمون من ثقافة القرآن والدين ومن خبرة وتجربة وإدراك صحيح للحياة ، كما اتسعت مادة المعانى باتساع المشاهدات والمناظر والمعقولات والمعنويات ، وتعددت صور الخيال فى روعة وجمال تعبير ، بتجدد وتعدد صور المشاهدات التى ينتزع منها والتى كانت مادة له .

أما أسلوب اللغة فقد شاعت فيه العذوبة والسلاسة فى جزالة ، وأخذت بأطرافه القوة والجمال والوضوح وروعة التأثير وقوة الحجة وتأجج العاطفة والتهاب الشعور ودقة الإحساس الأدبى ، وذلك لتأثرهم بالقرآن وبلاغته ، مما رقق من نفوسهم القاسية فسلست طباعهم وألسنتهم وملكاتهم ؛ ولم تقبل إلا السمح المهذب من الأساليب .

وبتأثير الإسلام بطل سجع الكهان وأضرابهم ممن يستنبئون الحصى ويزجرون

الطير ، وبطل الفجر فى الأسلوب فصار عفاً كريما سمحاً ينطق عن عاطفة دينية قوية ويصور حياة روحية واسعة ، وينم عن تأدب بأدب الإسلام وتأثر ببلاغة القرآن ، ولقد غلب عليهم الإيجاز بادئ ذى بدء لعدم فراغهم من أعبـــاء الدعوة والملك والفتوحات .

ألفاظ اللغة :

وقد كانت هناك ألفاظ كره الإسلام مدلولها وأحبط آثارها فبطلت مهمتها وانقضى عملها وأصبحت لا تلائم الحياة الجديدة ولم تلبث سنة الوجود أن لفتها فى الأكفان ، ومن تلك الألفاظ : عم صباحا أو عم مساء ، فقد أبدلها الإسلام بلفظ السلام ، وقولهم : أبيت اللعن : أى أبيت أن تفعل شيئا تلعن به .

وكذلك هذه الألفاظ التى جاءت فى قول الشاعر :

لك المرباع فينـا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فقد كانت تجرى عاداتهم إذا غنموا أن يعطوا المرباع ، وهـــو ربع الغنيمة للقائد ويعطوه الصفايا ، وهى ما يؤثره ويصطفيه لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة ما أخــذه الجيش فى الطريق قبل أن يصل إلى قصده ، والفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمته ، وكان للرئيس . أبطل الإسلام معانى هذه الألفاظ التى تثير الحقد وتغرس الأضغان والأحقاد ، وجعل مكانها الخمس . قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

وهناك ألفاظ أخرى أحياها الإسلام وأوجد لها معانى بجانب ما تحمله من معنى وتدل عليه من مرمى كالصلاة والصيام والزكاة والركوع والسجود والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق والظهار والإيلاء والعدة والنفقة ، وهكذا ، من الألفاظ الكثيرة التى تزخر بها قواميس اللغة ومعاجمها . وستطالعنا فى هذه المحاضرات الآثار الرائعة القيمة التى أحدثها الإسلام فى لغة العرب : معانيها وألفاظها وأساليبها .

الفصل الثانى

القرآن الكريم بلاغته وإعجازة

ليس هناك أبلغ فى وصف القرآن الكريم من قول الله سبحانه وتعالى فى شأنه : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[١] أجل . . فلطالما يتلو المؤمن كتاب الله تعالى ، متفهما معانيه ، مستجلياً ألفاظه ومبانيه ، مستشفاً أسراره وخفاياه ، ويعلم الله ما من مرة يفرغ فيها من تمامه إلا وهو يعرف عنه ويرى فيه ما لم يعرفه أو يره فيما سبق من مرات .

ولطالما يدرس الدارس ما شاء الله له من علوم القرآن على اختلاف أنواعها ، وتباين سماتها ، وما من علم من علومه إلا ويقف منها على جديد لم يكن يعرفه ، أو يطلع فيها على سر من أسرار البيان لم يكن ليدركه . . . لولا هذا القرآن العظيم .

وقد يكون المؤمن الدارس لكتاب الله ، قبل تلاوته ودراسته يستمع إلى آى من هذا الذكر الحكيم ، فإذا به يجد نفسه مشدوداً إليها بسمعه وبصره لا . . بل بكافة حواسه ومشاعره ، فإذا بها آيات بينات ، تنساب إلى النفس انسياب النسمات الرقيقات ، وتنفذ إلى القلب وكأنما هى همسات ، وأحيانا صرخات . . وكل من الهمسات والصرخات تعرف طريقها النافذ إلى الأعماق .

وبين التلاوة والمدارسة يتمكن المؤمن الدارس من إدراك الحقيقة ، لا . . . بل بعض هذه الحقيقة ، فما كان لمدع أن يدعى الوقوف على كل أسرار القرآن العظيم . . . تلك هى الإعجاز القاهر من القرآن ، والعجز العاجز من العرب ، الذين لم يكد يشرق القرآن فى دنياهم حتى وجدوا فيه لغة غير ما كانوا ينطقون أو يسمعون أو يعرفون ؛ لغة هى المثل الأعلى فى البيان ، وفى روعة التعبير وعظمة التصوير[٢] .

---

(١) سورة هود الآية ١

(٢) راجع : الأثر القرآنى فى الصور الأدبية: رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية للدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب من ص ١ إلى ص ٦

ومع أن العرب فى جاهليتهم قالوا الشعر وتفننوا فيه ، فما امتدّ النفس فى جيده إلى أطول من المعلقات ، وقالوا النثر ، ولم يكد فنهم فيه يطغى على ما أبدعوه من أشعار . . . فقد أتى القرآن ، وكأن العرب ـ وهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان ـ لم يسمعوا ولم يعرفوا بيانا من قبل ، مع أن القرآن لم يخلق معجما جديداً ، ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة عندهم فى البيان ، وكل ماصنعه القرآن أنه أخرج من المادة التى ألفوها آيات هى السحر الحلال « وإن من البيان لسحرا » . فلم يلبثوا أن تحيرت منهم الألباب ، ودهشت نفوسهم لهذا العجب العجاب .

ومع أن القرآن جاء بهذا اللسان العربى ، وعلى طريقة العرب فى الأداء والتعبير ، لكن هيهات أن ترق أساليبهم إلى أسلوبه ، مع كثرة ما جاءوا به من محاسن الشعر وعيون النثر ، إذ أن لغة القرآن تدفقت بأسلوب مبدع لا عهد لأحد بمثله . فلا هو موزون مقفى ، ولا هو مرصع مسجع ، يتجزأ فيه المعنى فى عدد من الفقر ، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع أو تسجيع ؛ وإنما هو آيات مفصلة متناسقة ، تروع الخيال بما فيها من تصوير بارع ، وتسحر الوجدان بما فيها من منطق ساحر ، وتأخذ بالأفئدة والألباب بما تحمل من إيقاع جميل ، وتلك لعمرى خصائص الشعر الأساسية ، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل .

ومن أجل هذا لم يلبث العرب أن أبدوا دهشتهم وحيرتهم معا ، إزاء هذا البيان الرائع ، فتخبط الكثيرون منهم فى الحكم عليه ، لما رأوا فيه من سحر لعقولهم وقلوبهم ، فمن قائل إنه الشعر ، إذ رآه منسجما منسابا ، فحسبه المنظوم ، ولكنهم ـ وهم زعماء القريض ـ ما كانوا ليجهلوا أمر المنظوم « وما هو بقول شاعر »[1] . ثم مالبث آخرون أن قالوا : هو السحر ، وهم حقا معذورون ، وإن كانوا فى ضمائرهم مبطلين فقد رأوه معجوزاً عنه ، غير مقدور عليه ، كما أحسوا له وقعاً فى قلوبهم وقرعا فى نفوسهم يزيد من ريبتهم وحيرتهم . فإذا هم أمام البيان القرآنى ، وقد أبطل قولتهم ، وأمعن فى تجهيلهم : « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ »[2] .

(١) الحاقة ٤١ (٢) سورة الطور : الآية ١٥

ثم يشهد شاهدهم بأن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، وما هو بقول البشر ، والعجيب فى الأمر أن هذا القائل نفسه ينقض رأيه والحقد يأكل قلبه، فيقول: « إن هذا إلا قول البشر »(١).

وهو فى ذلك ليس بأحسن حالا من أولئك الذين استبدت بهم الحيرة والدهشة وذهبوا بقولهم بعيدا: «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا»(٢)

هى حيرة ودهشة إذن ، بل هو إعجاب وإعجاز معاً . وإلا، فما الفرق بين الكلام والكلام ، والمادة هى المادة فى حروفها وألفاظها وكلماتها ؟ ؟

المادة حقا هى المادة . ولكنها ليست هى هى فى اتساقها ، وجمال نظمها، وحسن عرضها ، بجانب فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها وسمو أغراضها .

نعم . . المادة هى المادة . . ولكنها ليست هى هى فى شفافيتها وانبعاث الروح المعبرة منها بما يروع النفوس ، ويهز المشاعر والأحاسيس: «الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد »(٣) .

وإذا كانت آيات الله البينات يقرؤها القارئ ، أو يسمعها السامع وهى تؤدى غرضها ليعرف الإنسان خالقه ، ويدرك خيره فى معاشه ومعاده . فإن نفس الآيات مع ذلك نراها وقد عرضت فى أطر بديعة منسمة ، فى جو يشع منه الجمال والجلال .

أما الجمال : ففى العرض ، وقوة الأداء ، وإيقاع العبارة، وإيحاء الإشارة على نحو لا شبيه له ولا مثيل .

وأما الجلال : فلو أن الجبال الرواسى قرعت بشىء لتسير عن أماكنها ، أو أن الأرض الصلبة صدعت بشىء حتى تغيرت معالمها، أو أن الموتى فى قبورهم خوطبوا بشىء فقاموا من مضاجعهم، لكان هذا الشىء هو القرآن العظيم . وصدق الله قائله : ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعاً »(٤) .

---

(١) المدثر ٢٥ (٢) الفرقان ٥ (٣) سورة الزمر : ٢٣ (٤) الرعد ٣١

وحتى الآيات التى تناولت أمر العقيدة ؛ و تولت عرضها ، إذا نحن نظرنا إليها ، وجدناها تخاطب العقل والقلب معاً ، فلا هى بالألفاظ والعبارات الرتيبة ، التى يضيق بها سامعها أو تاليها ، ولا هى بالمعانى المجردة الغامضة التى تثير اللبس والإبهام ، وإنما هى الصور الأدبية الرائعة ، التى جمعت فى إطارها رونق اللفظ ورشيق المعنى وجمال الاتساق ، حتى كانت تلك الصور الحية النابضة ، التى يتملاها الخيال ، فـــلا يكاد ينتهى عنها إلا وقد انطبعت فى النفس وأثرت فى الحس ، وأقنعت الخيال وأمتعت الوجدان وليقرأ أو يسمع من شاء قول الله تعالى « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز »[1] .

أما الآيات الأخر التى تدل على عظمة الله وقدرته ، والتى تذكر الإنسان وتهديه بالعبرة والعظة . فهذه وغيرها إنما يجىء عرضها بنفس التصوير الأدبى الرائع ، والتعبير الفنى الجميل ، وفى إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس يستثير الحس ويستنهض الخيال : « فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق ، فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون »[2] .

« والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »[3] .

فنحن إذن أمام آيات محكمات ، بينا هى مسوقة لأداء غرضها الدينى ، اذا بنا نستشعرها وهى تتصل بالوجدان الدينى عن طريق الوجدان الفنى ، وبينما هى تعبر وتصور ، إذ بهذا التعبير والتصوير يأتى بالصورة المحسة المتخيلة ، عن المعنى الذهنى

---

(١) الحج : الآيتان ٧٣ ، ٧٤ (٢) الانشقاق الآيات من ١٦ — ٢١

(٣) سورة الشمس الآيات من ١ — ١٠

والحالة النفسية ، وعن الحادث المحس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ، ثم لا تلبث الآيات أن ترتقى بالصورة التى ترسمها فتمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الإنسانى حى شاخص ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .

فأما الأحداث والمشاهد ، وأما القصص والمناظر ، فإننا نراها هى الأخرى شاخصة حاضرة ، فيها الحياة والحركة ،فإذا أضيف إليها الحوار فقد استوت لها عندئذ كل عناصر التأثير ، فما يكاد العرض يبدأ ، حتى يتحول المستمعون ، إلى شهود وقد انتقلوا إلى مسرح الأحداث نقلا،حيث تتوالى المشاهد وتتنوع الأحداث ، ثم لا يلبث القارىء أو السامع أن ينسى أنها كلمات تتلى وأمثال تضرب ، بل هى مشاهد تعرض وأحداث تقع ، فهذه شخوص تروح على مسرح الأحداث وتندو ، وهذه مظاهر الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، والمتساوقة مع الأحداث ، والأمر لا يعدو بعد كل هذا كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة ، وتلك هى معجزة البيان أو إعجاز القرآن .

من أجل ذلك كان حتما مقضيا أن يشغل بالقرآن منذ نزوله كل من قرع القرآن سمعه ومس شغاف قلبه ، إذ ليس القرآن كلاماً عاديا كغيره من الكلام وإنما هو حقا كما قال فيه منزله « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[1] .

لم يكن من الغريب — إذن — أن يجتذب كتاب الله الحكيم ، ذلك العدد الوفير من العلماء منذ نزوله ، وكلهم يطوفون حول القرآن وأساليبه وإعجازه وتفسيره ووجوه قراءاته . وكان من أبرز هؤلاء : أهل البيان ، الذين رأوا من روعة التصوير فى القرآن ومن دلائل الإعجاز فيه ، وما جعلهم يعنون بدراسته واستخلاص القواعد والمقاييس من نماذجه الرائعة . وإن كان القرآن فى سموه وإعجازه فوق كل القواعد والمقاييس .

---

(١) سورة هود : الآية ١ ، وراجع : الأثر القرآنى فى الصورة الأدبية ، التصوير الفنى فى القرآن .

وكان من الذين عنوا بدراسة القرآن وإعجازه : أبو الحسن الرمانى ، الذى راعته بلاغة القرآن ، فوضع رسالته « النكت فى إعجاز القرآن العظيم » وعرف فيها البلاغة بأنها : « إيصال المعنى إلى القلب فى حسن صورة من اللفظ » وهو نفس تعريف ابن رشيق للبلاغة فيا بعد ، حيث كانت البلاغة عنده « إهداء المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ » .

كما أننا رأينا عبد القاهر الجرجانى قد وقف بدوره ـ كما وقف سابقوه ـ على قضية الإعجاز التى كانت الحافز الذى دفعه بقوة إلى نهاية الطريق ، يتفرس التراكيب. ليقف على وجوه الحسن والجمال فيها ، ثم ليتمكن من بعد من الوقوف على بعض مظاهر الإعجاز فى كتاب الله الكريم .

ومن ثم لم يكن الرمانى ولا عبد القاهر الجرجانى وحدهما فى هذا الميدان ، ميدان البحوث والدراسات القرآنية ، فقد تعدد الباحثون قبلهما وبعدهما ، وكل أدلى بدلوه فى هذا المعين الفياض ؛ يغترف منه ، وكل أبلى بلاء حسناً فى حدود طاقاته وإمكانياته واتجاهاته .

وكان لتلك العقول الكبيرة فضل فى تفتق أكمام البيان القرآنى عن مسائل ولطائف فى فنون القول وجماله ، وما زالت دراسات إعجاز القرآن تؤتى أكلها وتزداد على مر الزمان حيوية وإنتاجا ، إلى أن توصل علماء الإعجاز إلى دقائق ولطائف كثيرة فى أسلوب القرآن ، وبلغت مقدرة بعضهم درجة طيبة ، وأصبحت بعض دراساتهم فى شرح وتحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل متطلع فى فن القول ، ومرجعاً لكل باحث فى خفايا التعبير العربى .

ولقد كان من العجيب حقا فى آيات الله البينات أنها جاءت فى أسلوب لا مطمع لطامع فى مثله ، فلم يكن فى قالب شعرى ، وليس هو بالنثر المعهود وإنما أدى هذا الأسلوب بشكل خاص به مقصور عليه ، ومذهب متفرد لم يسبق إليه ، فلا هو موزون مقفى ، ولا هو مسجع يتجزأ فيه المعنى فى عدد من الفقر ، ولا هو مرسل

يطرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع .وإنما هو أسلوب له مزاجه الخاص فى الاتصال والانفصال ، وفى الطول والقصر ، تتلو بعض سوره ، فإذا أنت مضطر فى تلاوتها إلى الأناة والتمهل ، لأنها فصلت فى ريث ومهل ، لأداء معان تحتاج إلى البسط والريث ، كالتشريع مثلا . وكوصف ما كان يثار بين المسلمين والمشركين من الحروب ، وتتلو بعض سوره الأخرى ، فإذا أنت مضطر إلى شىء من الإسراع ، لأنها تؤدى معانى يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف ، قد فصلت آياتها قصارا ، ملتمئة الفواصل ، تقرؤها، فكأنما تنحدر من عل ، وذلك حين يخوف الله عباده ويشتد فى تخويفهم ، فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج .

ولما كانت الصورة الأدبية[١] فى القرآن موجهة أول ما توجه إلى النفوس البشرية لتحدث فيها تأثيرها الفعال ، فإن هذه الصورة اعتمدت ـ فيما تعتمد على عنصر الصوت. وليس بخاف أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب فى تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدًّا أو غنة. أو لينا أو شدة. وبما يهىء له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها.

من أجل ذلك صيغت أسجاع القرآن وفواصله، وصولا بصورته إلى أعماق النفوس، ولعل تلك الخاصة الصوتية للصورة القرآنية ، والتى اتخذت لها من الوسائل ما تفردت بها عن غيرها . لعل تلك الخاصة هى إحدى ظواهر الإعجاز فى كتاب الله، والتى من أجلها سمى قرآنا دون غيره من الكلام ، لأنه مقروء ، ولا يصل إلى منتهاه فى الروعة والتأثير إلا بتلاوته وسماعه ، ومن أجل ذلك كان قول الله سبحانه: « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »[٢] ، بل كان الحث على ترتيله ترتيلا ،لاقراءته كيفما اتفق . وما ذاك إلا ليتم حسن إيقاعه ووقعه فى النفوس ، فيعظم أثره، قال تعالى « ورتل القرآن ترتيلا »[٣] .

---

(١) راجع : الأثر القرآنى فى الصورة الأدبية ص ٨٣ـ٩٩ رسالة ماجستير د . صلاح الدين محمد عبد التواب .   (٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٤   (٣) سورة الزمل الآية ٤

وكان من أبرز الخصائص التي تميزت بها الصورة الأدبية في القرآن : ذلك التناسق الفني البديع ، الذي جمع في إطار الصورة ، وفي وقت واحد معا . بين رشاقة اللفظ ، ودقة المعنى وجمال الاتساق بين اللفظ والمعنى ، في الوقت الذي يعز فيه أن يجتمع هذا الجمال ويكتمل في تصوير أدبي غير القرآن ، ومن خلال هذا التناسق وجدنا القرآن يستخدم كل ما يمكن أن يتخذه من الوسائل المثيرة للخيال — وهو الحق كله — لتفعل فعلها في النفوس . ولكي تتعمق الصورة وتثبت في الإدراك والوجدان رأينا القرآن يستعمل صور البيان المختلفة — من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية وغيرها من أبواب المجاز .

وربما يقول القائل هنا : إن العرب قد استعملوا أيضاً هذه الوجوه لإثارة الخيال وتحريك العواطف وإلهاب الوجدانات والمشاعر ، فـما هو الجديد إذن في تصوير القرآن ؟

ولكنه فرق . وأي فرق . فرق بين تصوير وتصوير ، وفرق بين تأثير وتأثير .

إن الصورة الأدبية عند أبلغ البلغاء لم تخرج عن نطاق كونها من تصوير البشر محدودي الأفق . فهم على قدر وقوفهم على مظاهر الحياة والأحياء يكون تصويرهم ، وبمقدار علمهم بدخائل النفوس وطبائع الأشياء يكون تعبيرهم ، فضلا عن أن البليغ مهما عظم بيانه فإنه تبدو على كلماته مسحة الانفعال بأغراضه ، ولذا يكون تأثيره في السامع أو القارئ على قدر تأثره هو ، طبعاً أو تطبعاً .

أما التصوير القرآني . فإننا نحس من خلاله أن وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذا الغرض أو ذاك . قوة تؤثر حين تصور ولا تتأثر . قوة العالم بخفايا النفوس وطبائع الأشياء ، فهو يسوق لها من ألوان المؤثرات ما يتناسب وطبيعتها وينفذ منها إلى الأعماق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[1] ؟ ؟

ومن هنا يبدو الفرق أيضاً بين التأثير والتأثير . فتأثير الصورة في غير القرآن

(١) سورة الملك : الآية ١٤

لا يتعدى سلطانه على النفوس حد إطرابها والحصول على إعجابها ، ثم لا يلبث هـذا الإطراب والإعجاب أن ينقضيا بانقضاء معالم هـــذا التصوير ، وبمجرد الانتهاء من التعبير . أما تأثير الصورة القرآنية فإنما يسرى فى النفوس سريان الروح فى الأجساد ، فلا يزال يحركها ، ويتسلط على مشاعرها ، فـــلا تملك النفس إلا أن تتابع بخيالها ووجدانها تلك الصورة ، ذاهبة وراءها كل مذهب .

ولنتلُ — على سبيل المثال — قول الله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين »[1] .

فهذه الصورة المشمة الموحية المعبرة ، تثير الخيال ، وتجعله عاكفا على تمثل تلك الحركة العجيبة التى لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال ، هذه الحركة هى ولوج الجمل فى سم الخياط — الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة — بعد عمر طويل .

فهذه صورة ليس فيها استعارة ولا كناية ولا تشبيه، ولـكنها فقط تعبر عن معنى المستحيل غيبا بصورة المستحيل حسًّا ومشاهدة . ومع هذا التخيل الرائع فى التصوير فإن الآية تعبر عن الحق الذى لا شك فيه . وذلك سر من أسرار الإعجاز فى بيـان القرآن الـكريم . كذلك كان من خصائص التصوير الأدبى فى القرآن الـكريم تلك الروعة الفنية . التى تجلت فى الآيات المحـكمات حين استعرضت كلا من مواقف الدنيا والآخرة ، استعراضاً لم يعد له عالم الغيب موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيا متحركا . جعل الناس يعيشون فى هذا العالم عيشة كاملة — وهو لمـا يأت بعد — فرأوا مظاهره ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورف إليهم من الجنة نسيم ، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العـــالم تمام المعرفة قبل مجىء اليوم الموعود ، بعد أن عرضت عليهم مواقفه فى صورشتى ، تتراءى فى عشرات من الأوضاع

(١) الأعراف ٤٠

والأشكال والسمات وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، تتملاها النفس ويتابعها الخيال ، ويستغرق فيها الحس والوجدان ، وهي بذلك تضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال .

وخاصة أخرى تطالعنا بها الآيات الخالدات ، في ظاهرة كانت سمة من سمات القرآن البارزة ، تلك هي ظاهرة التقابل بين صوره ، وليس المقصود هنا تقابل جزئيات الصورة فحسب ، بل التقابل بين صورة كاملة في شكلها ومضمونها ، وبما فيها من إيقاع موسيقي وانفعال نفسي ، وبين ما يقابلها في صورة أخرى بكامل شكلها ومضمونها كذلك .

وما أروع هذه المقابلة ـ في الشكل وفي المضمون معاً ـ في قول الله تعالى :

« كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد »[1] .

ففي وسط هذا الروع ، ومن خلال الهول الذي ترسم صورته هذه الآيات . وهي تبرز لنا ذلك العرض الرهيب الذي تشترك في تجسيمه جهنم « وجيء يومئذ بجهنم » ، وتلك الإيقاعات القوية الصاخبة ، والمنتظمة مع الموقف في رهبته وروعته ، والمنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر « كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً » .

في وسط هذا العذاب المروع والهول المفزع ، نجد الصورة المقابلة تماماً في الآية التالية مباشرة ، حيث يقال لمن آمن :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيــة مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »[2] .

هكذا في عطف ولطف : « يا أيتها النفس » . هكذا في روحية وتكريم . و « المطمئنة » وسط هذا الروع المظلم ، و « ارجعي إلى ربك » في وسط هذا الشد والجذب والوثاق المهين لهؤلاء الآخرين .

---

(١) سورة الفجر ٢١ ـ ٢٦ (٢) الفجر ٢٧ ـ ٣٠ وراجع التصوير الفني في القرآن .

ورجوع النفس المطمئنة إلى ربها ، بينها وبينه من صلة وتكريم ، و « راضية مرضية » . بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كله بالرضى والتعاطف « فادخلي في عبادي » ممتزجة بهم منتظمة في سلكهم ، « وادخلي جنتي » هكذا في إعزاز وإكرام وتفضيل[1] .

وهكذا نلمس الإيقاعات المناسبة مع كل موقف ، وهذا من عظمة التعبير وجمال التصوير وروعة التأثير التي تنساب دائما من خلال آيات الله المحكمات . والتي يشهد لها كل من قرأها أو سمعها وانفعل بها بأنها تجمع في إطارها كل منابع الحق والخير والجمال.

وإذا كانت الصورة القرآنية قد عنيت عناية كبيرة بأمثال هذه المقابلات الواضحة القوية . فبرزت لذلك كاملة الوضوح دقيقة المعالم قوية التأثير ، فما ذاك إلا لأن القرآن قدعرض في تصويره نماذج للحياة والأحياء ، والطبيعة كلها صور متقابلة: أرض وسماء، ليل ونهار ، خصب وجدب ، مرتفعات ومنخفضات ، صلابة وليونة ، استقامة والتواء ، إلى آخر هذه الصور المتقابلة في الحياة والأحياء ، وما يتعاقب على هذه المظاهر من تبديل وتغيير وتحول من النقيض إلى النقيض ، ومن ثم فإن سامع القرآن أو تاليه لم يكد تعرض له سورة من سوره الرائعة إلا ويتهيأ بعدها لاستقبال الصورة المقابلة المتوقعة . وهنا يكتمل في نفسه التصوير ثم يعظم التأثير .

كذلك من الخصائص التي تميزت بها آيات القرآن الكريم : أنهـا جاءت في إطـار واحد موجه للعامة والخاصة معاً ، فلم تترفع لتخاطب الخاصة ، ولم تبتذل لتخاطب العامة ، بل كانت على مستواها الرفيع الواضح ، شأنها شأن الشمس في عليائها يستمتع بها الصغير والكبير على السواء ، ويراها كل مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته . وصدق الله العظيم حيث يقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[2] .

---

(١) راجع الأثر القرآني في الصورة الأدبية ١٥٠ — ١٥٥ ، والتصوير الفني في القرآن ٧٩ — ٨٠ (٢) سورة القمر ١٧

ومما اختص به الأسلوب القرآنى أيضاً : روعة انتقاله من معنى إلى معنى أو من حالة إلى حالة ، انتقالا يحرك النفس ويزيد من متابعة الخيال لهذه الصور المتتابعة وهى تنتقل من الدنيا إلى الآخرة ، وترتفع من الأرض إلى السماء ، وتتحول من خطاب الإنسان العاقل إلى خطاب الجامد الذى لا يفهم ولا يعى ، والأعجب من هذا ، أن التصوير القرآنى مع كونه فى أروع الـكلمات افتنانا وتنويعاً فى الموضوعات ، هـو أروعه افتنانا وتنويعاً فى الموضوع الواحد ، مع أن هذه التحولات السريعة المستمرة والتنقلات المديدة المتنوعة مظنة الاضطراب ، ولـكنه التصوير القرآنى الذى يحتفظ دائما بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وروعة التأليف وجودة السبك ، حتى صاغ من هذه الأفانين الـكثيرة منظراً مؤتلفاً متناسقا ، يشهد لهذه القدرة الباهرة بالعظمة والإبداع والإعجاز .

على أنه مهما كانت تلك الخصائص للصورة الأدبية القرآنية . فإن النفس لا تزال تتطلع إلى هذا التصوير الذى يتحد فيه معاً إقناع العقل وإمتاع الوجدان ، وإلا . فمن لهذا الـكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بمـــا يشبع نهم الفلاسفة المتعمقين ، وفى ذات الوقت له من المتعة الوجدانية ما يأسر قلوب ذوى الحس المرهف والعاطفة الجياشة فينعم منهم بكلماته الحس والوجدان ؟

إنه لتصوير رب العالمين ، فهو ــ وحـــده ــ الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو ــ وحده ــ القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان .

فليس بعجيب ــ إذن ــ أن توضع الصور البيانية فى القرآن نصب الأعين أمام الأدباء والنقاد على السواء .

أما الأولون : فقد جعلوها المعين الفياض الذى منه يغترفون، وإن كانوا لم يدركوا كل السر فى هذه الحلاوة ، وفى هذا السحر الحلال .

وأما الآخرون : فقد حاولوا جاهدين من أجل أن يكون التصوير القرآنى مقياساً لكل تصوير أدبى رائع جميل، ولكن هيهات أن تدنى أى مقاييس من جمال التصوير فى القرآن الكريم . اللهم إلا إذا أدرك الناس كنه الروح التى أضفاها الله على الكلم فحركتها وصورتها .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[1].

وصدق الله العظيم

---

(١) الإسراء ، ٨٥ . وراجع : الأثر القرآنى فى الصورة الأدبية ص ٢٧٥ ـ ٢٨٤ رسالة ماجستير ، الدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآنى قديما وحديثاً ص ٤٩٨ ـ ٥٢٠ رسالة دكتوراه للدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب. الرسالتان بمكتبة كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر.

الصورة الأدبية فى القرآن الكريم

— ١ —

نريد من هذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية ؛ فضلا عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية ، التى كانت جدتها حدثا كبيرا ضخما من أهم الأحداث العالمية ، وأكبرها إثارة وجليل أثر ، وكبير خطر فى الحياة .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد ، وبأكثر وأكبر مما أتى ويأتى به أى جديد ، وأن جدة القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم ، ومع كل ما وصل إليه الفكر الإنسانى من تطورات مذهلة ، ونتائج جديدة فى نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة ؛ وجدة القرآن الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور إنسانى وبشرى ، وأمام كل تقدم فكرى بلغته الحياة حتى اليوم ، والقرآن الحكيم كما كان جديدا على عقل إنسان القرون الأولى لنزوله ، فإنه بفكره المشرق المضىء ، وما أتى به فى مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول وأرسخ الدعائم ، هـــو جديد أبدا ، وسيظل هو الجديد دائما على مر العصور والأجيال والأحقاب .

لن نفيض فى الحديث إذن عن الجدة فى القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية ، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن جدة الصورة الأدبية فى القرآن الكريم . . ويدفعنا إلى ذلك أمران :

الأول : جانب المعجزة فى القرآن الكريم .

والثانى : جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الأدبية ، فضلا عما يجمع عليه كل المنصفين من أهميته وقيمته وأثره فى الناحيتين الروحية والفكرية .

ولا يستبين للباحث أهمية أى نص من نصوص الأدب ، أو أثر من آثاره الرفيعة ، إلا إذا أدرك إدراكا عميقا مدى الجدة فى هذا الأثر ، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التى يضيف بهـا إلى الفكر الإنسانى شيئا لم يضفه إليه السابقون .

ومن حيث كانت جدة القرآن فى جوانبه الروحية والفكرية أمرا مسلما به ، فان الذى سينتهى بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة فى الصورة الأدبية للقرآن الكريم أيضا ، لأن تقريرها أساسى لتقرير أى أثر وفهمه ومعرفة قيمته .

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة فى الصورة الأدبية للقرآن ؟ ولا نطلق البحث إطلاقا ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما فى القرآن من الجانب الأدبى عامة من جديد ؟ .

نعم نريد أن نبحث عن الجديد فى الصورة الأدبية فى القرآن الكريم وحدها ، لأن الصورة الأدبية هى الإطار العام للأدب ، وهى التى تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته ومختلف وظائفه ؛ وهى التى تستثير الباحث أول ما يستثيره فى النص الأدبى من خصائص ومميزات على أن الصورة الأدبية فى النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الأدبية، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف إلا نادرا جدا ، وفى أقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للأدب .

والصورة الأدبية لها معنيان عند نقاد الأدب :

الأول : أنها تعنى المنهج وطريقة الأداء ؛ وتساوى بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبى من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة .. الخ .

والثانى : أن الصورة هى الشكل فى النص الأدبى ، وتقابل المضمون الذى هو الفكر أو المعنى ، أو الغرض أيضا (مع بعض التجاوز) فى النص ، فعلى هذا تكون الصورة التى هى الشكل فى النص الأدبى شاملة للعبارة ـ أى الأسلوب ـ وللخيال

الذى يلون عاطفة الأديب ويصورها . وعندئذ نقف فى النص بين الشكل والمضمون ، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة ، فلا يطغى أحدهما على الآخر ، فلا يطغى المضمون على الشكل أى الصورة . وإلا خرج الكلام من باب الأدب إلى العلم ؛ ولا تطغى الصورة على المضمون ، وإلا كان الكلام أدبا لفظيا إنشائيا لا وزن له فى باب الفكر ، بل فى مجال الأدب أيضا ؛ وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة ، كما يهتم بالصورة أو الشكل .

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الأدبية فى القرآن الكريم بالمعنى الأول الذى هو طريقة الأداء ، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الأدبية بالمعنى الثانى الذى هو الشكل أو النظم أو الأسلوب .

— ٢ —

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد انتهت إلى جنسين كبيرين هما النثر والشعر ، فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والأسطورة والقصة الشعبية القصيرة ، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف .

ولم يكن للنثر وفنونه وأجناسه فى المجتمع العربى كبير خطر ، ولا عظيم شأن ؛ وكان أكثره ارتجالا واقتضابا ، وليس فيه ثقافة واسعة ، ولا فكر مضىء ، وأكثره يذهب فى الشتات والاختلاف وتفكك الوحدة الفنية (أو العضوية) مذهبا بعيدا ، فضلا عن أن النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلى احتفالا يذكر ، ولم يوله عناية ما ولا أحله منزلة خاصة ، وفوق ذلك كله فقد فقد النثر الجاهلى قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين ، ولضياع أكثره للمدة الطويلة التى عاشها هذا النثر معتمدا فى بقائه على الحافظة وحدها ، والحافظة يند منها النثر ولا يبقى طويلا فيها بعكس الشعر لأنه مقيد والنثر مطلق ، والمقيد يبقى فى الذاكرة أكثر مما يبقى المطلق . ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلى قد رفضه كثير من الدراسين والنقـــاد ؛ ومن بينهم لفيف من

المستشرقين وطه حسين أيضا ، رفضوا أن يسمى نثرافنيا ، لأنه فى رأيهم لم يكن محتويا على عناصر النثر الفنى ومقوماته ، وذهبوا إلى أنه أشبه بالنثر الشعبى ، الذى يستعمل لغة لأحاديث الحياة اليومية العابرة . . ولكل هذه الأسباب كانت الصور الأدبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات أهمية تذكر فى مجال النقد وموازين الكلام والحديث عن القيمة الفنية .

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب فى مجتمع الجاهليين ، وهو المجتمع الذى نزل القرآن متحدثا إليه مفيضا فى التوجه ـ كل التوجه ـ له .

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفنى ، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من قصائد المعلقات المعروفة ذات الصبغة المتوارثة العمودية ، التى وضعت تقاليدها الفنية العريقة كل ألوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التى ورثناها عن الجاهليين وكانت لهذه القصائد منزلتها ومكانتها وأهميتها فى المجتمع العربى ، فهى حديث الناس ، وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم ، وهى التى ينشدونها فى مجالس لهوهم وجدهم ، وفى مسامراتهم ، وأنديتهم ، وفى أسواقهم وحروبهم وحلهم وترحالهم ، وهى على العموم آية عبقرية ، ودليل شخصية وذاتية عظيمة والشاعر عنـــد ما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية فى مجتمعه ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس ، وبلغ من أمر قصائد المعلقات أن علقت على أستار الكعبة .

وإذا أردنا أن نعرف قيمة قصائد المعلقات هذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينـــا أنها :

١ ـ تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية .

٢ ـ وأنها تخلو من كل وحدة فنية ، مما لاحظه عليها ، كثير من النقاد المعاصرين من أمثال العقاد فى كتابه « مراجعات » وغير العقاد أيضا ، كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلى من مجلة الثقافة[1] .

(١) جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى ـ أحمد أمين مجلة الثقافة المصرية ـ عام ١٩٣٩

٣ ـ وأنها تمثل منهجا بدويا فى التعبير والأسلوب واللفظ والخيال ، وليس هو كل شىء فى مذاهج التعبير الأدبى .

٤ ـ وأنها كذلك تكثر أخطاء الشاعر اللغوية فيها كثرة مذهلة .

ولسنا نقول نحن ذلك تجنيا على القصيدة العربية القديمة ، بل لقد سبقنا إلى ذلك الإمام أبو بكر الباقلانى فى كتابه المشهور « إعجاز القرآن » الذى درس معلقة امرىء القيس المشهورة فى صفحات عديدة من كتابه ، وأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها .

ونحن نعرف أهمية قصائد المعلقات معرفة وثيقة فهى التى وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية وهى التى تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلا كاملا وهى التى استنبطت منها أحكام اللغة العربية وقواعدها فى بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها وأحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك .

وهى كذلك التى أمدتنا بالشاهد والمثل على كل شىء فى لغتنا العربية ، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضى الله عنه يقول : إذا عزّ عليكم فهم شىء من كتاب الله تعالى فالتمسوه من شعر العرب[1] ، فنحن لا نريد أن نغض من قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية أو ننفر منها ، ولكننا نضعها فى موضعها الذى وضعه فيها الإمام الباقلانى فى مقام حديثه عن إعجاز القرآن الكريم .

هذه القصيدة الشعرية إذن كانت أرفع صور الأدب فى مجتمع الجاهليين ، ومع ذلك فإنها لا تزن شيئا فى مقام الحديث عن الصورة الأدبية من القرآن الكريم .

— ٣ —

فما هى إذن الصورة الأدبية فى القرآن الكريم والجديد فيها ، والطريف منها ، والشىء الذى لم يعرفه الجاهليون من أجناسها وفنونها وألوانها وطرق أدائها ؟

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك فى كتابنا الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى، وكتابنا موقف النقاد من الشعر الجاهلى .

لأول وهلة نجد أنفسنا أمام أشياء جديدة كل الجدة ، ففرقان وقرآن وآيات وسور أسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك .

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »[١] .

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »[٢]

« آلر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا ، لعلكم تعقلون »[٣] .

« طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »[٤] .

« سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات، لعلكم تذكرون »[٥] .

ولم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب ، فلم يتخذ شكل القصيدة ـ الجاهلية نمطا له . ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة .

ولكننا نجد فيه القصة فى أرفع أشكالها وأروع ظلالها ،ونجد فيه الخيال الرفيع فى ألوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة ، ونجد فيه البشارة والإنذار والوعد والوعيد ، ونجد أرفع الأوصاف وأجل الصور .

لم يكن القرآن شعرا ولا سجعا ولا مزاوجة ولا نثرا مرسلا ولا خطابة ، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من مناهج كلامهم، ينصرف على وجوه مختلفة، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأمثال ، وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وسير مأثورة ، ويتردد بين طرفى الإيجاز والإطناب ، كلمه يضىء ، كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح فى البدن ، والأمن فى الوطن ، وكالغيث الشامل ، والسحاب الهاطل ، وكالضياء الباهر ، والبحر الزاخر .

---

(١) آية ١٠٦ سورة الأسراء . (٢) آية ١ من سورة الفرقان .
(٣) آية ١ من سورة القصص . (٤) آية ١ و ٢ من سورة طه .
(٥) آية ١ من سورة النور .

وإن تعجب فعجب تصوير القرآن الكريم للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها وللنفس البشرية فى سلمها وحربها ولهوها وجدها وألمها وأملها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا فى الحياة المهذبة الكريمة ، التى يسعى إليها إنسان الإسلام ، وتسير لشاطئها الأمين إنسانية الحياة فى ظلال الدين ؛ لأنه خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق ، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة .

وفى القرآن الكريم من سمو وصفاء الحكمة ؛ وإتمام مطابقة المثل ، ما جمع به البلاغة من مختلف أقطارها . وفيه من الحجة الدامغة ، والروحانية الصافية، والحديث عن العقيدة ، والإفاضة فى بيان الشرك والإيمان ، والشر والخير ما يوقظ الضمائر ، ويحرك العقول ، ويثير النفوس .

وفيه من أخبار الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، والشرائع البائدة ، والأديان السالفة ، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن الإخبار بالمغيبات ، ومن الإفاضة فى شرح الدعوة ، وبيان التشريع ، والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار الشاهدة فى خلق السموات والأرض ، وبقياس الغائب على الشاهد، وبضرب الأمثال ، وبالبراهين العقلية المجردة ، وفيه من حسن التقسيم ، وجمال المقابلة ، وروعة الطباق ، وبديع الجناس ، ورفيع الفواصل ، ما يهز القلوب ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه .

ومع ذلك كله فهو ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية ، وليس شعر أو أدب أو حكمة أو تاريخ أو اجتماع ؛ وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات ، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، فهو كتاب الإنسانية كلها ، وصحيفة البشرية قاطبة.

وما أروع القرآن فى فواتحه ومقاصده وخواتيمه ، وفى مبادئ آياته وفواصلها ، وفى حديثه عن المعانى الدقيقة ، والأفكار العميقة ، والأغراض النبيلة ، وفيما اشتمل

عليه من دقة التصوير ، وجمال الوصف ، مع سمو التعبير وعظمة التأثير ، وروعة الإيجاز ، وسحر المجاز وبلاغة التكرار ، وفصاحة التعريض ، يصور نعيم المؤمنين ، وسعادة المتقين ، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة ، وبالسعادة والفرحة ، وبالسرور والحبور ، وبقرة العين ، وانثلاج الصدر ، وبالعجب والطرب . ثم يصور هلاك العاصين وشقاء الجاحدين وعذاب الكافرين ، فيتركك حليف الهم والحزن ، والتذكر والاعتبار ، والتفكر والتدبر ، والألم والدفع ، والبكاء والعبرة المنسكبة ، والآهة المرددة .

والسورة القرآنية ، قصيرة أو طويلة ، تجيء ممثلة لفكرة ، ومصورة لغرض ، ومؤدية لمعنى ، وتسير فى جوها العبق ، وأفقها الساحر ، وجوانبها المشرقة ، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة ، وتجدك تمشى مع الغرض القرآنى ، غاية فغاية ، فى وحدة واتساق ، وفى نظام عجيب ، وترتيب غريب ، وفى منطق متسق ، وحجج متدافعة متدفقة ؛ وتجد الآيات تتحرك فى معرض الاستدلال كأنها موكب من نور ، ومهرجان مصور لأدق خفايا الشعور ، وحنايا الصدور ، ونجد فى هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التى تمثلها السورة الأخرى ، وغرضا واضحا غير الغرض الذى ترمى إليه السورة السابقة أو اللاحقة .

وتجد افتتاحات السور العجيبة ، مثل صٓ ، نٓ ، قٓ ، طه ، طسم ، طسن ، حم ، الر ، آلم ، إلى غير ذلك .

ونجد الآيات تتوالى فى السورة ، وكأنها البحر الهادر ، والموج العاصف ، ونجد الفواصل فى السورة ، موقعة الخطا ، منغمة الحروف ، وتجد القصة والعبرة ، والموعظة والحكمة فى قالب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت ؛ وفى طابع من الحسن والجمال ، ولا كحسن يوسف وإخوته .

وتجد لكل سورة اسما عجيبا : البقرة ، والرعد ، والطور ، والمائدة ، والكهف ، ويونس ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومحمد ، والنور ، والمؤمنين ، والمنافقين ، والضحى ، والشمس ، والقتال ، والفتح ، والحشر ، والصف ، والنساء ، والطلاق ، والتحريم ،

والأحزاب ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، وآل عمران ، والجمعة ، والعصر إلى غير ذلك ؛ وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة ، ولكل قصة حدثا وعبرة .

وكل ذلك نمط مخالف لأنماط البيان عند الجاهليين، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين تنزلت عليهم هذه المعجزة الإلهية الحكيمة . . إنها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثلا ولا شبيها بها ، ولا تجدها نفسها ، إلا فى القرآن الكريم .

سبحانك ربى ، أنزلت القرآن ، وفصلت الفرقان ، وأحكمت البرهان، وأنت رب العالمين ، ومنزل الكتاب المبين ، ورأى العرب الكتاب شيئا عجبا ، ومنطقا جديرا ، ومنطلقا فسيحا من الحكمة الإلهية الجليلة ، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع إلى محمد يتلو آيات الكتاب: «لقد كلمته فأجابنى بشىء ماهو بسحر ولا كهانة ولا شعر» إنما هو الوحى ، الوحى المنزل على محمد بن عبدالله ؛ الوحى الذى نفس بعض العرب على محمد أن ينزل عليه، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس يقول له : ما تقول فيما سمعت من محمد ، فقال الأخنس : ماذا أقول : قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، وقالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم عادوا يقولون : فينا نبى ينزل عليه الوحى ، والله لا آمنت به أبدا .

إنه الوحى المنزل من السماء ، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء؛ وكفاه ذلك فخرا على فخر ، وسناء على سناء .

— ٤ —

ونتحدث الآن عن الجدة فى الصورة الأدبية القرآنية ، التى نريد منها الشكل وما يقابل المضمون ، بعد أن تحدثنا عن الجدة فى الصورة الأدبية القرآنية التى يراد منها الجنس الأدبى وطريقة الأداء والمنهج الذى ينتهى إليه المتكلم فى التعبير .

والصورة التى نريد أن نتحدث هنا عنها ، ونريد بها الشكل فى النص القرآنى ، لا يمترى أحد ، ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام فى أنها والجدة صنوان ، وفى أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان .

تتكوّن عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات ، ويضاف إليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفنى، من الإيقاع واللحن للكلمات والعبارات ومن الصور والظلال التى يشتقها التعبير ، ثم هناك طريقة تتناول الموضوع ، أى الأسلوب الذى تعرض به التجربة الأدبية .

والصورة المثيرة للالتفات هى القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره ، والتى تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الأدبى وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيره للألفاظ تخيرا دقيقا .

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلا ، يؤثر لفظة على لفظة ، ويفضل كلمة على كلمة ، ويقول كثير من النقاد : إننا نفكر بالألفاظ ، أى أن الألفاظ هى مظهر إدرا كنا الفكرى، وعمل الأديب تهيئة الجو الفنى للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والإيقاع وترسم الصور ، وتؤدى المعانى فى رشاقة وحركة ، وتتابع وعذوبة ؛ نقرأ قوله تعالى كتابه العزيز فى سورة « والضحى ، والليل إذا سجا » فنجد جوا من الهدوء والطمأنينة والنعمة ؛ ونقرأ قوله تعالى : « فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » ، فنجد كل لفظ فى التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت فى كل جانب خوفا وطلبا لموضع الأمن؛ ونقرأ قوله تعالى « عُتُل بعد ذلك زنيم » فنجد البلاغة فى أرفع منازلها ، ولا نجد لفظا يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة . . وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعنى تمثيلا دقيقا رائعا كاملا غير منقوص . . .

والخيال فى الصورة الأدبية يبدو فى مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل . . .

والإيقاع أو اللحن فى الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال .

وموهبة البليغ تجعل أسلوبه مملوءا بالحيوية والمتعة والتأثير ، وتجعله لا يقلد أحدا فى لفظه ولا فى عبارته ؛ وليس الأسلوب حشدا من الألفاظ المرصوصة ، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية ، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى فى الذهن .

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعي فيه مقامات الكلام وأحوال بلاغته ، فتوضع الجزالة فى موضعها، والرقة والعذوبة فى موضعهما ، ويوضع التقديم والتأخير، والذكر والحذف ، والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، كل فى موضعه، وبذلك تكمل الصورة ، وترتفع منزلة الأسلوب فى البلاغة ، ومن البدهى أن أبلغ الكلام هو مالا يلقى فيه بالأحكام الفكرية جزافا ، وإنما يجب أن يصور الأسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم وإحساسه بالتجربة الشعورية التى يصورها .

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح النقدى كله هى كل شىء فى البلاغة ، أو أهم شىء فيها ولو أردنا أن نقول إن الصورة الأدبية بهذا المعنى ، وهو ما يرادف الشكل أو النظم أو الأسلوب جاءت على أبلغ ما يكون الأداء فى القرآن الكريم ، وعلى أروع ما يكون التصوير فى أسلوب الذكر الحكيم ، لما أتينا بجديد فى الموضوع .

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة، عما ألف العرب فى بلاغتهم وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج فى أسلوبه وصوره عن النطاق الذى كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، والتشبيه والتمثيل ، والمجاز والإيجاز ، والاستعارة والكناية ، والتمثيل والتعريض ، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية إلى مستوى القمة ، وحد الإعجاز ، ومنزلة السحر والروعة ؛ ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآنى وبين نظائره من كلام العرب لوجدنا البون شاسعا ، والفرق بعيدا ، ويطول بنا الأمر لو وازنا بين أساليب القرآن وأساليب العرب ، فإن النتيجة التى سنخرج بها من هذه الموازنة هى عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الأسلوب والسحر فيه .

والعناصر الأخرى الجديدة فى الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها ، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير فى طريقها محاولة الكشف عنها ، من مثل الوحدة العضوية فى الصورة الأدبية ومن مثل التجربة الأدبية التى يؤديها البليغ ويحملها كلامه ، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال فى الصورة ، ومن مثل النظم والشكل

فى النص ، ومن مثل أثر الإلهام أو الصنعة فى الصورة الأدبية ، ومن مثل الرمزية فى الأسلوب أو الفكرة ، ومن مثل الوضوح والجمال والتأثير فى الأسلوب ؛ وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة الأدبية ، كالرقة والجزالة ، وكالتعريض والكناية ، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك .

والعناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجدة ، كل الجدة ، فى كل جوانبها وألوانها ، سواء منها العناصر القديمة التى تدوول استعمالها فى الأسلوب ، أو العناصر الجديدة التى كشف عنها النقاد المحدثون ، أو القضايا البيانية المتصلة بالصورة التى كشف عنها النقاد القدماء ، ولو حاولت أن أبيّن كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله فى ساعة أو بعض ساعة ، وكمن يظن أن فى قدرته الإحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد فى أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

— ٥ —

وحسبك أن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها ، ومن إشراق البيان وجمال الديباجة ، وعبقرية التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، وبين القوة والعذوبة ، وبين حرارة الإيمان وتدفيق البيان ، فهو السحر الساحر والنور الباهر ، والحق الساطع والصدق المبين .

نظم رائع وألفاظ عذبة ، وخيال صادق ، وعاطفة حارة ، وفكر رفيع ، تملك على القارئ والسامع لبه ووجدانه ، وعقله وبيانه ؛ ولما سمعه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع آيات من أول سورة «طه» وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع «فصلت» ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التى كان يتعبّد فيها محمد ليلا ، ليسمعوا هــذه البلاغة الباهرة خفية ، إلا دليل السحر القرآنى الذى جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم : إن هو إلا سحر مبين ، وقولهم : إن هذا إلا سحر يؤثر ؛ السحر القرآنى

الذى يتمثل فيا يتمثل فى صدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وجمال النظم ، وإحكام البيان ، وروعة التصوير .

إى وربى ، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أساس من ألفاظه ، وهل ترى نظما أحسن تأليفا ، وأشد تشاكلا وروعة من نظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، الآخذ بمجامع القلوب ، والمشاعر ، والنفوس .

إن بلاغة الصورة الأدبية وجدتها فى القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها وأسرار إعجازها باحث أو ناقد .

وحسبك روعة القرآن وجدته وحيويته وأخذه بالأفئدة ، والأسماع والمشاعر ، والعواطف والنفوس ، وحسبك خلوده على مر الأيام ، واختلاف البيئات والعصور .

هذه البساطة فى الأسلوب ، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه ، والجزالة والعذوبة فى أطرافه ونواحيه تمثل فيا تمثل جانبا من جوانب عظمة التصوير فى القرآن الكريم .

وهذا أعرابى سمع قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ؛ وهذا آخر سمع قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على هذا الكلام .

وماذا نقول فى حسن التأليف وتخير الألفاظ ، والتئام الكلمات ، وإحكام الصنعة ، وجودة السبك ، وكمال البيان ، وجمال الرونق ، ومتانة النسج؟ وماذا نقول فى هذا النظام الفريد ، والنسق الغريب، وفى هذه النضارة والجلالة ومن ذلك الإشراق والبهاء ودقة الصوغ ؟

ألفاظ كأنها السحر ، وكأنها الدر ، تشع نورا كما يشع الفجر ، وتهدر حركة وحياة ونموا وتجددا كما يهدر البحر ، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر .

وصور تموج كما تموج العواصف ، وتتحرك كما تتحرك الأشباح لراكب مسرع فى السير .

وبلاغة هى حديث الأيام ، والتى سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالى الأعوام ؛ وما هى إلا الضوء السافر ، والهدى الباهر ، والوحى الصادق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أو رأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على الرسول وسمع منه ، فقال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعـلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه .

والسورة القرآنية تطول وقد تقصر ، وهى مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات ، مشرقة الصور والقسمات والصفحات ؛ نسق هو السحر ، وتآخ وصفاء وتعاقب فى الترتيب كأنه الوحدة الإلهية التى دعا إليها القرآن ؛ ممثلة فى كلمات .

المعنى عند العربى كان يتم بتمام الجملة ، وهذه الجملة قصيرة فى نظمهم ، ولـكل جملة معنى ، وتتوالى المعانى دون ترتيب ولا نظام ؛ وجاء القرآن الـكريم ، فصارت الجملة تمثل أرفع المعانى وأدقها ، وساد نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر ، وقد تطول الجملة القرآنية ، وتتركب فيها الصور ، وتتوالى المشاهد ، وتتعاقب المعانى ، وقد لا يؤدى المعنى القرآنى آية أو آيات ، بل عشرات الآيات ، ومع ذلك فلن تجد إلا فـكرا مهذبا ، ونظاما محـكما ، وتصويرا منمنما ، ووشيا منمقا ، وإحكاما فى الصياغة ، ودقة فى الصناعة ، ولن تجد إلا وشيا يبهرك جماله ، ويسحرك جلاله ، ولن تجد إلا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح.

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير ، وإبراز معالم المعنى جزءا جزءا ، وحركة بعد حركة ، وإن شئت فاسمع قوله تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا » ، وقوله تعالى : « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما » ، وقوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا » ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة وهى من سورة الـكهف لرأينا فيها

هذه الحركة العنيفة المتدافعة ممثله فى أروع بيان ، وأبسط تعبير ، ورأينا فيها هـــذا الإيجاز الرفيع البليغ من أداء المعنى كاملا غير منقوص ، ورأينا فيها هـذه الصورة البديعة لأروع تصوير للغرض المقصود ، الآية ثلاث جمل قصار :

١ ـ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض .

٢ ـ ونفخ فى الصور .

٣ ـ فجمعناهم جمعا .

وترى فى الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة ، والسر فى ذلك هو كلمة يموج التى أدت لك الصورة كاملة ، والمشهد رائعا ، والمعنى ممثلا أدق تمثيل ، وأدت لك الحركة والحياة ، ومشت بك إلى آفاق رحيبة من جلال الأداء وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير .

وفى الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذى يصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر هيمنتها وسيطرتها إلى الناس أن قد جاء أمر الله ، وأن نهاية الأمر لابد أن توضع ، وأن الناس وهم فى أمر مريج لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد ، وأمر عتيد ، وقدر شديد .

وتجىء الجملة الثالثة تعلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعا إلى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان ، وأن قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هول كثرتهم ، وشدة شتاتهم ، ومن ثم جاء التأكيـد بالمصدر « جمعا » ليدلك على عظمة القدرة ، وروعة المشهد ، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق فى هذا الموقف العصيب .

ولو أن بليغا من أبلغ الناس ، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان ، حاول أن يؤدى هذا المشهد العظيم ويصوّره ، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه ، لما استطاع أن يقول ، ولما قدر أن يتـكلم ، ولما أمكنه أن يؤدى هذا المعنى فى عمقه ودقته بمثل هذا الأسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته .

إى وربى ؛ إنه القرآن الحكيم، إنه الذكر المبين ، إنه الجلال والعظمة، والإيجاز والإعجاز ، وروعة التصوير التى لا تقف عند حد ، ولا تنتهى إلى بيان .

وماذا أقول ، وأنا مهما قلت فلن أقول شيئا ولن أبلغ بكلامى مبلغا ما .

يا كتاب الله ، يا معجزة القرآن، يا آية البيان، يا روعة الدهور ،يا عظمة العصور، يا جلال السماء ، يا حكمة الأنبياء ، يا وحيا نزل على محمد بن عبد الله . . يا كتاب الله حسبى ، فإن الإنسان لأعجز عن أن يحيط بما احتويت عليه من أسرار البيان ، ودقائق الفرقان ، وروائع التصوير والتبيان .

أثر القرآن فى اللغة والأدب

كان للقرآن الكريم فى لغة العرب وآدابهم أبلغ الآثار وأروع النتائج ، وإذا كان قد قلب حياتهم وهذب أوضاعهم وغير تفكيرهم ووسع آفاقهم ، فلا بد أن يصقل لغتهم ويقوم أساليبهم ، ويطبع ألسنتهم بطابع جديد .

وأى شىء فى حياة هؤلاء الناس لم يقلبه القرآن ، ولم يخلع عليه جمالا وحسن سمت وبهاء رونق ؟

وكان من مظاهر تأثير القرآن فى اللغة ما يلى :

١ — هجر وحشيها ، وتهجين مستغربها ، والزراية بنافرها ، والزيادة عليها زيادة أنمت ثروتها وأنارت صفحتها ، وأضفت عليها حللا رائعة من الزينة والحسن .

٢ — وكان للقرآن فضل عظيم ، إذ جمع العرب على هذه اللغة ، وظل على اختلاف الحقب ، وتطاول الزمن ، كلما أوشك الناس أن يتفرقوا فى الألسنة ويتباينوا فى اللهجات ، جمعهم القرآن تحت لواء واحد ووحد فطرهم اللغوية .

٣ — حفظ القرآن اللغة من الفناء والانقراض كما انقرضت من قبل لغات كثيرة .

٤ — والقرآن أول عامل فى ذيوع اللغة العربية وانتشارها فى شتى البلاد فأصبحت لغة الدين والسياسة والأدب فى أرجاء العالم .

أما أثره فى الأدب فيتجلى فيما يلى :

١ — اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه فى التعبير ومناهجه فى سوق الآراء ، وصياغة الحجج ، ما جعلهم يحتذون حذوه ، ويتبعون نهجه ، فإذا كنا نقرأ فى آى الذكر الحكيم قوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . أو قوله : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » أو قوله : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

فإنا نرى هذا الأسلوب البيانى الرائع يتمثل كذلك فى قول حسان بن ثابت فى الرد على أبى سفيان بن الحارث حين هجا النبي صلى الله عليه وسلم :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى: « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » رأينا كذلك حسانا يقتبس هذا الأسلوب البارع فى قوله :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وإذا قرأنا قوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن :

فما زلت فى لينى له وتعطفى   عليه كما تحنو على الولد الأم

وخفضى له منى الجناح تألفا   لتدنيه منى القرابة والرحم

وكما أثر القرآن فى أساليب الأدباء كذلك أثر فى تفكيرهم حتى لقد رأينا الحطيئة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول :

ولست أرى السعادة جمع مال   ولكن التقىّ هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً   وعند الله للأتقى مزيد

والحق أن القرآن الكريم هو الذى خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب والشعر .

٢ — رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنون الأدب .

٣ — أحيا القرآن فنونا أدبية جديدة: كالقصص، وأدب الزهد، وأدب التاريخ.. وأبطل سجع الكهان ، والهجاء الكاذب ، والفخر البالغ فيه ، وسوى ذلك من الأغراض المرذولة .

٤ — وبسبب القرآن عكف الرواة على جمع اللغة وآدابها ، ووضعت علوم النقد والبلاغة لمعرفة إعجازه ، وعنى المسلمون بشتى العلوم الدينية والعربية التى صارت أساس صرح المدنية الإسلامية الزاهرة[1] .

---

(١) راجع الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى ص ٣٦ـ٣٩،
وراجع : الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام . د . عبد الحميد المسلوت ص ٢٥٤ ـ ٢٧٤ ،
وراجع : الأثر القرآنى فى الصورة الأدبية رسالة ماجستير د. صلاح الدين محمد عبد التواب .

الفصل الثالث

الحديث النبوى وأثره فى اللغة والأدب

— ١ —

انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة إلى حياة ، وتبدلت أوضاع الكلام وسمات القول من مظهر إلى مظهر ومن حال إلى حال ، وأخذت ثوباً قشيباً نفذت به من الأسماع إلى القلوب ، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيراً عجيبا ؛ ذلك بما أفاضه عليها القرآن من طرائق التعبير وحسن صوغ الكلام ، وبراعة القصد إلى الهدف ، والاحتيال إلى الغرض حتى تدخل على القلوب والعقول والأحاسيس دخول المأنوس به المرغوب فيه ؛ ثم بما كسبته من أسلوب الرسول صلوات الله عليه ، وبيانه الساحر ، وحكمه البالغة ، وبلاغته النيّرة ، وقدرته الفائقة على الاختراع والتشقيق من الألفاظ ، وتصوير المعانى بأروع الصور ، وابتداع الأخيلة التى لم تعرف فى كلام العرب ؛ وظلت بعده من الحسنات التى ينسج الناس على منوالها ، ويدبجون كلامهم على مثالها ، دون أن يقتربوا من حدها .

أجل؛ كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش، ومحل الإعجاب من كل من سمعه ، وأنصت إلى ألفاظه تفيض عذوبة وتقطر رقة ، وأصغ إلى معانيه تطل منها أروع الحكم وتنبجس من خلالها أجمع الأمثال ؛ حتى لقد عجب من ذلك البليغ المنطيق ، الساحر البيان ، العذب اللسان : علىّ بن أبى طالب ، فقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه ، فمن علّمك ؟ فقال صلوات الله عليه : أدّبنى ربى فأحسن تأديبى ، وقال له صفيه وصديقه أبو بكر : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذى هو أفصح منك ، فمن أدّبك ؟

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتز بما منحه الله من صفاء القريحة ، ونقاء الفطرة، وخلابة المنطق ، ورجاحة الفكر ، وسجاحة الأسلوب ، فيقول : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى سعد بن بكر » .

والحكمة البالغة ، والعبرة الكريمة فى ذلك ، أن الله تعالى قد اختاره لرسالته ، واصطفاه لدعوته، وأرسله إلى الناس كافة مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

وسفارة بين الخالق والمخلوق لا جرم تعتمد على البيان الخلاب والمنطق الجذاب ، والقول المتخير الفاتن ، والكلام العذب الذى تملك به النفوس وتؤسر الألباب .

وهذا هو موسى ، أرسله ربه إلى بنى إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويقوى ظهره ويفلج حجته ويسدد دعوته بأخيه هرون : « وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » وتمنى على ربه وهو صفيّه وكليمه أن يطلق لسانه ويفتق بيانه ويحل عقدته ويفك حبسته ، فقال : « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

وهذا نبى الله داود ، أفاض الله عليه الحكمة ومنحه فصل الخطاب ، وامتن عليه بذلك فقال : « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

وإذا كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة ، تمنوا لهم أزمة القول ، وتنصاع أعنة الكلام ، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيّه ، ويروض شامسه ، ويستذل أبيّه ، وإذا كان الكلام صناعتهم بها يفاخرون ويتباهون ، فلا بد أن الرسول الذى يرسل إليهم يبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الزائفة، ويغيّر ما ألفوا من عادات ، وما ورثوا من تقاليد ، لابد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم ، ومنطقه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثراً وأعظم قدراً وأعلى شأناً من خطابهم .

ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة القرآن ومعجزة البيان .

أما بيانه صلوات الله عليه وسلامه فكان السحر الحلال والضياء اللامع، يشرق من طبع مهذب مصقول، وخلق فى البلاغة عريق أصيل، وفطرة قوية موهوبة تساندت فى بنائها أقوى العوامل ، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات ، إذ نشأ وتقلب فى أفصح القبائل، وأصحها لهجة ، وأخلصها منطقا ، وأعذبها بياناً ، وأرهفها جنانا ، وأقومها سليقة .

كان مولده فى بنى هاشم ، وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسماحة بيان ، وأخواله من بنى زهرة ، ورضاعه فى سعد بن بكر، ونشأته فى قريش، وتزوج خديجة وهى من بنى أسد ، وكل هذه قبائل خصها الله بعرف فى فصاحة الكلام عريق ، وسبب من أسباب البلاغة وثيق . وكان هذا التوافق العجيب الغريب ، وهذا التماثل فى الميلاد والاسترضاع والمنشأ ، إعداداً من الله لنبيه ، وتقويماً من ملكته ، وتهذيباً لسليقته ، وتدعيما لفطرته ، حتى يفقهوا قوله ويعقلوا دعوته .

كان صلى الله عليه وسلم فصيح المنطق ، سمح البيان ، سلس الأسلوب ، قوى العبارة، لامع الرونق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، مونق اللفظ ، مشرق المعنى ، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل ، ويجد فيـــه لذة ، إذا تكلم خفتت الأصوات وأنصتت الآذان وخشعت الجوارح وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة . وهذه أول خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله ، يعدهم ويبشرهم، ويحذرهم وينذرهم، ويدعوهم إلى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ماغررتكم : والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد » .

فهذه كلمة الخبير بأسرار النفوس الذى يعرف كيف يتلكها بحكمته ، ويستولى عليها بموعظته ، ويوجهها إلى الخير الذى يريده ، والسعادة الأبدية التى يدعو إليها .

واستمع أيها القارئ الكريم إلى هذا الحديث الشريف ، فإنك ستحس من حلاوة وقعه وجمال لفظه ودقة مبناه ، وصدق تصويره وحسن تحديده للمعنى ، ما يملأ نفسك طرباً ، ويغمر قلبك نشوة .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه ، وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع » .

فهذا تصوير محكم رائع لحال المنفق وحال البخيل لا تكاد النفس تنتهى منه عجبا؛ تصوير لقوة الطبيعة لدى السخى التى تستهين بكل عقبة ، وتتغلب على كل صعوبة ، وتثور ثورتها العاتية على القيود والحدود والحواجز حتى تحطمها أعنف تحطيم ، ثم لا يزال صاحبها يسخو ويبذل وينفق ويتصدق حتى تسلس الطبيعة وتنقاد وتمتاد البذل والعطاء وتلبس صاحبها فتخفى كل ما فيه من عيب وتمحو كل ما يند عنه من سيئة : « إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » .

أما البخيل فكلما أراد أن يخرج من طبيعته كزت وضاقت ، وأحضرته كل أسباب الشح والكنود ، فلا يستطيع أن يقدم خيراً ، أو يطالع المجتمع الذى يعيش فيه بحسنة .

فهل هناك تصوير أروع وأمتع وأبدع من هذا التصوير ؟

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف حالة من حالات الناس تفشو فى مجتمعاتهم وتشيع بينهم فى بعض الأحيان كما يشيع الوباء الفاتك والمرض القاتل : حالة الاستهتار بحدود الله ، والاستهانة بآداب الدين ، والخروج على الأوضاع الصحيحة ، والتبجح بما يسمونه حرية ، فيقول :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » .

فهل هناك أبلغ من هـــذا فى الدعوة إلى الضرب على أيدى العابثين بالحدود ، المتهـكين للحرمات الناهشين أعراض المحصنات الغافلات ؟

ولو أردنا أن نستعرض ألوانا أخرى من كلامه صلى الله عليه وسلم لما اتسعت لها هذه الصفحات ، ولـكنا نـكتفى بما قدمنا من أمثلة حية رائعة على بلاغته وإحاطته ودقته .

يقول المرحوم الأستاذ الرافعى : « لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثم الحقائق هى تختار ألفاظها اللغوية على منازلها ، وبذلك يأتى الـكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتـكلف ولا يتعمل ، ولم يكتب ولم يؤلف ومع هذا لا تجـــد فى بلاغته موضعاً يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن ، كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان » .

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إتقانه وعلو شأنه فى اللغة ، هى المنح التى يهبها خالق الإنسانية لمن يختاره ويؤثره فى سفارة إلى الإنسانية ، وكما عصمه الله من لدن طفولته من الرجس والدنس ، وحفظه من شرور الجاهلية وسوآتها ، كذلك عدل لسانه وقـــوم بيانه وأرهف منطقه ، وأفاض عليه من لدنه قوة بيانية يستطيع بها أن يناضل عن دعوته ويدافع دون رسالته : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ، « وكان فضل الله عليك عظيما » .

— ٢ —

أثر الحديث النبوى فى اللغة والأدب ؟

يروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعته يقول : مات حتف أنفه وما سمعتها من عربى قبله ، يريد مات على فراشه ، قال فى القاموس : وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، وقال فى النهاية : كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جراحته .

ويقول المرحوم الرافعى[1] : إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولاقتال ولا أمر يؤرخ به فى الألسنة مما كانوا يأنفون له . والحتف الهلاك فكأن صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه فلم يرفع الموت أنفه فى القوم بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه لأن حياته كانت فى عزته ، وعزته كانت فى أنفه وأنفه هو الذى كبه على الموت . وإنما مجاز العبارة كما يقال فى الكبر: ورم أنفه، وفى العزة: حمى أنفه وكما يقال غضبه على طرف الأنف إذا كان سريع الغضب وجعل أنفه فى قفاه إذا ضل .

ومثل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: الآن حمى الوطيس؛ للدلالة على شدة الحرب . واستمار نارها والتهاب شررها ، فإن الوطيس التنور ومجتمع النيران استعير لشدة الحرب . . وقوله صلى الله عليه وسلم : بعثت فى نفس الساعة أى قريباً منها أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه .

وإذا كان للعرب تصرف واتساع فى اللغة بالمجاز والاشتقاق وانتزاع لفظ من لفظ أو ابتداع معنى من معنى أو اختراع فكرة من فكرة فإن ذلك كله كان فى حدود الموجود المتعارف لا يجاوزونه إلى المعدوم بخلاف المأثور عنه صلى الله عليه وسلم فهو كثير من بناء على الموجود واختراع لما لم يوجد ، ومن ألفاظه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عرب مثله، كما عجبوا لفصاحته التى اختص بها وهو باقٍ بين أظهرهم لم يفارقهم ولم ينتقل عن بلدهم .

---

(١) ص ٤١١ إعجاز القرآن .

وقد روى أنه صلى الله عايه وسلم قال لأبى تميمة: إياك والمخيلة فقال : يارسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ فقال صلى الله عليه وسلم : سبل الإزار أى الكبر، فقول أبى تميمة نحن قوم عرب دلالة على أن النبى صلى الله عليه وسلم اخترع هذا اللفظ اختراعا ولم يسبق إليه . . وقوله صلى الله عليه وسلم : هدنة على دخن، يريد أن الصلح لم يذهب حفائظ الصدور وأضغان القلوب فبقى منها كما يبقى من النار تحت الرماد ، لا يزال يتحفز للاشتعال .

وقوله لأنجشة العبد وهو يحدو الإبل ويطرب فى صوته فتسرع الإبل وتمايل الهوادج بالنساء : رفقاً بالقوارير . . وقوله : يا خيل الله اركبى ، لا ينتطح عنزان . وقوله : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » قاله لأبى عزة الشاعر وكان يحرّض عليه ويؤلّب الناس ضده فأسره يوم بدر ثم مَنَّ عليه وأطلقه فعـاد إلى سيرته فأسر يوم أُحد وسأل النبى أن يمُنّ عليه فقال له : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

وقوله : إياكم وخضراء الدمن. قالوا : وما ذاك يارسول الله؟ فقال: المرأة الحسناء فى المنبت السوء ،تشبيهالهذه المرأة بالشجرة الناضرة وسط الدمن. وقوله :علّق سوطك حيث يراه أهلك ، الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وعد المؤمن كأخذ باليد ، قد جدع الحلال أنف الغيرة ، وقوله : من اطلع من صير باب فقد دمر أى دخل . قال أبو عبيدة : لم يسمع هذا الحرف إلا فى هذا الحديث .

وهذا كله مما كان يشرق فى لغته ويلتمع فى أسلوبه من ابتداع المعانى واختراع الألفاظ المناسبة لها ومن أوضاع وأخيلة بيانية تلبس حلاها وتأخـذ زينتها وتدعو الأدباء دعوة قوية إلى احتذائها واتباع طرائقها واتخاذها مثلا يسيرون على نهجه وينشئون على هداه .

ذلك كله يعتبر إلهاما من الله لنبيه وتأييداً بمعجزة البيان ردفت معجزة القرآن ، ولقد كان عجبا من العجب فى أمره صلى الله عليه وسلم أن ترد إليه وفود العرب فيخاطب كل وفد بما يعدّ من أسرار لغته وغرائب لهجته ؛ يخاطبهم بلغاتهم مما تجهله قريش ويجهله بعض العرب عن بعض، ويفهم عنهم كذلك مايدلون به من كلام وما يفصل عنهم

من خطاب ، حتى عجب من ذلك علىّ بن أبى طالب حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد . فقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال صلى الله عليه وسلم : « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ومن ذلك كتبه الغريبة التى كان يمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلحونهم ويجارى ألفاظهم وتعابيرهم فيما يريد أن يلقيه إليهم وهى ألفاظ خاصة بهم ومن يداخلهم ويقاربهم ولا تجوز فى غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية .

قال الرافعى : فما ندرى أى ذلك أعجب أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك فى لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا فى الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم حين يتوافدون إليهم فى موسم الحج؛ وهم مع ذلك لايعلمون من هذا الغريب بعض مايعلمه . ولا يديرونه فى ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة حتى كان هذا الباب فيه صلى الله عليه وسلم باباً على حدة وهكذا كان رسول الله يتميز بالفطرة القوية والطبيعة الملهمة والموهبة البيانية المبدعة واللسان الذرب والقول الفحل والمنطق الفصل مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على أنه معجزة وإلهام من الله لنبيه ومختاره ومصطفاه .

وبعد فيمكننا أن نلخص أثر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى اللغة فيما يلى :

١ ـ أدخل الرسول صلى الله عليه كثيراً من التراكيب البيانية الجديدة فى اللغة العربية مما سبق ذكره .

وزاد فيها ألفاظاً جديدة كتسميته « صفراً الأول » محرما ، وكلفظ الزمارة ، للزانية ، التى وردت فى حديث أبى هريرة « إن النبى نهى عن كسب الزمارة » وككلمة الصير بمعنى الشق فى قوله صلى عليه وسلم : « من اطلع من صير باب فقد دمر » .

وللحديث الشريف أثر فى توسيع معانى بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعى للإفاضة فيه .

٢ ـ وساعد على توحيد لهجات العربية وعلى ذيوعها وخلودها فهو متمم للقرآن الكريم فى هذا السبيل .

٣ ـ وكان محوراً لعلوم دينية وعربية كثيرة وضعت لدراسة الحديث النبوى الشريف. وهذه العلوم أكسبت اللغة العربية ثروة كبيرة .

أما أثر الحديث فى الأدب فيمكننا إيجازه فيما يلى :

١ ـ ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة ، وتثقيف الطباع ، والقضاء على عهد الحوشية والغرابة والمماظلة والتعقيد فى البيان ، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان .

٢ ـ قضى على سجع الكهان ، ورفع منزلة النثر ، وهذب أغراض الأدب وفنونه .

٣ ـ وقد خلد الحديث على مر الأيام والأجيال وأصبح مورداً عذباً من الثقافة الأدبية على توالى العصور(١) .

— ٣ —

خطبة نبوية فى بدر الكبرى :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم بدر فقال :

١ ـ « أما بعدُ ، فإنّى أَحُثُّكم على ما حَثَّكمْ اللهُ عليه ، وأنهاكم عما نهاكمْ عنه ، فإنّ الله عظيمٌ شأنُه ، يأمرُ بالخيرِ ، ويحبُّ الصدقَ ، ويُعطى الخيرَ أهلَه على منازِلهم عندَه .

٢ ـ وإنكم قد أصبحتمْ بمنزل من منازلِ الحقِّ لا يقبلُ اللهُ فيه من أحدٍ إلّا ما ابتغَى به وجهَهُ .

---

(١) راجع: الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤٠ـ٤٦، محاضرات فى الأدب العربى للدكتور عبد الحميد المسلوت ص ١٤٥ ـ ١٥٣ .

٣ ـ وإنَّ الصبرَ فى مواطنِ البأسِ مِمَّا يُفَرِّجُ اللهُ به الهمَّ ، ويُنَجِّى به من الغمِّ وتُدْرَكُ به النجاةُ فى الآخرة .

٤ ـ فيكم نبىُّ اللهِ يحذِّرُكُمْ ويأمرُكُمْ ، فاستحيُوا اليومَ أن يطَّلعَ اللهُ على شىء من أمركُمْ يمقتُكُمْ عليه ، فإنَّ اللهَ يقــول : « لَمَقْتُ اللهِ أكبرُ من مَقْتِكُمْ أنفسَكُمْ » .

٥ ـ وَابْلُوا ربَّكم فى هـذه المواطنِ أمراً تستوجبُوا به الذى وعدَكم من رحمته ومغفرته ، فإنَّ وعدَه حقٌّ ، وقولَهُ صدقٌ ، وعقابَهُ شديدٌ .

٦ ـ وإنما أنا وأنتم باللهِ الحىِّ القيُّومِ ، إليه ألْجأْنا ظهورَنَا ، وبه اعتصمْنا ، وعليه توكلْنا ، وإليه المصيرُ ، يغفرُ اللهُ لِى وللمسلمينَ » .

مضمون هذه الخطبة النبوية الشريفة :

١ ـ الأمر بالفضائل الإنسانية التى أمر الله عز وجل ورسوله بها ، وفى هـذا الأمر ـ والوقت وقت معركة ـ ما فيه من دلالة قوية على أن المسلم يجب أن يلتزم بآداب دينه فى كل وقت ، وبخاصة فى أوقات الشدائد والمعارك ، لأن النصر لا ينزل من السماء إلا على المؤمنين الصادق الإيمان بدينهم وكتابهم ورسولهم .

٢ ـ الوقوف فى ميدان المعركة ـ ابتغاء وجه الله لمقاومة أعداء السلام والإنسانية والتوحيد ـ منزل كريم من منازل الحق التى يرضى الله ورسوله عنها .

٣ ـ الصبر فى الحرب أهم شىء يجب أن يتحلى به الجندى ، لأنه سلاح النصر ، وهو أساس الصمود والنضال والاستبسال فى قتال أعداء الله والحق .

٤ ـ تحذير رسول الله للمجاهدين من عمل شىء يمقتهم الله ويغضب عليهم ويمنع عنهم نصره بسببه ، والمقت أشد البغض . وفى ذلك ما فيه من تأكيد وجوب اتباع تعاليم الدين فى كل وقت ، وفى أيام الحروب على وجه الخصوص .

٥ ـ الدعوة إلى البطولة والتضحية والإقدام فى المعركة ، وذلك هو سبب رحمة الله ومغفرته ورضوانه ، ووعده الحق ، وقوله الصدق ، وعقابه شديد ؛ ولنتذكر أن البلاء فى المعركة هو سبب رضوان الله ورحمته للمجاهدين الصادقين .

٦ ـ إعلان مزيد التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه.
وذلك هو أساس الفوز العظيم .

والمضمون العام لهذه الخطبة هو الدعوة إلى الصمود والصبر والاستبسال في المعركة، وعند نزال الأعداء .

المفردات :

١ ـ الحث على الشيء : الحض عليه . منازلهم : أى درجاتهم .
٢ ـ بمنزل : أى بمكان وموضع .
٣ ـ مواطن البأس : كناية عن الحروب والشدائد .
٤ ـ المقت : شدة البغض .
٥ ـ أبلوا : من أبلى فى المعركة بلاء حسنا : أى بذل غاية الجهد وكل الطاقة فيها.

الأسلوب :

١ ـ أسلوب الخطبة من أروع الأساليب جمالا وبيانا وبلاغة وإيجازا وإعجازا ، وبلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذروة من الفصاحة بعد بلاغة القرآن الكريم.
فالخطبة تجمع إلى الإيجاز الروعة والسحر ودقة المعانى وكثرتها .

٢ ـ وفيها من سمو الروح الإنسانية ما فيها . ومن نبل النفس والالتزام بالفضائل والآداب الإسلامية وبخاصة وقت المعركة ، ما يُعدُّ أساسا للنصر ، وسببا من أقوى أسبابه .

٣ ـ وهى مملوءة بروح الإيمان العميق، وبالتوكل على الله ، وبطلب النصر منه ، وبتفويض الأمور إليه . وذلك كله ضرورى للمسلم ، وهو يقاتل أعداء الله والحق والسلام .

٤ ـ وعلى الجملة فإن هذه الخطبة مَثَل رفيع من أمثلة البلاغة النادرة ، والفصاحة الباهرة ، والبيان الساحر ، والقول الحكيم ، والمنطق الصادق، والكلمة الفاصلة . .
وهذه كلها هى خصائص البلاغة النبوية الشريفة .

إلى ما تتحلى به الخطبة من الوضوح والسهولة والجمال والجلال ، والحلاوة والروعة .

وما أروع الكناية فى قوله صلى الله عليه وسلم : مواطن البأس ، عن الحرب والمعركة .

وانظر إلى بلاغة رسول الله فى قوله : إنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم ، أى لست ولستم شيئا إلا بعون الله الحى القيوم، العظيم القيام بتدبير أمور هذا الكون العظيم ، و (القيوم) اسم من أسماء الله عز وجل .

وقوله صلى الله عليه وسلم : إليه ألجأنا ظهورنا : أى أسندنا ظهورنا إلى سند قوى وملجأ حصين هو الله عز وجل وحده .

الفصل الرابع

النثر الإسلامى

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الإسلام تبدلا ملموسا ، وتغير أعظم التغير مظهرها ، وانقلب انقلابا شديدا جوهرها ، وأصبح السمت غير السمت ، والسلوك غير السلوك . والخلائق والشيم غير تلك التى كانت تشيع فى الجاهلية ، وتسيطر على مناحى الفكر .

كانت الحياة الفكرية فى الجاهلية تعتمد على الشعر ، به مفاخراتهم ومنافراتهم ، وعليه تقوم خصوماتهم ، فكان لسانهم المعبر عن كل مايضطرم فى صدورهم من أفكار، ويختلج فى أفئدتهم من أحاسيس .

فلما جاء الإسلام طوى ذلك البساط بما عليه من تنافر وتناحر ، وما يضم من أحقاد غادرة ، وأضغان ثائرة ، وخصومات منكرة ، وقضى على تلك الحمية : حمية الجاهلية ، وبغض إلى الناس التفاخر بالآباء والأنساب ، وامتن على أتباعه وأوليائه بأن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية ، وتفاخرها بالآباء . فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخـــوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ولما كان شعر الجاهلية يحمل بين أطوائه كل المعانى التى حرمها الإسلام، وأزرى بها ، فقد كرهه الإسلام وبغضه ، وقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا فيريه[1] خير له من أن يمتلىء شعرا » .

لم تقم للشعر فى ظلال الإسلام الدولة التى كانت له إبان الجاهلية؛ لأن الإسلام دين العفة والإخاء والوفاء ، وصدق الحديث . إنما انتقلت راية الكلام للنثر ، الذى حمل

(١) يريه أى يفسده . وورى القيح الجوف كوعى : أفسده .

أعباء الفكر ، ونهض وحده غالبا بالدعوة الجديدة يبين مزاياها، ويكشف أسرارها، ويحاج خصومها « ويجادلهم بالتى هى أحسن » .

دعا به النبي صلى الله عليه وسلم قومه إلى الله، وبصرهم بمحاسن الإسلام، وحذرهم وأنذرهم ووعدهم وبشرهم ، وكتب به إلى أمرائهم وأقيالهم . ثم كان هذا النثر لسان الدولة التى أحدثها الإسلام ، فكانت تكتب به العهود ، وتصاغ الوصايا ، وتدون دساتير الولاة ، ومناهج الرؤساء ، وسياسة الحكام .

وعلى مقدار تنوع الحياة الإسلامية ، وتعدد ألوانها ، وتشعب مظاهرها ، عظمت رسالة النثر ، واتسعت مهمته ، فكان لسان الخلفاء والأمراء والولاة .

والواقع أنه حيث يكون الملك ، وتكون الدولة بما يستتبعها من أمر ونهى وحث وزجر وأخذ ورد ، ورسم سياسة وتبريرها ، وإقامة حدود ومعالم وتبيينها يكون المكان الأول فى هذه الدولة للنثر ، ولا يستطيع الشعر أن ينهض بما تقوم به من أعباء ، وما تؤدى من رسالات متعددة متنوعة .

ولما كان النثر يتخذ مظهر الخطابة أحيانا ، ومظهر الرسائل أحيانا أخرى ، فقد آثرنا هنا أن نتحدث عن كل بذاته .

ونبدأ بالكلام عن الخطابة :

الخطابة الإسلامية

كانت الخطابة فى الجاهلية ضيقة الحدود قصيرة الآفاق محدودة المعالم والمظاهر أو كانت على الأقل هكذا فيما انحدر إلينا من آثارها وتناهى إلينا من تراثها، وكان يشاركها الشعر فى التعبير عن مناحى الفكر وخوالج النفس بل كان الشعر فى أهم المواقف وأعظم الأحداث اللسان الناطق الذى يؤرث نار الحرب أو يضع لبنات السلم أو يلفت الناس إلى فضيلة من الفضائل أو ينبههم على أمر من الأمور .

ولأن الخطابة لم تكن مما تدون فى صحف أو تكتب فى رقاع أو يسهل على الذاكرة اختزانها لم يكن اهتمام القوم بها كاهتمامهم بالشعر . إنما يبعث عليها عندهم حدث طارىء أو أمر مفاجىء ربما لم يكونوا قد أعدوا له عدته أو اتخذوا له أهبته .

دواعى الخطابة الإسلامية :

ثم جاء الإسلام فتهيأ للخطابة فى ظله من نباهة الشأن وارتفاع الذكر وعلو المكانة ما لم يتهيأ لها من قبل .

كانت أداة الدعوة واللسان الناطق بمحاسنها تشرح للناس أسرارها وتبين مزاياها وتوضح خفاياها وتحبب الناس فيها وتدلهم على الهدى والحق والرشد والصلاح . وتجادل خصومها وتفند آراء المخالفين لها .

وإذا علمنا أن الكتابة لم تكن قد شاعت ولا فشت وأن الإسلام قد كره الشعر لما يحمل من المنافرات والمفاخرات وشدة الحمية أدركنا رسالة الخطابة فى الإسلام وجسامة مهمتها وعظم شأنها وقيامها بكل أمر جل أو صغر .

اعتمد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين ، ثم كان يذهب إلى أحياء العرب يعرض عليهم دعوته ويشرح فى كل موقف عقيدته وكان يلقى الناس فى الأسواق العامة وفى مواسم الحج ويخطبهم ، ويقول لهم ، قولوا:

لا إله إلا الله تفلحوا . ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة ويقوم فى مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه ، ويفيض عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه . وكانت تجيئه وفود العرب فيخطب فى كل وفد يدعوهم إلى الدين أو يبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الدينية كما أمره رب العالمين بقوله: «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » وكما كان يقول لهم صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » .

وكانت الخطابة لخلفائه من بعده أداة يرسمون بها سياستهم فى رعاياهم ويحددون دساتيرهم التى يلتزمونها فى حكم الناس ومعاملاتهم أو يحضون فيها على غزوة أو جهاد.

أسباب قوتها :

ولعل الذى مكن للخطابة وجعلها منشورة الراية مرفوعة الذرى ، يسرع إليها كل من واجهته مشكلة أو اختلجت فى نفسه فكرة أو نقم من السلطان أمراً أو داخلته من الوالى ريبة فى بعض تصرفاته ــ لعل الذى مكن لها ما أسبغه الإسلام على هذا المجتمع من صراحة وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطيع بها الإنسان أن يراجع ويناقش ويجادل ويخاصم ويمدح السلطان أو يثلبه ويؤيده أو يخذله وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد أفقها حتى شملت النساء ، فلم تكن المرأة تسكت عما تظن أنه حق لها بل تخطب فى ذلك وتتحدث وتجادل ، لقد ذهبت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت يارسول الله إنى وافدة النساء إليك ثم ذكرت ما للرجال من الجهاد والأجر ثم تساءلت: فما لنا من ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة للزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله ــ وقالت أخرى: يارسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما تحدثنا فيه ، ولهم كذلك .

وكانت المرأة تعترض عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه حتى لقد يرجع عن رأيه ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وكانت أم المؤمنين عائشة تخطب لترد على خصوم أبيها وتبين مآثره وتذكر مفاخره . وكانت أم الخير بنت الحريش البارقية

تؤيد عليا كرم الله وجهه فى سياسته وتخطب فى ذلك الخطب التى تلهب النفوس وتثير الحماس وتدفع الناس دفعاً إلى مقابلة أعدائهم والكر عليهم بسيوفهم ورماحهم ، حتى لقد أوفدت إلى معاوية بعد أن استقر له الأمر واستتب السلطان فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر فقالت : لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت فقال معاوية : لا أشاء ذلك .

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة فى ظلال الإسلام .

ثم كان الجهاد فى سبيل الله وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه ، وكذلك جعل أمور الدولة شورى بين المسلمين .

كان ذلك كله داعياً إلى نهضة الخطابة باعثاً على رقيها وارتفاع شأنها .

هذا إلى ما فى القوم من ملكة أصيلة فى البيان ومطاوعة سهلة فى أزمّة الكلام حتى لم يكن يصعب عليهم قول أويند عن أذهانهم خطاب .

موضوعاتها :

والدارس لأطوار الخطابة فى هذه الفترة يلمس فى وضوح كيف كانت تؤدى رسالتها فى قوة ودأب لا يعوقها ضعف ولا يلوى بها فتور أو إعياء حتى نهضت بهذه الموضوعات .

١ – دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، بدلا من المفاخرات والمنافرات التى كانت تهدف إليها الخطب فى الجاهلية .

٢ – الحث على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله وإثارة الإيمان والعقيدة فى النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية ، بدلا من الخطب التى كانت تدعو فى الجاهلية إلى السلب والنهب والأخذ بالثأر والتحريض على الغارة .

٣ – شرح آداب الدين وفضائله وتبيان أسراره ومزاياه ولفت الناس إلى ما يصلحهم فى دنياهم ويسعدهم فى أخراهم .

٤ ـ وليس أدل على شرف الخطابة ورعاية الإسلام لها حق الرعاية من أنه جعلها جزءاً من العبادة فى كل أسبوع وفى كل الأعيـاد وفى ما ينوب المسلمين من أحداث وملمات .

٥ ـ وأخيراً لقد استعملت الخطابة فى كل ما جاشت به صدورهم ، من دفاع عن رأى ، أو تحمس لمبدأ ، أو شرح لمهج سياسى ، ونحـو ذلك مما استلزمته الخلافة الإسلامية ونظامها الجديد .

ممیزات الخطابة الإسلامية :

وتتسم الخطابة الإسلامية :

١ ـ بأنها كانت تقوم على الإقنـاع والتأثير فى النفوس ، بالأدلة الساطعة ، والبراهين الناصعة ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الـكريم ، وأحيانا بالشعر ومأثور الـكلام من حكمة ومثل .

٢ ـ وبأنها كانت تلتزم فى مبدئها سمتاً واحداً . هو حمد الله وتوحيـــده والثناء عليه بما هو أهله ، وقد ينضم إلى ذلك الصلاة على رسول الله وأتباعه ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على بدء الخطبة بالحمد ، حتى عابوا على زياد خطبته التى خلت منه . وسموها « البتراء » ، وكانوا يختمون الخطبة بمثل « أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم » ، وكان أبوبكر يختم خطبه بقوله: « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك ، وكان عمر يلتزم فى الآخر قوله : اللهم لا تدعنى فى غمرة . ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين » .

٣ — أما أسلوب الخطابة فى هـذا العصر فهو الأسلوب الفطرى الذى يساوق الطبع ويوائم السليقة ولا يعتسف فى لفظ أو فـكر أو خيال . فهو لين هادىء أو ثائر عاصف على حسب المقتضيات ووفقاً للأحوال مع وضوح اللفظ وسهولة الأســلوب والانسجام التام فى بناء الـكلمات وترك السجع المرذول وهجر الوحشى والبعد عن التـكلف والإيجاز فى موضع الإيجاز والإطناب فيما يستدعى الإطناب والإكثار .

هيئة الخطيب :

أما ما بقى للخطابة من سماتها القديمة فهو القيام على نشز من الأرض؛ ولعل ذلك للإشراف على السامعين ؛ أو لعل ذلك أيضاً أصل سنة المنبر فى المساجد. وكان الخطيب إذا قام للخطابة اعتمد على شىء فى يده كسيف أوقوس أوعصاً وقد يجمع بين السيف أو القوس فى يساره والعصا فى يمينه ، وكانوا يحرصون على اعتجار العمامة والاشتمال بالرداء وإصابة الإشارة وحسن السمت وجهارة الصوت وتمام الوقار وكل ما يدعو إلى التأثير فى نفوس السامعين .

أشهر الخطباء :

وقد امتاز هذا العصر بكثرة الخطباء البلغاء كثرة رائعة وفى صدر الخطباء الخطيب الأول الزعيم الروحى الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه. ومن الخطباء: أبوبكر وعمر وعثمان وعلى وعائشة وخالد وعبد الله بن عباس وعبدالله بن الزبير وأبو عبيدة عامر ابن الجراح ، ومعاوية ، وسواهم من أعلام الخطباء والبلغاء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن الخطباء المشهورين : عطارد بن حاجب بن زرارة وكان الخطيب عند النبى ﷺ كما يقول الجاحظ[1] .

نماذج الخطابة الإسلامية :

١ — لما كانت أول جمعة للنبى الكريم بالمدينة خطب المسلمين فقال :

الحمد لله ؛ أحمده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحـــده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أرسله بالهدى والنور والموعظة ، على فترة من الرسل وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم : أن يحضه على الآخرة،وأن يأمره بتقوى الله،

(١) ٢١٤ جـ ١ البيان والتبيين .

فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وإن تقوى الله يوق مقته ، ويوق عقوبته ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خـــذوا بحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، جاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، فأكثروا من ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس .

وذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله .

٣ — ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع وهى مشهورة ، وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالية بحقوق الإنسان .

٣ ـ ولأمير المؤمنين أبى بكر رضى الله عنه المتوفى سنة ١٣ هـ .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم : ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه ؛ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

٤ ـ ومن خطبة أبى بكر رضى الله عنه يوم السقيفة[1] : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله بعث محمداً رسولا إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، وإنما هى من حجر

(١) هى سقيفة بنى ساعدة ، وقد اجتمع الأنصار فيها يوم قبض النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : نولى هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سعد بن عبادة .

منحوت، وخشب منجور[1] ثم قرأ: «ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله» ، «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»[2] فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم .

٥ ـ وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ ولى الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس: إنى داع فأمنوا، اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق، ابتغاء وجهك والدار الآخرة . وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم .

اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة .

اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين .

اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان ، فألهمنى ذكرك على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين .

اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقنى النشاط فيها، والقدرة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك .

اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك والحياء منك، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات .

اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير » .

---

(١) النجر : نحت الخشب .

(٢) الزلفى : القربة .

٦ ـ وكانت آخر خطبة خطبها عثمان بن عفان رضى الله عنه :

« إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، فلا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية فآثروا[1] ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله .

اتقوا الله جل وعز ، فإن تقواه جنة[2] من بأسه ، ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير[3] ، والزموا جماعتكم . لا تصيروا أحزاباً ، « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

٧ ـ وخطب الإمام علىّ كرم الله وجهه بعد التحكيم فقال :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجلل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى ، لو كان يطاع لقصير أمر[4] ، فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه . وضن الزند بقدحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن[5] :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد

---

(١) آثروا : فضلوا وقدموا . (٢) جنة : وقاية .

(٣) غير الدهر : أحداثه المغيرة .

(٤) قصير : هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان قد أشار على سيده ألا يأمن الزباء ملكة الجزيرة وقد دعته إليها ليتزوجها ، فخالفه وقصد إليها فقتلته ، فقال قصير : « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا .

(٥) هو دريد بن الصمة .

الكتابة فى صدر الإسلام

تمهيد :

١ ـ انتقلت الكتابة من الأنبار والحيرة على يد بشر بن عبد الملك أخى أكيدر ابن عبد الملك الكندى صاحب دومة الجندل ، فإن بشراً خرج إلى مكة وتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب بها من قريش .

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يفتخر على قريش بذلك :

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكمو ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عودا وبدأة ... وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا

وعرف خط أهل الحجاز بالحجازى ، ولما نشأت الكوفة أدخل عليه كتابها شيئا من الزخرف والتحسين فسمى الخط الكوفى .

٢ ـ والكتابة على أى حال آكد أسباب الحضارة ، وأوثق وسائل العمران وكلما ازدادت شئون الحضارة واتسعت مذاهب الملك ، وتعددت مناحى التفكير ومناهج الثقافة ، ازدادت الحاجة إليها وازداد الكتاب إقبالا عليها وافتتاناً فى مناحيها وتجويداً فى لغتها ومعانيها وتنويعاً فى موضوعاتها وأغراضها .

حالة الكتابة فى عصر النبوة :

ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة نفر ممن يحسنون الكتابة ويبلغون نحو السبعة عشر ، ثم لما هاجر إلى المدينة ووقعت غزوة بدر وأسر المسلمون نحو سبعين رجلا من قريش وغيرهم ، جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فداء كل من يعجز عن دفع المال تعليم الكتابة لعشرة من فتيان المدينة فلا يطلق سراحه إلا بعد

تعليمهم فكثرت الكتابة فى المدينة . وأخذت تنتشر فى كل ناحية دخلها الإسلام فى حياة الرسول وبعده .

وبلغ عدد كتابه عليه السلام ثلاثة وأربعين كاتبا منهم زيد بن ثابت ومعاوية ، واختلف فى كونه صلى الله عليه وسلم يقرأ ويكتب ، فمن قال بذلك استدل بقوله تعالى : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » ، وبحديث البخارى أنه عليه الصلاة والسلام فى غزوة الحديبية أخذ الكتاب ليكتب فكتب ، ومن قال إنه أمىّ استدل بقوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » ، وبحديث البخارى : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، وليس ما يمنع من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان أميًّا قبل بعثته لتتم له المعجزة ، ثم بعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته ، تعلم الكتابة وعرفها .

وكان علىّ كرم الله وجهه ، وعائشة وصفية من أمهات المؤمنين، يحسنون الكتابة .

ولم يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد أناف الكتاب على خمسمائة ، بين رجل وامرأة وفتى .

وفى العهد النبوى كتب القرآن الكريم ، ورسائل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال والأمراء والملوك ؛ وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل فى ذمة المسلمين .

وكان كتابه صلى الله عليه وسلم نوعين : كتاب وحى ، وكتاب أعمال . ومن بين كتاب الأعمال : الزبير بن العوام ؛ وجهل بن الصلت ، وكانا يكتبان الصدقات، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير وكانا يكتبان التداين والمعاملات ، وحذيفة ابن اليمان ، وكانت يكتب خرص النخل .

الكتابة بعد عهد النبوة :

ولما توفى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه واتسعت الفتوحات الإسلامية ، كثرت الحاجة إلى الكتابة ؛ وقام الكتاب بأعمال الدعوة والدولة ، فكتبوا القرآن

واستخدمهم الخلفاء فى كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة والقواد وفى وصاياهم إلى قضاتهم ، ورسائلهم إلى أهل الأمصار ، وفى كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته فى الحرب والسلم .

وكان الخليفة أو الوالى يكتب بيده أو يملى على بعض الكتاب ، ولم تكن قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث فى عهد بنى أمية وبنى العباس .

بواعث الكتابة فى هذا العصر :

وكانت الحاجة إلى الكتابة كثيرة :

١ — فقد كان المسلمون فى حاجة إليها لتدوين القرآن ولكتابة رسائل الدعوة إلى الإسلام .

٢ — كما كانوا فى حاجة إليها فى شئون الملك والسياسة ، والحرب والسلم وفى كتابة العهود والمصالحات والمنشورات والوصايا والنصائح .

٣ — الحاجة إليها فى تدوين الدواوين وتنظيمها .

٤ — وساعد على ذلك معرفة الخط وانتشار الكتابة فى مكة والمدينة وسواهما من الأمصار . ويروى أن زيد بن أرقم بن ينوث ، والعلاء بن عقبة كانا يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء .

تدوين الدواوين :

لما اتسعت الفتوحات فى عهد عمر وكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم احتاجت الدولة إلى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط أعطيات المسلمين . ويقول الفخرى :

« كان المسلمون هم الجنود وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا وكان لا يزال فيهم دائماً من يبذل شطر ماله فى وجـــوه البر والقربى وكانوا لا يريدون على نصرهم إسلامهم ونصرهم لنبيهم جزاء إلا من عند الله تعـالى ولم يفرض النبى صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضى الله عنه عطاء مقرراً ولكن كانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد أحضر

إلى مسجد رسول الله وفرق فيهم حسب ما يراه وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة فى خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم . ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئا يسمونه ديوانا، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يلاحظ عليها خلل ، فتنبه عمر وقال : صفه لى . فوصفه المرزبان فعظمه عمر لذلك ودون الدواوين » .

وقد عهد الخلفاء بالكتابة فى الدواوين إلى العرب والموالى والمتعربين وظلت كتابة الخراج فى الأقاليم بلغة أهل المصر ففى العراق وفارس بالفارسية وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية ، حتى حذقها من العرب طائفة فحولت بعد ذلك الكتابة فى الدواوين إلى اللغة العربية وذلك فى عصر بنى أمية .

أساوب الكتابة فى صدر الإسلام :

ويمتاز أسلوب الكتابة فى هذا العصر بما يأتى :

١ — سهولتها ووضوحها وقصدها إلى الغرض وبعدها عن التكلف وخلوها من عبارات التفخيم .

٢ ـ ميلها إلى الإيجاز . حتى لقد كتب خالد بن الوليد إلى عياض رسالة وهو محاصر بدومة الجندل يقول فيها :

« من خالد إلى عياض : إياك أريد » .

٣ ـ وكانت الرسائل تبدأ باسمك اللهم ثم يقول من فلان إلى فلان ثم يلى ذلك غالبا قولهم : السلام عليكم أو السلام على من اتبع الهدى ، ثم يثنون بقولهم « إنى أحمد الله إليك » ، ثم يأتى الكاتب غالبا بأما بعد ، ويذكر غرضه الذى يكتب لأجله ، ويختمها بقوله : « والسلام عليك ورحمة الله » .

نماذج الكتابة :

١ ـ كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين[1] . « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ؛ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

٢ ـ ولما ادعى مسيلمة النبوة وكتب إلى رسول صلى الله عليه وسلم : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك . أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض . ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون » .

كتب إليه صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

٣ ـ وهذه وصاة أبى بكر لعمر رضى الله عنهما :

« إنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم

(١) هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم.

بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة فإذا حفظت وصيتى هذه فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ، ولست بمعجز الله » .

٤ ــ وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى وقد ولاه القضاء: « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس :

سلام عليك ، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس[1] بين الناس فى وجهك ، وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك[2] ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما . أو حرم حلالا ، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك. واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه فإن أحضر بينته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب . فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان ، إياك والقلق[3] والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم

(١) آس : أى سو بين الناس . (٢) الحيف : الظلم .

(٣) سوء الخلق ، وذلك من ضيق العطن وانعدام الرؤية والفهم الصحيح .

الله به الأجر ، ويحسن الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام » .

٥ ـ وكتب عثمان رضى الله عنه إلى عماله حين ولى الخلافة : « أما بعد . فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم[1] إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة[2] فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

٦ ـ وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب حين اشتد بينهما الخلاف :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن صخر إلى على بن أبى طالب :

أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من عثمان ، لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت[3] شورى بين المسلمين ، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمرى ما حجتك علىّ كحجتك على طلحة والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام ، فأما شرفك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك من قريش فلست أدفعه » .

---

(١) تقدم إليه : أمره . (٢) أى أهل الذمة .
(٣) كانت أى الخلافة .

فكتب إليه الإمام على :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر :

أما بعد ، فقد أتانى كتابك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه ، زعمت أنه إنما أفسد على بيعتى خفرى[1] بعثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجــلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا . وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى ، وما أمرت فلزمتنى خطيئة الأمر ، ولا قتلت فأخاف على نفسى قصاص القاتل . وأما قولك إن أهل الشام هم حكام أهل الحجاز ، فهات رجلا من قريش الشام فى الشورى أو تحل له الخلافة ، فإن سميت كذبك المهاجرون والأنصار ، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز » .

(١) خفر به كضرب خفراً وخفوراً : نقض عهده وغدره .

وصف النثر الإسلامي

كان للعرب فى جاهليتهم نثر فنى ، بقى فيا روى لنا من أمثالهم وحكمهم ووصاياهم وخطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم ومحاوراتهم ونثر كهانهم ، ثم نزل القرآن الكريم وجاءت الدعوة النبوية الكريمة واختلف العرب حيالها بين مكـذب ومصدق ، فكثرت دواعى الحجاج والكلام والخطابة، وأخذ النثر ينمو ويزدهر ويسمو ويقوى.

وتتلمذ على القرآن والحديث أعلام من البلغاء والخطباء والفصحاء فنهجوا نهجهما فى تأييد الدعوة ونشر الرسالة والإرشاد إلى الحق والخير والإسلام ، وتحميس الجنود والتبشير بالنصر ، فكان لذلك كله أثر فى نهضة النثر الفنى بعد عصر النبوة .

ولقد كان فى كلام الله وحديث رسوله ألوان رائعة كثيرة من المعانى الشريفة والأساليب الرفيعة والألفاظ الساحرة ؛ فاقتدى العرب بهما ، ونهلوا من موردها ، وأخذوا يصوغون أدبهم على مثالها .

فاتسعت أغراض النثر واستحكمت أساليبه وعذبت ألفاظه ، وعمقت معانيه .

ومن الجدير بالذكر هنا أن القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف جعلا للنثر دولة ووضعاه فى منزلة أسمى من منزلة الشعر ، فأصبح هو أهم ألوان الأدب فى ذلك العصر الكريم .

موضوعات النثر الفنى :

شملت موضوعات النثر الفنى فى هذا العصر ما يأتى :

١ — الدعوة إلى العقيدة الإسلامية وبيان مبادئها وغايتها وأهدافها المثلى الكريمة .

٢ — بيان السياسة الشرعية والاجتماعية فى عهود الخلفاء إلى ولاتهم وقضاتهم

وقوادهم : كعهد علىّ رضى الله عنه إلى الأشتر النخعى ، وعهد عمر إلى أبى موسى الأشعرى .

٣ — الخطابة فى الأمور الجامعة والحوادث المفاجئة وفى المناسبات الكثيرة .

٤ — وكتبت به الرسائل الدينية والسياسية التى تصدر عن الخليفة أو عن ولاته .

٥ — وأصبح أداة الدعوة والدولة ولسان المدنية الإسلامية كافة .

وهذه أغراض لم يكن للعرب من قبل إلف بهـا إنما هى أغراض جديدة وجّه الدين الجديد العرب إليها .

معانى النثر الإسلامى :

ومعانى النثر الإسلامى فى هذا العصر كانت :

١ — تنبع من معين النبوة وأدب القرآن الكريم ، من الدعوة إلى التوحيد والخلق والفضيلة والحق والخير والإخاء الإنسانى وتقرير الإيمان بالله وأنبيائه وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

٢ — وكانت تصدر عن عقل خصب وذهن متوقد وتفكير منظم ، وملكات حصيفة تثقفت بثقافة الإسلام وكتابه الحكيم .

٣ — وصارت المعانى منظمة والأفكار مرتبة بعد الخلط الذى كانت عليه فى الجاهلية .

٤ — وتمتاز بظهور حرارة الإيمان وقوة العقيدة فيها وبغلبة الروح الدينى عليها .

٥ — وهى فوق ذلك كله صور للحياة الإسلامية فى هذا العصر الكريم بما اشتمل عليه من فتوحات وانتصارات وأحداث سياسية وثورات فكرية واجتماعية .

أسلوب النثر الإسلامى :

١ — ويمتاز أسلوب النثر الإسلامى بحسن سبكه وجمال رصفه وقـــوة نظمه وإحكام فصوله والتئام أجزائه وذلك من تأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبوى الجليل .

٢ — كما يمتاز ببعده عن الغرابة والاستكراه والسجع المتكلف والخطأ فى مقامات الكلام ومقتضيات الأحوال .

٣ — وبكثرة ما فيه من اقتباس من القرآن وكلام الرسول صلوات الله عليه .

٤ — وبقوته ووضوحه وجلائه وسلاسته ، مما تجده واضحاً فى الآثار الفنية الأدبية التى حفل بها أدب هذا العصر .

ألفاظه :

وقد بعدت ألفاظ النثر الإسلامى عن الغرابة والوحشية والابتذال ، واختيرت اختياراً جيـــداً ، ووضعت فى مواضعها الملائمة ووشيت بالبلاغة والعذوبة والسحر وبعدت عن الخطأ وسلمت من العيب واللحن والقصور .

وهذا كله من أثر بلاغة القرآن والحديث فى ألسنة المسلمين فى هذا العهد .

الفصل الخامس

الشعر الإسلامى

الشعر فى صدر الإسلام
وما طرأ عليه فى أغراضه وألفاظه وأساليبه ومعانيه

— ١ —

كان للشعر فى نفوس العرب منزلة لا تساميها منزلة ، ومكانة لا تدانيها مكانة ، فهو ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم ، واللسان الناطق بمالهم من فضل ومالهم عليه من مجد أثيل وعز شامخ ، مامن حرب تقوم بينهم إلا كان الذى هاج نارها وأوقد سعيرها وشب لظاها هو الشعر .

ولا تفتح مغاليق الأنفس ، ولا تلين قساوة القلوب ، ولا تنال المطايا والهبات، ولا تجزل المنح إلا بالقول الفاتن ، والشعر الدافع ، الذى يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغيبة ، ويحتال به على ما يبغى من غرض . ولا تعمر مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد .

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، كانت قد تحرفت فى غالب أمرها عن الوضع الكريم الذى يليق بالإنسانية المهذبة العاقلة والخلق القويم الذى تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع . فكان يصف المرأة أقبح وصف ، ويهتك الحرمات ، ويخرق الحجب والأستار؛ ويثير العصبية ، ويوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر ، ويبعثهم على التقاطع والتدابر والتنافر . فكان بهذا السمت وبهذا الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التى منيت بها الحياة العربية .

ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة ، دعوة العفة فى القول والفعل والأدب الذى يليق بالمسلم ، فحرم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحذرهم من باطل القول وزوره ، ومن سيء الظن وخداعه وغروره ، ودعا أولياءه وأتباعه إلى أن يبتعدوا عن كل رذيلة ويجتنبوا من كل موبقة ، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان فى ذلك ما يؤذى نفس مسلم .

أمات الإسلام فيهم روح العصبية ، وأخمد فى نفوسهم حمية الجاهلية ، وحظر عليهم أن يلموا بما يثير النفس أو يذكّر بالخصومات أو يحرك كامن الأحقاد ومستور الضغائن .

حرم عليهم شرب الخمر ، لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات . من هنا وجد الشعراء الذين دخلوا فى الإسلام وأشربوا روحه واهتدوا بهديه ، وجدوا أدباً غير الأدب وروحا غير الروح وأسلوبا فى الخطاب غير الأساليب التى اعتادوها ، وطرائق غير الطرائق التى ألفوها ، ونحواً من بلاغة الكلام السمح العفيف تدق أعناقهم وتتقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده .

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت ، وأن سبيلهم إلى ما كانوا يتناولون من المعانى والصور قد قطعت ، وأن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج ، قد حظر عليهم الإسلام أن يلموا منه إلا بما عف لفظه وشرف معناه . من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التى أجادوها ، وأبدعوا فيها إلى المعانى التى يقرها الدين الجديد ويرتضيها ، بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر فى الإسلام ، لأن الله أبدله به خيراً منه . فإن لبيداً لم يؤثر عنه فى الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى ‏ ‏ حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وافاه أجله ؛ وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدث من الشعر فى الإسلام ، فقال : أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران .

والواقع أن تحول الشعر من روحه ومشربه فى الجاهلية إلى روح جديدة ، وحياة جديدة ومعان ربما ضاقت بها شياطين الشعر ، وتخلفت فيها أخيلة الشعراء . هذا التحول قد عاد على الشعر بشىء من الضيق وانقباض الأفق . وجعل شعراء الإسلام يجفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية ، وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعن له ، ويقتنص كل فكرة تتهيأ أمامه فى أى موضوع وفى أى ناحية ، وبين شاعر يستولى عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ولا يلتئم مع عقيدته .

فهذا الحطيئة لم يرق الإسلام له طبعا . ولم يهذب له نفسا ، ولم يغير له من سمت ، ولم يعدل له من سلوك ، فبقى شعره على ما كان عليه جاهلى النزعة زاخراً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء مقذع ، حتى لقد حبسه عمر بن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدده بقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين .

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية ، ولم نر له بعد ذلك شعراً قويًّا إلا قوله فى منافحة أعداء الإسلام ومكافحة خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه فى الجاهلية من القوة إلى الضعف .

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعانى التى لا تتفق وجلاله ولا تناسب وقاره وكماله ، ولم يغض من الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلائق لا يرضاها الدين ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؛ وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

أما ما عدا ذلك فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ينصت للشعر ، ويستمع إلى الشعراء ويقول : « إن من الشعر لحكمة » . وكان يأمر حساناً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه .

ولقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى تميم ـ بعد فتح مكة ـ

ودخلوا المسجد وقالوا: يامحمد جئناك نفاخرك فائذن لشاعرنا وخطيبنا، فأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن ثابت، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع[1]
ثم ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع

فلما فرغ الزبرقان بن بدر ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حساناً بالرد عليه فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فلما فرغ حسان من قصيدته ، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد :

والله إن هذا الرجل (يعنى محمداً) لمؤتى له[2] لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . . ثم أسلموا. فنحن نرى أن الشعر حين أخلص فى وجهته، وسلم مما كان يدنسه من هتك الأعراض ، وكشف الأستار ، كان من أسلحة الدعوة الجديدة ، والألسنة المجاهدة المكافحة فى سبيل تثبيت دعائمها واستقرار قوائمها، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر فى هذه الفترة التى صلحت فيها الأخلاق ؛ وتطهرت القلوب ، واستنارت الأفئدة ؛ وأظل الناس عهد وادع يجمله حسن الأدب ، وجمال الخلق ، وعفة اللسان ، وسماحة المقال .

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة لا تعرف الفحش ، ولا تحب الجهر بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهى رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة ، ودعوته الحقة إلى معاملة الناس أكرم معاملة .

(١) القزع : السحاب . (٢) أى مسهل له فى أمره

أما من بقى على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد ، فقد نعى عليه الرسول عليه السلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب، لأن لسانه ظل سادراً فى غيه ممعناً فى كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجاً من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن سلمة ورهطاً من الأنصار، فقتلوا كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود لأنه شبب بنساء المسلمين وهذا ضابىء بن الحارث البرجمى هجا بعض بنى جدول بن نهشل فأفحش فى هجائهم ، حتى رمى أمهم بالكلب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه وقال: لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حى لأحسبنه نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوما بكلب قبلك . ولقد حبس عمر النجاشى الشاعر الذى هجا بنى العجلان رهط ابن مقبل بقوله :

وما سمى العجــلان إلا بقـولهم :   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الحطيئة حين أفحش فى هجو الزبرقان بن بدر وهدده بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه، وتلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر.

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة ، ووجه رسالة الشعر إلى أسمى الأهداف وأنبل الغايات .

— ٢ —

أغراض الشعر فى صدر الإسلام :

هجر الشعراء الأغراض التى تتنافى والدين وتعاليم الإسلام : كالغزل الفاحش والفخر الكاذب والهجاء المقذع . ومن استمر منهم على الهجاء كالحطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين ، وموقف عمر من الحطيئة معروف . . كذلك بطل الكلام فى الخمر ووصفها والميسر وفتيانه والجزور التى ينحرونها عليه ، وفى تملق الناس بالمدح ، وفى صيد الوحش وطرده . . . مما كان يعده المسلم المتأثر بالعقيدة الإسلامية عبثاً ولهواً .

وكان كثير من هذه الأغراض شديد الصلة بحياتهم فى الجاهلية كالخمر والميسر

وحياة البطالة والصراع والأخذ بالثأر والرغبة فى الانتقام والدبيب والاستهتار والفجور فى الحب ـ ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشعارهم وأملؤها بالقوة والروعة والعاطفة ، وهذا يفسر لك بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف فى صدر الإسلام .

واقتصروا فى نظم الشعر على الأغراض الآتية :

١ ـ الدعوة إلى الإسلام ومبادئه ومناضلة خصومه ـ وكان من أشهر الذائدين عن الدعوة ورسولها الكريم : حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم : ابن الزبعرى ، وضرار ابن الخطاب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وهبيرة بن أبى وهب ، وأبو عزة الجمحى .

٢ ـ هجاء أعداء الدعوة فى عصر النبوة ، وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة .

٣ ـ رثاء من استشهدوا فى غزوات الرسول وفى الفتوحات الإسلامية الكثيرة ، ومن قتل ظلما من خلفائه وكبار أصحابه .

٤ ـ الفخر والتباهى بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال التى لم يكونوا عرفوها وأنواع الحيوان الذى لم يشاهدوه ، ومنه الفيلة التى حارب الفرس عليها العرب ، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر ، وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازى والفتوح ، ويكثر فى هذا النوع الأراجيز .

٥ ـ الحكمة ، وقد كثرت فى الشعر فى هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن والدين والتجارب الكثيرة التى أفادوها فى الحياة ، يقول حسان أو حفيده سعيد :

وإن امرأ يمسى ويصبح سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

ويقول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

ويقول كعب بن زهير :

ومن دعا النـاس إلى ذمــه ... ذموه بالحق وبالباطـــل

٦ ـ المدح وأشهر شعرائه حسان والنابغة الجعدي وكعب بن زهير والحطيئة وفي هذا الفن يبدو أثر الإسلام في معانيه وألفاظه .

٧ ـ كما نظموه في الوعظ والتزهيد في الدنيا والدعوة إلى تقوى الله ، متأثرين في ذلك بالإسلام .

معاني الشعر في صدر الإسلام :

وقد تأثرت معاني الشعر في هذا العصر تأثراً واضحاً بالإسلام والقرآن الكريم فغلب على معانيه :

١ ـ العمق والدقة والفهم والاستقصاء وترتيب المعاني والأفكار .

٢ ـ ظهور المعاني الإسلامية والعاطفة الدينية في الشعر وغلبتها عليه وتوليدها من العقائد الإسلامية .

٣ ـ الوضوح والبساطة في المعاني والأفكار والأخيلة .

أسلوب الشعر وألفاظه :

تأثر الشعراء في عصر النبوة وبعده بالقرآن الكريم وحديث رسول الله تأثراً ظاهراً في الأسلوب والأداء مما أحدث تغيراً واضحاً في أسلوب الشعر في هذا العصر .

١ ـ فقد هجروا الحوشي والغريب والمبتذل والساقط والملحون ، وتردد في شعرهم كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإسلام .

٢ ـ وأمعنوا في جمال السبك وعذوبته وإحكامه وتلاؤمه .

٣ ـ وكثر في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق .

٤ ـ جزالة الأسلوب وقوته ، وكثرة روائعه وصوره الأدبية والبيانية .

وبعد فالأقدمون يقسمون الشعراء المخضرمين إلى طائفتين متميزتين : شعراء الوبر من أعراب نجد واليمامة وبواديها ، وشعراء المدر وهم أهل القرى كالمدينة ومكة والطائف ، وقرى عبد القيس في البحرين ، والحيرة بسواد العراق .

ويرون أن شعر أهل نجد واليمامة والبوادي أفحل من شعر أهل القرى وأجزل

لفظاً وأضخم أداء وأوسع مذهبا فى تنويع أساليب الـكلام . . وإن كان شعرهم لايخلو من حوشية فى العبارة ، ومنهم كان فحول الشعراء .

ويرون أن شعراء المدر ألين شعراً وأرق لفظاً وألطف كناية وأدمث أسلوباً ، وأن أشعرهم جميعاً أهل المدينة ، ومنهم كان شعراء النبي الذين نافحوا عنه الشعراء الناشئين فى قريش بعد أن لم يكن لهـــا شعر يذكر ، وأن شعر الأنصار فى الأوس والخزرج فى هذا العصر لان فى اللفظ وهان فى المعنى عما كان عليه فى الجاهلية وعللوا ذلك بأن الإسلام نسخ كثيراً من بواعث الشر التى تثير النفوس وتشعل الأحقاد . كالعصبية الجاهلية ، وحب الانتقام، والأخذ بالثأر ، والنشوة بالخمر والهجاء الـكاذب ، وأكثر مايجيش بالخواطر عند احتدام الشرور وتسكن إليه النفس عند الرضا والسرور وامر آخر ذكروه ، وهو أن كثرة تلقيهم آيات هذا القرآن المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يبهرهم ويأخـــذ بمجامع قلوبهم صغر قيمة شعرهم فى أعينهم ، واستخسوا معانيهم وأسلوبهم بالإضافة إلى معانيه وأسلوبه ، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه ، ومثلوا لذلك بقـوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام وشموخ شعر أمية بن الصلت فى الجاهلية واستخذائه فى الإسلام : لمـكان حسده لرسول الله .

قال الثعالبي [١] : كان حسان يقول الشعر فى الجاهلية فيجيد جـــداً ، ويغير فى نواصى الفحول ، ويدعى أن له شيطانا يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء ، ويقول مثل قوله فى بنى جفنة ملوك غسان :

أولاد جفنة حول قـــبر أبيهم ... قبر بن ماوية الـكريم المفضل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملـكا تراجع شعره وكاد يرق فى قوله ، ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب فى طريقه من الملك .

وأكبر من ذلك أن لبيداً العامرى وهو من أفحل شعراء الجاهلية ، عندما انقطع

---

(١) ٨٠ خاص الخاص للثعالبي ط ١٩٠٨

إلى حفظ القرآن ومدراسته انقطع عن قول الشعر فى الإسلام . ويقولون : إن من لم يتعرض لهذا الإفحام والانبهار من أعراب البوادى بقى شعره إلا قليلا على غرار شعر الجاهلية من أمثال الحطيئة وكعب بن زهير ، وكل هـذا كلام مقبول فى جملته ، ولكن كثيراً من أهل العلم والنقد من المتقدمين والمتأخرين يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة والمدينة والطائف مدسوس عليهم .

— ٣ —

وبعد ، فقد كان المسلمون الخلفاء يرعون الشعر والشعراء . وكان أبرز عمل قاموا به هـو الدعوة إلى المحافظة على الشعر الجاهلى وروايته وكتابته خوفاً من أن يندثر بكثرة من قتل من العرب فى الفتوحات ولما شاهدوه من قلة الرغبة فى الشعر عند الناس بتأثير الشعور الدينى الجديد ، ومحافظة على لغة القرآن ولفهم بلاغته وإعجازه . . ولهذا قال عمر بن الخطاب : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، فقالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . . . وكانوا يعتزون بالشعر ويقدرون رسالته وينصتون لحكمته وينوهون بأثره قال عمر : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجاته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم .

وسئل مالك بن أنس من أين شاطر ابن الخطاب عماله فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم وأن شاعراً كتب إليه يقول :

نحج ونغزو كل عام إذا غزوا	فأنى لهم وفر ولسنا بذى وفر
إذا التاجر الهندى جاء بفـارة	من المسك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدتـه	سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

قال : فشاطرهم عمر أموالهم .

وقال ابن عباس : قال عمر بن الخطاب ، أنشدنى قول زهير فأنشدته قوله فى هرم ابن سنان حيث يقول :

قوم أبوهم سنان حـين تنسبهم	طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجـــدهم قعدوا

فقال له عمر : ما كان أحب إلى لو كان هذا الشعر فى أهل بيت رسول الله .

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن هرم بن سنان . قال : صاحب زهير، قال : نعم، قال : أما إنه كان يقول فيكم فيحسن قال : كذلك كنا نعطيه فنجزل ، قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقاداً بفطرتهم وذوقهم: فأبوبكر « يقدم النابغة ويقول : هو أحسنهم شعراً وأعذبهم بحراً وأبعدهم قعراً »[1] ، وكان عمر يتذوق الشعر وينقده[2] ، وقدم زهيرا ولم يحكم بذلك فحسب بل شرح سبب حكومته بأنه كان « لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه[3] » وكان يرى أنه أشعر الناس[4] ، وكان يجلس هو وأصحابه فيتذاكرون الشعر والشعراء وأيهم أشعر[5] .

وقال[6] عمر بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان : من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مطلب

قالوا : نابغة بنى ذبيان قال : هو أشعر شعرائكم ؛ وكذلك كان علىّ بن أبى طالب، وكان يقدم امرأ القيس على الشعراء ويقول: هو أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة[7].

---

(١) ٧٨ ج ١ العمدة .

(٢) راجع : ٩٩ إعجاز القرآن ، ١٩٦ و ١٧٠ ج ١ و ٢٢٤ و ٢٢٥ ج ٢ البيان والتبيين ، ٣٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٧٦ ج ١ العمدة .

(٣) ١٣٥ الموازنة ، ٨٠ ج ١ العمدة ، ٣٢ جمهرة أشعار العرب ؛ وص ١٠٥ نقد الشعر .   (٤) ٣٧٩ وما بعدها ج ٢ العقد .

(٥) ٣٢ الجمهرة .   (٦) ٣٤ الجمهرة .

(٧) ٢٢ و ٢٨ ج ١ العمدة .

أشهر الشعراء المخضرمين

مزرد بن ضرار الذبيانى ـ زيد الخيل وفد على الرسول عام ٩ هـ وتوفى فى هذا العام ـ المخبل السعدى مات فى خلافة عمر .

عمرو بن الأهتم المنقرى ـ ربيعة بن مقروم ـ عبد الله بن عنمة الضبى .

سويد بن أبى كاهل اليشكرى وتوفى بعد عام ٦٠ من الهجرة .

عوف بن عطية بن الخرع التيمى من تيم الرباب .

قيس بن الخطيم وقد لاقى رسول الله ولم يسلم ـ كعب بن زهير ـ حسان ـ مالك ابن الريب .

شعراء الحماسة المخضرمون :

عمرو بن الأهتم ـ الخنساء ـ عمرو بن أحمر ـ زرعة بن عمرو ـ عامر بن الطفيل وفد على رسول الله ـ قيس بن الخطيم أدرك النبى ـ الحارث بن هشام توفى عام ١٥هـ ـ الضرار السلمى ـ عمرو بن شاس ـ سلم بن دارة ـ غسان بن وهلة ـ عبد الله بن عنمة الضبى ـ قبيصة بن جابر ـ عاتكة بنت عبد المطلب ـ أمية بن أبى الصلت ـ أبو خراش الهذلى ـ عبدة بن الطبيب ـ دريد بن الصمة ـ الأسود بن يعفر ـ قتيلة ـ النابغة الجعدى ـ سلمة الجعفى ـ الشماخ ـ عمرة بنت الخنساء ـ معن بن أوس ـ حسان ـ أبو الطمحان القينى .

صور من الشعر الإسلامى

— ١ —

قال أبو ذؤيب الهذلى ـ وكان له أولاد سبعة فماتوا كلهم ـ يرثيهم :

أمن المنون وريبه تتفجّع   والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أمامة ما لجسمك شاحبا   منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أو مالجسمك لا يلائم مضجعاً   إلا أقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أما لجسمى إنه   أودى بنىّ من البلاد فودعوا
أودى بنىّ وأعقبونى حسرة   بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم   فتخرموا ولكل جنب مصرع
فبقيت بعدهم بعيش ناصب   وإخال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم   وإذا المنية أقبلت لاتدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لاتنفع
فالعين بعدهم كأن حداقها   سملت بشوك فهى عور تدمع
حتى كأنى للحوادث مروة   بصفا المشقر كل يوم تقرع
وتجلدى للشامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع

— ٢ —

وقال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا :

لعمرى وما دهرى بتأبين مالك   ولا جزعا مما ألم فأوجعا
فعينى هلا تبكيان لمالك   إذا هزت الريح الكنيف المرفعا
وما كان وقافا إذا الخيل أحجمت   ولا طالبا من خشية الموت مفزعا
ولا بكهام سيفه من عدوه   إذا هو لاقى حاسرا أو مقنعا

أبى الصبر آيات أراها وأننى ... أرى كل حبل بعد حبلك أقطعا
وأنى متى ما أدع باسمك لم تجب ... وكنت حريا أن تجيب وتسمعا
تحيته منى وإن كان نائما ... وأمسى ترابا فوقه الأرض بلقعا
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فقد بان محموداً أخى حين ودعا
فعشنا بخير فى الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
سقى الله أرضا حلها قبر مالك ... رهام الغوادى الزجيات فأمرعا

— ٣ —

قصة عربى كريم للحطيئة :

وطاوِى ثلاث[١] عاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلٍ[٢] ... بِبَيداءَ[٣] لمْ يَعْرِفْ بهاسَاكِنٌ[٤] رَسْمَا
أخِى جَفْوَةٍ[٥] فِيهِ مِنَ الإنْسِ وَحْشَةٌ ... يَرَى البُؤْسَ فِيها مِنْ شراسَتِهِ نُعْمَى
وأفرَدَ فى شِعبٍ[٦] عَجُوزا إزاءها ... ثلاثةُ أشباحٍ تخالهُمُ بَهْمَا[٧]
حُفَاة ، عُرَاة ، ما اغتذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ[٨] ... وَلا عَرَفُوا لِلبُرِّ مُذ خُلِقُوا طَعْمَا
رَأى شَبَحاً وَسْطَ الظَّلام فَرَاعَهُ ... فلمّا رَأى ضَيْفاً تشمّر واهتمّا
فقال : هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ ولا قِرًى ! ! ... بحقّك لا تحرِمْه تَا الليلةَ اللحْما
فقالَ ابنُه لمّا رَآهُ بحيرة : ... أيا أبَتِ اذْبحنى ويسرْ لهُ طُعْما
وَلا تعتذرْ بالعُدْم علّ الذى تَرَى ... يظن لنا مالا فيوسِعنا ذمّا
فروَّى قليلا ، ثم أحجم بُرْهةً ... وإنْ هو لمْ يَذبح فتاهُ فقدْهمَّا
فبيْنا هما عنّتْ على البُعْد عانةٌ ... قد انتظمَت مِنْ خلفِ مِسْحلها نظْما

---

(١) أى مقيم ثلاث ليال على الطوى : أى الجوع . (٢) المرمل : الذى نفد زاده .
(٣) صحراء . (٤) رسم الدار ما كان من آثارها لاصقا بالأرض .
(٥) الجفوة : الوحشة . (٦) الشعب : طريق فى الجبل .
(٧) جمع بهمة : الصغير من أولاد الضأن والمعز . (٨) الملة : الرماد الحار .

عطاشاً تُرِيدُ المـــاء فانسابَ نحوَها ... على أنه مِنها إلى دمِها أظْمــا
فأمهلهـــا حتى تروَّتْ عطاشها ... فأرْسل فيهـــا من كنانته سَهَما
فخرَّتْ نحـــوصٌ ذات جحْش سمينةٌ ... قد اكتنزتْ لحمَاً وقد طبِّقتْ شحْما[1]
فيا بشْرَه إذ جرَّهَا نحـــو أهـــله ... ويا بشرهم لمـــا رأوا كلْمَها يَدْمَى
وَباتوا كِراماً قـــدْ قضَوْا حقَّ ضيْفهم ... وما غَرِموا غُرْماً ، وقـــد غنموا غُنْمَا
وباتَ أبُوهُمْ مِنْ بشاشته أبَاً ... لضيْفهمُ والأمُّ مِنْ بشرِهَا أُمَّا

— ٤ —

وقال مالك بن الريب المازنى ، يرثى نفسه ويصف قبره وكان خرج مع سعيد بن عفان أخى عثمان بن عفان لمـا ولى خراسان ، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس خفه فلدغته أفعى فلما أحس بالموت أنشأ يقول :

دعانى الهوى من أهل ودّى وصحبتى ... بذى الطبسين فالتفت ورائيـــا
فما راعنى إلا ســـوابق عـــبرتى ... تقنعت منهـا إن ألام ردائيـــا
الم ترنى بعت الضلالة بالهـــدى ... وأصبحت فى جيش بن عفان غازيا[2]
فلِلّه درى حـــين أترك طائعـا ... بنى بأعلى الرقتـــين وماليـا
تقول ابنتى لمـا رأت وشك رحلتى ... سفارك هـــذا تاركى لا أباليـــا
ألا ليت شعرى هل بكت أم مالك ... كما كنت لو غادى نعيك باكيـــا
إذا مت فاعتادى القبـــور وسلمى ... عليهن ، أسقين السحاب الغـواديا
ترى جـدثا قـد جرت الريح فوقه ... ترابا كلون القسطلانى هابيـا[3]
فيا صاحبي رحلى دنا الموت فاحفرا ... برابية إنى مقيم ليـــاليا

(١) النحوص : الأتان السمينة . الجحش : ولد الحمار . اكتنزت : امتلأت .

(٢) مالك : شاعر فاتك كان يقطع الطريق وكان من أحسن الناس وجها وأرقهم حديثا ، فمر به سعيد فى طريقه إلى خراسان وتألفه واتخذه فى خاصته .

(٣) القسطلانى : نسبة إلى قسطلان ؛ وهو الغبار الساطع ؛ والهابى : التراب الدقيق .

وخطا بأطراف الأسنة مضجعى   ورِدا على عينى فضلَ ردائيا
ولا تحسدانى بارك الله فيكما   من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذانى فجرانى ببردى إليكما   فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
تفقدت من يبكى علىّ فلم أجد   سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وبالرمل لو يعلمن على نسوة   بكين وفدين الطبيب المداويا
عجوزى وأختاى اللتان أصيبتا   بموتى وبنت لى تهيج البواكيا
لعمرى لئن غالت خراسان هامتى   لقد كنت عن بابى خراسان نائيا
تحمل أصحابى عشاء وغادروا   أخا ثقة فى عرصة الدار ثاويا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوننى   وأين مكان البعد إلا مكانيا

— ٥ —

وقال أبو دهبل الجمحى يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إن البيوت معادن فنجاره   ذهب وكل بيوته ضخم (١)
عقم النساء فما يلدن شبيهه   إن النساء بمثله عقم
متهلل بنعم ، بلا متباعد   سيان منه الوفر والعدم (٢)

---

(١) البيوت: المراد بها القبائل . المعادن : جمع معدن وهو منبت الجوهر ، النجار : الأصل، وكل بيوته ضخم: أى أن القبائل التى اكتنفته من أخواله وأعمامه شريفة عظيمة مثل هاشم وأمية ومخزوم .

(٢) متهلل بنعم : أى فرح بقول نعم . بلا متباعد: أى بعيد من قول لا ؛ وسيان: مثلان ، الوفر : المال الكثير ، العدم : قلة المال .

شعراء المدينة ومناظرتهم لشعراء مكة

دفاعا عن الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم

كان أبرز الشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية ورسولها عليه الصلاة والسلام ، ووقفوا فى مواجهة قريش ، ثلاثة من الأنصار : هم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبدالله بن رواحة ، وكان حسان أشعرهم ، ولم يكن شعرهم شعر أناقة وترف على النهج الذى ألفوا أن يقولوه فى الجاهلية ، وإنما كان شعر منافحة ودفاع عن الإسلام ورسوله والذين اتبعوه بإيمان ، كما كان معايرة لقريش بمخازيها ، فقد كان الأولى بها أن تكون أول الواقفين تحت راية الإسلام وفى صفوف المسلمين .

ولقد كان مما قاله أحد الصحابة محرّضا ومستحثا للأنصار ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ وكان الأنصار فى أول الأمر يخشون أن يهجوا مشركى مكة من قريش لأنهم أقرباء الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ويقول : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء ، فقال له الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ، قال : إنى أسلك كما تسل الشعرة من العجين . . قال الرواة : فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله ابن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان هجاء حسان وكعب لقريش قبل إسلامهم من أشد القول عليهم ، وأهونه عليهم هجاء عبد الله بن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم هجاء ابن رواحة(١) .

ويبدو أن حسان بن ثابت قد انفرد من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الشاعر المبين لدعوة دينية شاملة ، ندبه رسول الله صلى الله عليه وسلم للذود عنها

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول . ص ١٥٠ د . سيد حنفى حسنين .

وعن أعراض أنصارها ، فنافح ما شاء الله أن ينافح ، وخلد مواقفها فى غرر شعره ، وخلع عليه صاحبها من التكريم ما تنقطع دونه أعناق النظراء ،حيث نصب له منبرا فى مسجده يلقى من فوقه شعره ، ودعا له أن يؤيده روح القدس،ووهب له «سيرين» أخت مارية القبطية ، ووعده الجنة جزاء إجابته عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد اعتلى حسان المنبر فى يوم انتصاره الأدبى المظيم على شعراء بنى تميم فى وفودهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين قدموا عليه بعد فتح مكة ، وكانوا سبعين أو ثمانين رجلا فيهم وجوه القوم وسادتهم ، وكانوا غلاظا جفاة ، فنادوا الرسول من وراء الحجرات وقالوا : يامحمد جئناك لنفاخرك فائذن لخطيبنا وشاعرنا ، فأذن لهم ، وخطب منهم عطارد بن حاجب بن زرارة ، فغلا فى وصف قومه ، وزعم لهم الملك والغنى والكثرة والمنعة والسيادة والقوة على العرب جميعا ، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ثابت بن قيس الأنصارى ففاخر بالرسول وأتباعه من المهاجرين والأنصار،فدمغ بحقه باطلهم وطامن من غرورهم وكبريائهم،وفند دعاواهم ومزاعمهم.

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد شعراً جمع فيه المكارم والمحامد لقومه،فأومأ الرسول إلى حسان ، فأنشد قصيدته العينية ، التى أزال بها الغشاوة عن أعين القوم ، وجلا الصدأ الذى ران على قلوبهم ، حتى قال الأقرع بن حابس : والله إن هذا الرجل (ويقصد محمداً صلى الله عليه وسلم) لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر الناس ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ، ثم قال : أعطنى يامحمد ، فأعطاه عليه الصلاة والسلام ، فقال : اللهم إنه سيد الناس . . ثم أسلم الوفد . . .

وكان من أبيات القصيدة التى أنشدها حسان قوله :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للنـــاس تتبع[1]
يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا[2]

---

(١) الذوائب : جمع ذؤابة وهى أعلا الشىء ، وفهر : اسم الجد الأعلى لقريش ، وأصله حجر صلب .

(٢) السريرة والسر : ما يكنه الإنسان فى صدره ويخفيه عن غيره .

سجية تلك فيهم غير محدثــة ... إن الخلائق ـ فاعلم ـ شرها البدع [1]

إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع [2]

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم ... فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع [3]

أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطبعون ولا يرديهم الطمع [4]

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا [5]

إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم ... أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا [6]

ما زال سيرهم حتى استقاد لهم ... أهل الصليب ومن كانت له البيع [7]

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع [8]

كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسد ببيشة فى أرساغها فدع [9]

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهــواء والشيع [10]

أهدى لهم مدحى قلب يؤازره ... فيما يحب ـ لسان حائك صنع [11]

فإنهم أفضل الأحيــاء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمعوا [12]

---

(١) السجية : الغريزة . (٢) أى هم أسبق الناس وغيرهم لهم تبع .

(٣) المقصود بالجهل هنا : الطيش والحمق ، والأحلام : جمع حلم والمقصود منه : الأناة والعقل : أى أنهم لسعة عقولهم لا يتسرعون فى الغضب إذا استثارهم أحد .

(٤) لا يطبعون : لا يقعون فى الدنس والخسة ، ولا يرديهم الطمع : لا يهلكهم ويدفعهم إلى المقامرة . (٥) ونى : أبطأ وتأخر ، وما نزعوا : ما انصرفوا عن اتباعه ونصرته .

(٦) عوجوا : انزلوا ، ربعوا : وقفوا وأقاموا ـ كناية عن كمال الخضوع والاستسلام .

(٧) استقاد : خضع وأسلم القياد ، أصحاب البيع : اليهود .

(٨) الخور : الضعف والجبن ، والجزع والجازع : الخائف المذعور .

(٩) الموت مكتنع : أى دان قريب ، وبيشة : مأسدة فى واد بطريق اليمامة اشتهرت أسودها بقوة البطش ، والرسغ : المفصل ما بين الساعد والكف وما بين الساق والرجل ، والفدع : اعوجاج الرسغ ، وهو فى الأسود دليل الصلابة والقوة .

(١٠) شيعتهم : حزبهم وملاذهم .

(١١) يؤازره : يعاونه ويسانده ، والصنع والصناع : الحاذق فى صنعته .

(١٢) شمع : لعب ومزح ، يعنى أن فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقومه على سائر الأحياء لا يجادل فيه أحد سواء كانوا فى معرض الجد أو الهزل .

وهكذا كان لهذه القصيدة أثرها فى اعتراف « تميم » أولا بأن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ مؤتى له ، وثانيا بهذا الدين الذى يدعو إليه .

والحق أن حسان كان آية من الآيات التى أيد الله بها رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ، فقد كان المشركون أهل لسن ونخر وهجاء وقد حاربوا الرسول بهذا السلاح ، فكان لا بد له أن يعد لهم شاعراً سليط اللسان قوى البيان سريع المارضة ، وقد كان لمسكر المسلمين شعراؤه ، ولا بد أن يكون الكثير منهم قد تطلع لهذا الشرف السامى ، ولكن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بثاقب نظره ، ندب حسان لهذا الثغر من ثغور الدعوة ، فحسان أنصارى ، والأنصار قد نصروا رسول الله بسيوفهم ، فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم ، وهو من بنى النجار ـ ذؤابة الخزرج ـ وهو شاعر ناضج معروف المكانة، وقد كمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناحية النقص فى عدته الهجائية ، فعهد إلى أبى بكر أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، وقد ظهر أثر ذلك كله فى شعر حسان ظهوراً لم يخف على فطانة قريش ، فقالت بعد سماع شعر حسان : « إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قحافة » .

وقد سر النبى صلى الله عليه وسلم لهذا التوفيق الذى أصاب شاعره ، فكان يستنشده ويطيل الاستماع إليه ثم يقول : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » وروى أنه قال « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى »[1] .

وواضح من المواقف التى وقفها حسان وأمثاله ، أنه كما كان للدعوة شعراؤها المؤمنون بها المنافحون عنها ، فلقد كان لها كذلك أعداؤها ممن أخذوا يكيدون لها شعراً مثل أمية بن أبى الصلت وكعب بن الأشرف وعبد الله بن الزبعرى والحارث بن هشام ، وغيرهم .

---

(١) راجع : دراسات فى الأدب الإسلامى للأستاذ محمد خلف الله أحمد ص ٣٥ ، نسمات من عبير الأدب للدكتور محمد سرحان ص ١٠٤ ط ٢ .

وإذا كان لهؤلاء وأولئك مواقفهم الشعرية بعد فتح مكة ، فقد كان لهم كذلك مواقفهم قبل الفتح .

فى وقعة بدر الكبرى — مثلا — حيث كان نصر المسلمين رائعاً مؤزراً يقول حسان ابن ثابت :

سرنا ، وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا[1]

دلاهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار[2]

وقال : إنى لكم جار فأوردهم ... شر الموارد فيه الخزى والعار

ويمضى شعر المسلمين يسجل على قريش بغيها وبطرها الذى سجله القرآن من قبل، فقال كعب بن مالك :

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ، ليس لله قاهر

قضى يوم بدر أن نلاق معشراً ... بغوا، وسبيل البغى بالناس جائر

وقدحشدواواستنفروا من يليهم ... من الناس ، حتى جمعهم متكاثر

أما من فر من المشركين يوم بدر ، فقد اشتفى منهم شعر المسلمين بالتعيير ، والهزء والزراية ، ومن أوجع ما قيل فى ذلك ما أنشأه حسان فى قصيدة تعد من أقوى ماقيل من الشعر فى غزوة بدر، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام وتركه أخاه عمراً (أباجهل) يقتل فى ميدان القتال . هذه القصيدة التى بدأها حسان بقوله يتغزل :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة ... تسقى الضجيع ببارد بسام

ثم يخلص من الغزل إلى قوله :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجـــام

وبنو أبيه ورهطه فى معرك ... نصر الإله به ذوى الإسلام

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) دلاهم بغرور : أى إن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة المسلمين فاسلمهم للهلاك.

لولا الإله وجريها لتركنه   جزر السباع ودسنه بحوامى[1]

ومن أكثر ما ردده شعراء المسلمين يومئذ ، تمديدهم الصرعى من عظماء قريش ووصف هوانهم وقد ألقوا على أرض المعركة ينتظرهم مصير آخر مؤلم فى نار جهنم ، ووصفهم الأسرى وقد شدوا بالأغلال وقيدوا بالأصفاد . وها هو ذا حسان يصف المعركة التى دارت على المشركين فيقول :

طحنتهم والله ينفــــذ أمره   حرب يشب سعيرها بضرام
من كل مأسور يشد صفاده   صقر إذا لاقى الكتيبة حامى
ومجــــدل لا يستجيب لدعوة   حتى تزول شوامخ الأعــــلام
بالعــار والذل المبين إذا رأوا   بيض السيوف تسوق كل همام

ويقول كعب بن مالك :

بهن أبدنا جمعهم فتبــــددوا   وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فخر أبو جهل صريعا لوجهه   وعتبة قــــد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمى غودرن فى الوغى   وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها   وكل كفور فى جهنم صائر
تلظى عليهم وهى قد شب حميها   بزبر الحـديد والحجارة ساجر

ولم ينس المسلمون ما هددهم به المشركون من الإغارة عليهم والأخذ بالثأر، فهون شعراء المسلمين من ذلك، بل أكدوا أن سيأتى يوم يغزون فيه مكة ويستولون عليها، وفى ذلك يقول كعب بن مالك :

فلا تعجل أبا سفيان وارقب   جياد الخيل تطلع من كداء

أما موقف شعراء المشركين من تلك الغزوة ، فيظهر أن قريشاً تواصت على أن تخفى حزنها فى صدرها ، وأن لا تبوح بآلامها أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن انطلق

---

(١) راجع : الأثر القرآنى فى الصورة الأدبية ص ٢٤٧ : رسالة ماجستير د . صلاح الدين محمد عبد التواب ، من النقد والأدب د . أحمد بدوى ص ١٤ ــ ١٦ .

الشعر من عقاله ، معبراً عما يجيش فى النفوس إزاء هذه الهزيمة التى حاقت بقريش ، وإزاء تلك السخرية اللاذعة التى تنطلق من أشعار المسلمين .

وكان مما قاله شداد بن أوس يبكى من لقى مصرعه فى وادى بدر ويعدد عظماء القتلى ويصف مشاعره إزاء قتلهم :

تحيى بالسلامة أم بكر   وهل لى بعد قومى من سلام

فماذا بالقليب قليب بدر   من القينات والشرب الكرام

وهذا هو أمية بن أبى الصلت يبكيهم ويثنى عليهم ويصف مقدار ما آلم مكة لفقدهم :

ألا بكيت على الكرا   م بنى الكرام،أولى الممادح

ماذا ببدر فالعقنقل من مرازبة جحاجح

شمط وشبان بهاليل مغاور وحاوح

ألا ترون كما أرى   ولقد أبان لكل لامح

أن قد تغير بطن مكـ   ـة فهى موحشة الأباطح

ومضى بعض الشعراء يبكون مصابهم الخاص أو يندبون بنى قبيلهم أو يرثون بعض عظمائهم ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله الحارث بن هشام يرثى أخاه أبا جهل :

ألا يا لقومى للصبابة والهجر   وللحزن منى والحرارة فى الصدر

وللدمع من عينى جراراً ، كأنه   فريد هوى من سلك ناظمة يجرى

على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى   رهين مقام للركية من بدر

وتوعد بعضهم الأوس وهددهم بالانتقام والثأر ، وأخذ يخفف من غلواء الأنصار فيما ملأهم من الابتهاج بالنصر ، ويدعو المكيين بأن يناموا على الضيم ، وفى ذلك يقول ضرار بن الخطاب :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر   عليهم غداً والدهر فيه بصائر

وفخر بنى النجار أن كان معشر   أصيبوا ببدر ، كلهم ثم صابر

فإن يك قتلى غودرت من رجالنا　　فإن رجالا بعــدهم سنغادر
ونترك صرعى تعصب الطير حولهم　　وليس لهـــم إلا الأمانى ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة　　لهن بهــا ليل عن النوم ساهر

ولقد أسهمت المرأة بدورها فى البكاء على صرعى بدر من المشركين، ومما يروى من شعر هند بنت عتبة فى هذا المضمار ؛ قولها تبكى أباها عتبة بن ربيعة[1] :

أعينى جودا بدمع سرب　　على خـير خندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غـدوة　　بنو هاشم وبنـو المطلب
يذيقونه حد أسيـافهم　　يعلونه بعد ما قـــد عطب
يجرونه وعفير التراب　　على وجهه عاريا قد سلب

وكان من أجمل ما قالت المرأة من الشعر فى هذه الغزاة ، شعر قتيلة بنت الحارث تبكى أخاها النضر ، وتعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم فتقول[2] :

يا راكبا إن الأثيل مظنة　　من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بهـا ميتا بأن تحيـــة　　ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحـــة　　جادت بواكفها،وأخرى تخنق
هل يسمعن النضر إن ناديتـه　　أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ، ياخـير ضنء كريمـة　　فى قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربمـا　　منّ الفـتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أسرت وسيلة　　وأحقهم إن كان حق يعتـق
ظلت سيوف بنى أبيـه تنوشه　　لله أرحام هنـاك تشقق
قسراً يقاد إلى المنيـة متعبا　　رسف المقيد وهو عان موثق

---

(١) راجع : شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ليحيى الجبورى طبعة بغداد ص ١٧١ ، ١٧٢ ـ والأثر القرآنى فى الصورة الأدبية ص ٢٤٩ د . صلاح الدين محمد عبد التواب .

(٢) المرجع السابق ، من النقد والأدب د . أحمد بدوى ص ٢٣ ـ ٢٤ .

وفيما يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ما بلغه هـذا الشعر : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه » .

ولقد كان من الذين هاجتهم انتصارات المسلمين فى بدر وأضرمت نيران الحقـد وطلب الثأر فى نفوسهم : أبو أسامة معاوية بن زهير حيث يقول :

ولـما أن رأيت القـــوم خفوا وقـد زالت نعامتهم لنفر[1]
وأن تركت سراة القوم صرعى كأن خيـارهم أذباح عـتر[2]
وكانت جمـة وافت حمـــاما ولقيدا المنايا يـوم بـــدر[3]
فأقسم بالذى قـد كان ربى وأنصاب لدى الجمرات مغـر[4]
لسوف ترون ما حسبي إذا ما تبدلت الجلود جـــلود نمر

وينهض شاعر يهودى قد ملئ قلبه غيظاً وحقداً على محمد صلى الله عليـه وسلم ودعوته ، وقد رأى فى موقعة بدر نذير سوء عليه وعلى قومه وعلى دياره فى يثرب وما حولها فيذهب إلى مكة مستنهضا قريشا مستثيرا رجالها ليأخذوا بثارات قتلاهم فى بدر فيقول :

طحنت رحى بدر لمصرع أهله ولمثـــل بدر نستهل وندمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعـدوا إن الملوك تصرع
نبئت أن الحارث بن هشامهم فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجمـــوع وإنمـا يحمى على الحسب الكريم الأروع

ومهما كان القول من جانب شعراء المسلمين ، أو شعراء المشركين فقد كان لواء الشعر معقودا على حسان ، حيث كان يضرب بشعره فى مقاتل قريش ، ويحشد كل إمكانياته البيانية فى إطار إيمانه المنيع العميق وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان مما قاله كذلك فى هجاء قريش والتهكم بهم بعد بدر :

---

(١) زالت نعامتهم : ذهبت نفوسهم . (٢) عتر : صنم .
(٣) الجمة : الجماعة من الناس . (٤) مغر : جمع أمغر : يعنى : أحمر .

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم ... وماء بدر زعمتم غير مورود

ثم وردنا ولم نسمع لقولكم ... حتى شربنا رواء غير تصدير

ويتعرض حسان لقريش ولأبى سفيان بصفة خاصة ، وقد عادى النبى صلى الله عليه وسلم عداء شديدا ، وهجاه وسخر من دعوته فيقول حسان :

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

وإذا كان حسان لم يكن وحده الذى يصور أحداث المعارك بين المسلمين والمشركين ، وإنما شاركه فى ذلك أيضاً كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، غير أن حسان كان قد فاقهما فى كثرة النظم ، وكثرة ما أجاد أيضاً ، حتى علت منزلته واحتل من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم المكانة الأولى بين الشعراء .

وكنا قد وقفنا من قبل على بعض أشعار كعب بن مالك فى تسجيل بعض الأحداث فى غزوة بدر . .

أما عبدالله بن رواحة فقد أسهم بدوره بقدر لا بأس به فى معركة الإيمان ضد الشرك ، وكان يضفى على الرسول صلى الله عليه وسلم من رائق القول ما ينم عن إحساس صادق ويقين خالص ، وكان مما قاله فى وداع النبى صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى غزوة مؤتة :

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

ولكن يبدو أن حسان كان قد غطى كل أحداث عصر الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره ، بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء المشركين ، كما فعل فى رده على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمى حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكى على بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش ، ومن هذه المناقضات والقصائد التى قالها حسان :

ابك بكت عيناك ثم تبــادرت　　بدم تعل غروبها سجام

ومنها :

تبلت فؤادك فى المنـام خريدة　　تسقى الضجيع ببارد بسـام

ومنها :

خابت بنو أسد وآب عزيزهم　　يوم القليب بسوءة وفضوح

ومنها :

جمحت بنو جمح لشقوة جــدهم　　إن الذليـل موكل بذليــل

إلى غير ذلك من القصائد والمناقضات التى سجل بها حسان أخبار غزوة بدر .

أما فى أُحد ، فنراه يؤدى دوره كما أداه فى بدر ، فهو يرد على المشركين حين أخذتهم الحمية فى هذه الغزوة بعد أن قدر لهم فيها النصر ، وكانت مهمة حسان فيها لذلك أشق ، ولأنه مطالب بأن يقلل من نشوة المشركين بالنصر ، وأن يؤكد — فى هذه الظروف — أن الغلبة للمسلمين ، فهو يرد على أبى سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التى أولها :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم　　ولست لزور قلتـــه بمصيب[1]

كذلك يعيّر قريشاً بأن أعطت لواءها لعبد حبشى يسمى (صؤاب) وهو فى كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتلاها وشهدائها ، فنراه يقول :

فخرتم باللواء وشر فخـــر　　لواء حين رد إلى صؤاب

جعلتم فخركم فيه بعبــــد　　وألأم من يطا عفر التراب

وها هو ذا يهجو عتبة بن أبى وقاص لأنه رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أُحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى صلى الله عليه وسلم ، فيسجل حسان هذه الحادثة فى هجائه فيقول :

فأخزاك ربى يا عتيب بن مالك　　ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق

---

(١) القرم : السيد .

بسطت يميناً للنبي تعمداً فأدميت فاه ، قطعت بالبوارق

وتتكرر الصورة ـ والحرب سجال ـ وحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويفخر بالمسلمين ،ويؤدى دوره فى كل ذلك خير أداء،فهو مراسل حربى ، يسجل الأخبار ، وهو صحيفة يومية ينشر هذه الأخبار ويلونها بما يتفق وهدف المسلمين[1] .

إلى أن كان الفتح الأكبر ، وهو الذى استعد له كل شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه ـ فتح مكة .

فشارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة استعدادا لها ، فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح ، ويذكرهم بما فعلت بهم قريش :

عنانى ولم أشهد ببطحاء مكة رجال بنى كعب تحز رقابها
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى سهيل بن عمرو وخزها وعقابها

إلى أن يقول :

ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها

ثم يتم فتح مكة ، ويدخل الجيش الإسلامى وعلى رأسه قائده محمد صلى الله عليه وسلم ، فيعلن حسان انتصار الإسلام ، وانتصار الأنصار ، بقصيدته التى عرف بها ومطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

وفيها تلك المقدمة التى استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للخمر وشربها،ولكن علل ذلك النقاد بأنها من نظمه فى الجاهلية وأكملها فى الإسلام[2] .

---

(١) راجع : حسان بن ثابت شاعر الرسول ص ١٦١ د . سيد حنفى حسنين .
(٢) المرجع السابق ١٦٤ .

ومن هذه القصيدة يقول حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأسنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وتتوالى الأحداث ، وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو في كل مرة يسجل الحدث ، معبراً عن شعوره إزاءه وشعور سائر المسلمين .

ثم يأتى يوم يقبض الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فيه ، وتصعد روحه إلى الملأ الأعلى ، فيبكيه حسان ، لا كما يبكيه كل المسلمين ، ولكن كما يبكيه شاعر رافق الرسول فى أهم فترات حياته ، وشارك فى كل حدث مر به صلى الله عليه وسلم ـ بقلبه ولسانه ، وأحس بمشاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه ، فكان بكاؤه تسجيلا لهذا الحدث الجلل ، وتعبيراً عن أحزان أمة أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالته وإرشاده وقدوته ، وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلك التى مطلعها :

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد[1]

هذا هو حسان بن ثابت . الذى يمكن أن نلمس فى شعره ـ وبعض شعر صحابه الذى تمثلنا به ـ روحا جديدة ، وسمة من الإيمان العميق بالدين اقتنعوا به فاعتنقوه ، متخلين بذلك عن الأسلوب الذى تعودوا أن يلتزموه فى الجاهلية . ومن هنا جاء الشعر أغزر معنى وأقل أسلوبا ، وربما يكون حسان نفسه قد أحس ذلك ، ومن ثم كان يعمد بين الحين والحين إلى الأسلوب الجزل الذى كان يطرب هو نفسه له وتطرب لسماعه الآذان ، ومن أمثلة ذلك قوله فى قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق ، وكان الأول قد شبب بنساء المسلمين ، وألب قريشا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الثانى قد حزب الأحزاب ضد المسلمين .

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول ص ١٦٥ .

قال حسان :

لله در عصابة لاقيتهم	يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم	مرحا كأسد فى عرين مغرف
حتى أتوكم فى محل بلادكم	فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستنصرين لنصر دين نبيهم	مستنزين لكل أمر مجحف

وكان حسان يحن إلى هذا اللون من الشعر الجزل المتسم بالفحولة الذى تعود أن يقوله فى الجاهلية كلما كانت المناسبة عظيمة ، وأى مناسبة أعظم من فتح مكة ، ذلك الحادث الذى هز أعطاف الزمان ما عاش رواة التاريخ ، ففى معركة فتح مكة انتصار للمؤمنين على عبدة الأوثان ، وتوكيد وتثبيت للرسالة السماوية ، واسترداد للبيت العتيق ، وتغلب على معدن الكيد للرسول ولرسالته فى شخص قريش ، ولذلك فقد أطلق حسان لشاعريته العنان ، فرجعت به فى تحليقها إلى نمط الأسلوب الجاهلى لفظاً واصطلاحاً[1] فقال :

عفت ذات الأصابع فالجواء	إلى عذراء منزلها خلاء
ديار من بنى الحسحاس قفر	تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس	خلال مروجها نعم وشاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها	تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات	على أكتافها الأسل الظماء

والقصيدة طويلة موسومة بالفحولة ، ولم يتحرج الشاعر فيها من ذكر الخمر إرضاء لشيطان شعره الأصيل ، مشيراً إلى الأماكن النصانية التى تتصل بطرف من حياته القديمة قبل الإسلام فى ظل الغساسنة ملوك الشام .

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٢ د . مصطفى الشكعة .

لقد كان شعر حسان وصحابه من شعراء الرسول ـ وخاصة فى تلك الفترة وهـذه الظروف ، حيث كانت المناقضات والمناظرات ، حيث كان الدفاع عن الإسلام ورسوله ـ فـكان شعر حسان وصحبه إذن جامعاً بين فحولة شعر الجاهلية وبين المعانى الإسلامية، فإذا كان حسان جاهليا فى قصيدته الهمزية السابقة ، رغم أنها قيلت فى أعز مناسبة إسلامية أراد أن يخلدها بـكل إمكانياته ومواهبه ، فأطلق لشاعريته العنان بغـير تحرز ، فإنه هو نفسه القائل فى رثاء حمزة بعد أن قتل فى موقعة أحد ، موازناً بين مثواه فى جنة الخلد ، ومثوى الهالـكين من قريش فى النار ، مركزاً على المعانى الإسلامية:

وإن جنان الخلد منزله بها وأمر الذى يقضى الأمور سريع

وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم حميم معاً فى جـوفها وضريع

ويمـكن القول بأن الشعر على ألسنة الشعراء المنافحين عن العقيدة ، كحسان وعبد الله بن رواحـة وكعب بن مالك ، كان مكسواً ثوب الإيمان ، ملتزماً المعانى الإسلامية ، طالما كان فى التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة ، جانحاً عنها إلى أسلوب الشعر الجاهلى متى كان فى ذلك فائدة للدعوة أيضاً(١) ، وبعبارة أخرى ، كان الشعر يلتزم المعانى التى تؤذى نفوس قريش بالحديث عن الأنساب والوقائـع والأيام والمآثر ، وهو السلاح الذى ينفع مع قريش ، ذلك أنها لم تـكن تحفل بوصمها بالشرك والـكفر وعبادة الأوثان ، لأن ذلك كان مصدراً لفخرهم والاعتزاز بدين آبائهم ، فـكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقاً هجاء(٢) .

ولعله من أهم الملاحظات فى هذا الشعر الإسلامى ـ فى إطاره العام ـ أنه شعر مقطوعات ، وليس شعر قصائد ، وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للأستاذ أحمد الشايب ، الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية د . مصطفى الشكعة .

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٦ د . شوقى ضيف، الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .

الشاعر إلى موضوعه مباشرة دون تقديم ، وكانت الظروف التى يعيشها المسلمون ـ وخاصة الشعراء منهم ـ تقتضى أن يكون شعرهم سريعاً فى مقاومة المشركين حتى يردوهم مخذولين .

ومن هنا كانت الأحداث التى تمضى سراعاً لا تدع للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم ، وإنما كانت تلح عليه إلحاحاً من أجل أن يلاحقها بنفس سرعتها ، ومع ذلك لم يخل هذا الشعر الإسلامى من روعة وجودة وإتقان .

انتهى الكتاب بحمد الله وعونه

فهرس الموضوعات